

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

سلسلة الأعداد الخاصة

و نيت فارتو

3

وسقطت كل الرعوس !



وسقطت كل الرءوس

فى يونيو 1955م أنشئت المخابرات المصرية

ومنذ اللحظة الأولى بدأت عملها

وصراعاتها

وانتصاراتها

وفى هذه المجموعة المحدودة ، التى تشرفت بنشرها على حلقات ، فى مجلة الشباب ، المصرية ، عدد قليل من عمليات المخابرات العامة المصرية

مجموعة ، ما زالت تبث فى نفسى شعوراً خاصاً للغاية

شعوراً بأننى مصرى

وبأننى شديد الفخر بمصريتى ...

إلى الأبد

وأنه مع مخابرات وطنى ، سقطت كل رءوس العدو

كل الرءوس .

ونبيل فاروق

الاختيار! ..

التقطت (نادية) نفسًا عميقًا ، وتألقت في عينيها فرحة الانتصار ، وهي تحصى أرباحها في ذلك اليوم ، من أيام عام 1970م ، ثم رفعت عينيها إلى أمها ، وهتفت في حماس :

- الآن يمكنني شراء سيارة .

ولم تكن (نادية) واحدة من النساء اللاتي اقتحمن عالم الأعمال والتجارة في تلك الفترة ، وإنما كانت محررة بالقطعة ، في إحدى الصحف القومية ، يعتمد عملها على اللهاث خلف الأخبار ، وجمع المعلومات ، وكتابة الموضوعات ، ثم تتقاضى أجرًا زهيدًا ، مقابل ما ينشر من كل هذا ، دون أن تكون موظفة رسمية في الصحيفة ، ودون أن تمتلك الحق في حمل بطاقة صحفية ، أو تسجيل اسمها في نقابة الصحفيين ..

ولكنها كانت كتلة من النشاط والطموح ..

لقد وزعت عملها ما بين الصحف والمجلات والإعلانات ، وراحت تقطع شوارع (القاهرة) بحثًا عن خبر ، أو معلومة ، أو إعلان ..

وأخيرًا أصبحت تمتلك عدة منات من الجنيهات ، تمكنها من تحقيق حلمها الأبدي ، في امتلاك سيارة خاصة ..

وفي طيبة وحنان ، سألتها أمها :

- وهل تعرفين شيئًا عن موضوع السيارات هذا ؟

أجابتها (نادية) : كلاً ، ولكن الأستاذ (صالح) يعرف الكثير . وكان (صالح) هذا شخصًا معروفًا في تلك الفترة ، بالنسبة لأولئك الذين يحلمون بامتلاك واحدة من السيارات المستعملة ، التي تتكدس في موانئ (أوروبا) ، فقد ساعد العديدين على شراء سيارات أنيقة ، تبدو في جودة استعمالها أشبه بالجديدة ، وعرف طريق السفر إلى (أوروبا) ، والذي كان بدوره حلماً للعديدين ، في أوائل السبعينات ..

وعندما التقت (نادية) مع (صالح) ، قالت في لهفة :

- أنا صحفية في جريدة (.....) وأريد شراء سيارة .

ومع زجاجة المياه الغازية ، التي قدمها لها ، دارت بينهما دردشة قصيرة ، تحوى بعض الأسئلة بريئة المظهر ، حول عمل (نادية) وأسماء رؤسائها ، وعلاقاتها ، ومعارفها ، ومدى قربها من بعض المسئولين ، ثم استرخى (صالح) في مقعده ، وحملت ابتسامته الكثير من الارتياح ، وهو يقول :

- لو أردت رأيي بصراحة وصدق ، فأفضل ما تفعلينه هو أن تسافري بنفسك إلى (روما) ، وهناك أعذك بالحصول على سيارة رائعة .

ووافقت (نادية) على الفور ..

وفي الطائرة ، التي أقلتها إلى (روما) ، انتقل الحديث بين (صالح) و (نادية) إلى الجيش ، والنكسة ، و (إسرائيل) ، وراح (صالح) يشعل في أعماقها نقاط الألم والضعف ، في تلك الفترة التي تلت هزيمة 1967م ، حتى أدرك أن الفريسة قد استوت ، وأصبحت جاهزة لبدء اللعبة ..

وفي (روما) ، أصبح (صالح) هو المسئول عن كل شيء ، فقد أسلمته (نادية) قيادتها تمامًا ، كما سلمته من قبل كل مدخراتها في (القاهرة) ..

وكما يحدث في الأفلام ، أو قل في الأحلام ، وجدت (نادية) نفسها في حجرة فاخرة ، في فندق عالمي ، من فنادق النجوم الخمسة ، فاغتسلت ، وارتدت ثيابًا مناسبة ، ثم غرقت في شوارع (روما) بكيانها كله

وعندما عادت إلى الفندق ، كانت تحلق في عالم من الأحلام الجميلة الوردية الناعمة ..

وفي اليوم التالي ، جاء (صالح) ليكمل الحلم ، فاصطحبها إلى حيث ابتاعت سيارة فارها أنيقة لامعة .

وفي الفندق ، استقبلوها بشكل مختلف ، وهي تهبط من السيارة الفاخرة ، وأسرع الحارس يفتح لها باب السيارة ، وباب الفندق ، وهي تخطو إلى البهو كأميرة فرعونية ، وخلفها (صالح) يبتسم ابتسامة واسعة ..

وفي البهو الأنيق ، تلاشت سعادتها بعض الشيء وهي تسأله في قلق :

- ولكن هناك مشكلة ..

ثم السيارة استنفد كل النقود ، وهناك أجر الفندق ، ومصاريف الشحن ، و ... قاطعها مبتسمًا :

- لا تجعلي كل هذا يقلقك .

كانت عبارة مفتوحة ، لا تحمل أية وعود أو التزامات ، ولكنها كانت تكفي في مثل ظروفها ، خاصة وأن (صالح) قد دعاها لتناول الغداء في مطعم فاخر ، اصطحبها إليه في سيارتها ..

وشعرت (نادية) بشيء من الاطمئنان ، فمن المؤكد أن (صالح) يعرف الوضع ، وسيتولى كل شيء بنفسه ..

ولكن (صالح) أوصلها إلى الفندق ، ووعدها بمقابلتها في اليوم التالي ، و ...

واختفى ..

لم يعد في اليوم التالي ، أو الثالث ، أو الرابع .

لقد غاب أسبوعًا كاملًا ..

وكادت (نادية) تجن ..

لقد تركها (صالح) في فندق فاخر ، ولكنها كانت ترتجف
رعباً طوال الليل والنهار ، ولا يغمض لها جفن ، وهي تتساءل :
كيف ستدفع أجرة الفندق ؟ .. بل كيف تعود إلى (القاهرة) ؟

وأصبحت تشعر بتوتر لا حدود له ، وهي تدخل الفندق أو تخرج
منه ، وتتصور أن جميع العاملين فيه يرمقونها بنظرة اتهام ،
ويعلمون أنها لا تملك شروى نقير ، بل وينتظرون اللحظة المناسبة
للاقتضاض عليها ، ومطالبتها بالأجر المطلوب ، ثم تسليمها للشرطة
الإيطالية ، عندما تعجز عن دفعه ..

ودارت في ذهنها عشرات الخواطر والاحتمالات ، عن سر
غياب (صالح) ، دون أن يتطرق فكرها إلى الحقيقة المخيفة ..
حقيقة أن (صالح) هذا جاسوس لجهاز (الموساد) ..

جاسوس من طراز خاص ، يطلق عليه اسم (الفرار) ، تقتصر
مهمته على اختيار الفريسة وتجهيزها ، بحيث تصبح مؤهلة للتجنيد ..
وحقيقة أن كل ما حدث ، لم يكن سوى خطة نمطية ، للضغط
على مواطن الخوف والضعف في نفسها ، حتى تنهار ، ويتم
تجنيدها بسهولة ويسر ..

وبعد أسبوع كامل ، ارتفع رنين جرس الهاتف في حجرتها ،
فاختطفت سماعته في لهفة ، ولم تكد تضعها على أذنها ، حتى
سمعت صوته يقول في هدوء :

- أنا (صالح) ..

خفق قلبها في عنف ، وهي تهتف :

- أستاذ (صالح) .. أين كنت ؟ .. لقد كدت ..

لم تستطع إتمام عبارتها ، ومنعها الخجل من الاعتراف بأنها
كادت تجن فزعاً ، ولكن (صالح) قال في هدوء :

- أنا أعذر .. لقد أخرجتني بعض الأعمال المهمة ..

سأراك صباح الغد .

أنهت المحادثة وهي تتنفس الصعداء ، وتشعر بأن الأمور
ليست سيئة إلى الحد الذي تتصوره ، وأن (صالح) سيأتي
وتنتهي كل المشكلات ..

وأتى (صالح) بالفعل ، وأخبرها بأن السيارة قد تم شحنها إلى
(القاهرة) ، وحساب الفندق مدفوع ، وكل شيء على ما يرام ،
ثم اصطحبها إلى المطعم الفاخر ، وراح يحدثها عن حياته وصفقاته ،
وعالم المال والأعمال ، والثراء ..

وفي بساطة بدت لها تلقائية ، شاركها صاحب المائدة المجاورة
حديثهما ، ثم لم يلبث أن انتقل لمشاركتهما مائدتهما ، واندمج
معهما في حديث المال ، ولم تكد (نادية) تشير إلى أنها صحفية
مصرية ، حتى تهللت أسارير الرجل وقال في حماس :

- آه .. إتني أفكر منذ فترة فى افتتاح فرع لشركتى فى (مصر) ،
وأبحث عن شخص موضع ثقة ، ليكون مندوباً لى هناك .

قال عبارته ، وامتد الحديث تلقائياً حول (مصر) والحرب ، وحالتها
الاقتصادية .

وفى نهاية الحديث ، طلب منها الرجل ، أو عرض عليها ، أن
تكون مندوبة لشركته فى (مصر) ، ثم منحها فرصة للتفكير ،
على أن يلتقى بها فى اليوم التالى .. وفى طريق العودة إلى
الفندق ، سألت (صالح) :

- ما رأيك ؟

أجاب فى حماس :

- فرصة نادرة .. أنت محظوظة بحق .. هذه الشركات تتعامل
بملايين الدولارات .

وفى اليوم التالى ، ذهبت (نادية) وحدها إلى المطعم ، ولم
يحضر (صالح) ، ولكن رجل الأعمال لم يهتم كثيراً لعدم حضوره ،
وإنما استقبل (نادية) فى حرارة ، وراح يشرح لها مشروعه ،
ويتحدث بأرقام مذهشة ، ذات ستة أصفار ، ثم ذكر أمر حصول
(نادية) على نسبة مئوية ، بالإضافة إلى مرتب ثابت ، جعل رأسها
يدور ويدور ، حتى إنها لم تعد تهتم بغياب (صالح) ، إلا أنها لم

تكد تلتقى به فى المساء ، حتى قصت عليه الأمر كله فى حماس ،
فابتسم قائلاً :

- ألم أقل لك : إنك محظوظة ؟

وكان هذا آخر عهدهما به ..

لقد اختفى من حياتها تماماً ، طوال الفترة المتبقية فى (روما) ،
بعد أن انتهت مهمته كفرز ، وبدأت مهمة رجل الأعمال الزائف الذى
تعددت لقاءاته مع (نادية) ، وراح يضع أمامها المشروع بكل دقائقه ،
ثم قال :

- كل شىء جاهز للتنفيذ ، ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

تطلع إليها صامتاً لحظات ، ثم قال :

- أنت تعلمين أن رأس المال حذر ، لا يخطو خطوة ، قبل أن
يطمئن إلى موضع قدميه ؛ ولهذا فالأفضل أن يبقى الأمر سراً
بيننا ، حتى أحصل على الضمانات اللازمة .

- فليكن .. هذا من حقك .

ابتسم وهو يقول :

- هذا ليس كل شىء .. هناك أيضاً الحالة الاقتصادية فى (مصر) ..

هل تسمح ببدء مشروع كهذا ؟ .. وماذا عن الحرب ؟ .. هل تفكر

(مصر) فى دخول الحرب ، أم إن الأمور قد استقرت هناك ؟

تطلعت إليه (نادية) فى صمت ، فقال :

- باختصار .. أريد استغلال موقعك كصحفية ، فمهنتك هى البحث عن الأخبار .. أخبار الاقتصاد ، والجيش ، و ... أنت تعرفين هذه الأمور ، التى تلزم معرفتها ، قبل بدء مشروع سيتكلف عشرات الملايين من الدولارات .. أليس كذلك ؟
وافترقا فى هذه المرة وقد حدد لها رجل الأعمال راتبًا ضخماً ، ومنحها مبلغاً كبيراً كعربون ، ووعدها بأن يلتقيا مرة أخرى فى (القاهرة) ، لدراسة المشروع ، ومعرفة ما لديها من أخبار ومعلومات ..

وعادت (نادية) إلى (... القاهرة) ..

عادت وهى تحمل بضع عشرات من الدولارات ، وفرصة عمل ضخمة ، وبوليصة شحن السيارة ، و ...

والكثير من الشك ..

وكان على هذا الشك أن يحسم مشكلة بالغة الأهمية والخطورة ، فى حياة كل إنسان .

مشكلة الاختيار ..

هل تقبل هذا العمل ، بكل ما يحيط به من شكوك ، وتحصل

على الأرباح الطائلة ، والثروة ، والحياة المستقرة الناعمة ، أم تعود مرة أخرى إلى الأعمال غير المنتظمة ، والحياة المتقلبة ، واللهات خلف الأخبار والموضوعات ؟

ولم تستغرق (نادية) طويلاً ..

لقد انطلقت بسيارتها على الفور إلى مبنى المخابرات العامة ، وقالت لحارس المبنى فى حزم وحسم :

- أريد مقابلة أحد المسؤولين .

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كانت (نادية) تجلس فى مكتب ضابط مخابرات مصرى شاب ، أصر على دعوتها لتناول كوب من عصير الليمون الطازج ، قبل أن يسألها :

- ماذا لديك يا آنسة (نادية) ؟

- شكوك .. مجرد شكوك ..

شكّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى هدوء :

- فليكن .. دعينا نستمع إليها ..

وكانما كانت (نادية) تنتظر هذا المطلب .. (والله) لخص

لقد انطلقت تروى ما لديها فى سرعة واضطراب ..

ولم يقاطعها ضابط المخابرات الشاب مرة واحدة ..

لقد تركها تفرغ كل ما لديها قبل أن يقول في هدوء أدهشها :
- إنها ليست مجرد شكوك يا آنسة (نادية) .. إنها معلومات مهمة .. بل بالغة الأهمية .

وبعد شهر واحد من هذا اللقاء ، اتصل رجل الأعمال الإيطالي بـ (نادية) ، وأخبرها بأنه سيصل إلى (القاهرة) في موعد حدده لها ، لاستكمال دراسة المشروع ، فأخبرته هي بأن لديها كمية لا بأس بها من المعلومات المهمة ..

وحضر الرجل في مواعده .. وأعطته (نادية) المعلومات ، وحصلت منه على دفعة جديدة من الدولارات الأمريكية ، وتركته يسافر سعيداً واثقاً ، وانطلقت هي لتبلغ ضابط المخابرات المصري عن تفاصيل ما حدث ..

وعندما استنفد رجال المخابرات كل ما يريدونه ، وتلاعبوا برجل الأعمال كما يحلو لهم ، جاءت الأوامر بإنهاء العملية ..

وسقط رجل الأعمال الزائف ، في أول رحلة بعدها إلى (القاهرة) ..
وسقط (صالح) متلبساً ..

وعندما صدر الحكم بإعدامه ، غمغم (صالح) في انهيار :

- أنت يا (نادية) ؟ .. من كان يتوقع منك هذا ؟

ولم تبال (نادية) بعبارة ..

لقد عادت تقطع القاهرة بحثاً عن أخبار وموضوعات جديدة ، ولكن بعد أن أصبحت صحفية رسمية ، تحصل على مرتب منتظم من الجريدة ..

وكانت هي التي نشرت خبر الحكم بإعدام (صالح) ، وهي تشعر بارتياح شديد ، فقد أحسنت العمل ..
وأحسنت الاختيار .

الخدعة الكبرى ..

لم تكد الطائرة القادمة من (القاهرة) تهبط في مطار الخرطوم ، في ذلك اليوم من أيام عام 1959م ، حتى اتجهت إليها مباشرة سيارة رسمية ، تحمل أحد رجال الأمن السودانيين ، ووقف سائقها يراقب الهابطين من الطائرة في اهتمام ، حتى سمع رجل الأمن السوداني من خلفه يقول :

- ها هو ذا .

كان يشير إلى شاب وسيم ، عريض المنكبين ، ظهر عند باب الطائرة ، وهو يقبض في إحكام وقوة ، على كتف رجل أسمر ، بدت ملامحه صورة مجسمة للخزي والعار ، وبسرعة أحاط اثنان من رجال الأمن السودانيين بالرجل الأسمر ، وأحاطا معصميه بالأغلال ، في حين خلع الشاب الوسيم نظاره الداكن ، وصافح رجل الأمن السوداني الكبير في هدوء ، وهو يقدم نفسه قائلاً :

- (أكرم ...) .. من المخابرات المصرية .

ابتسم رجل الأمن السوداني قائلاً :

- مرحباً بك في السودان الشقيق .. كنا في انتظار وصولك ،

مع هذا الخائن .

حملتهما السيارة الرسمية إلى خارج المطار ، وهما يناقشان أمر ذلك الجاسوس (عباس جمال الدين) ، الضابط السوداني السابق ، الذي جنده عضو البرلمان الأريتري (عثمان إبراهيم العجيل) للعمل لحساب (إسرائيل) ، والذي ألقّت المخابرات المصرية القبض عليه في (القاهرة) .

وفي اهتمام واضح جلي ، كان الضابط المصري يقول لنظيره السوداني :

- صحيح أن هذا الجاسوس نجح في تجنيد ستة آخرين للعمل معه لحساب (الموساد) ، إلا أننا لا نعتبر إلقاء القبض عليه غاية في حد ذاته ، بل يهمنا أكثر ما ألقى به ، من أنه قد تلقى تدريباته في (أسمره) بالحبشة ، فهذا يؤكد بعض المعلومات والشكوك لدينا ، في أن الإسرائيليين قد نقلوا مركز عملياتهم الخاصة بالقاهرة إلى (أسمره) .

سأله الضابط السوداني :

- إنها معلومة عظيمة الأهمية بالفعل ، ولكن كيف يمكنكم الاستفادة منها ؟

صمت الضابط المصري لحظات ، ثم أجاب :

- هذا يمنحنا نقطة تفوق ، بحيث يمكننا للتوصل إلى قلب الإسرائيليين .

سأله السوداني في قلق : *أنتظرون هذا سهلاً؟*

أنتظرون هذا سهلاً؟

ابتسم رجل المخابرات المصري ، وهو يقول :

- كلاً بالطبع .. هذا الأمر يحتاج إلى خدعة .. خدعة

كبرى .

في دكان خردوات صغير ، في شارع الجمهورية بالخرطوم ،

نهض صاحب الدكان اليهودي (إبراهيم منشة) ، يستقبل صديقه

(إسماعيل عباس صبرى) ، الشاب السوداني ، المصري الأم ،

الذى يعمل فى سلاح المهندسين بالخرطوم .. كان (منشة) يبذل

قصارى جهده ، منذ عدة أشهر ، لتوطيد علاقته بذلك الشاب

السودانى ، الذى بدا له مثاليًا ، للعمل لحساب (الموساد) ، فهو

رزين ، كتوم ، حريص .. وفى اليوم السابق بالتحديد ، تلقى

(منشة) تعليمات من مركز التجسس فى (أسمره) ، بمصارحة

(إسماعيل) بالأمر ، وعرض أمر تجنيده بصورة مباشرة ..

وهذا ما فعله (منشة) ..

لقد طلب من (إسماعيل صبرى) مباشرة العمل لحساب (الموساد) ..

ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً ، حتى أعلن (إسماعيل) موافقته

على العمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، مقابل ثلاثين جنيهاً

إسترلينياً فى الشهر .. وتلقى (إسماعيل) الجنيهاً الثلاثين ،

طوال عام كامل ، دون أن تطالبه المخابرات الإسرائيلية بعمل

واحد ، أو تسند إليه مهمة واحدة ..

ثم فجأة ، طلبوا حضوره على الفور إلى (أسمره) ..

ولم يكف (إسماعيل) يصل إلى هناك ، حتى اصطحبه مندوب

المخابرات الإسرائيلية مباشرة إلى بنسيون (كاليثيا) ، حيث

سلمه لمندوب آخر ، يحمل اسم (يوسف) ، ألقى عليه عشرات

الأسئلة ، واستمع إلى أجوبته بكل صبر واهتمام ، ثم مال نحوه

قائلاً :

- إنك ستكون رجلنا فى (القاهرة) .

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، تم نقل (إسماعيل) سرًا إلى

فندق (فيكتوريا) ، فى شارع (هيلاسلاسى) ، حيث تسلمه

مندوب آخر ، يحمل اسم (ليون) ، وبدأ معه برنامجاً تدريبياً شاقاً

ومكثفاً ، استغرق أسبوعين فحسب ، تعلم (إسماعيل) خلاله

التصوير والتحميض ، وإخفاء الأفلام ، والكتابة بالشفرة .

وفى نهاية فترة التدريب ، حصل (إسماعيل) على مائتى دولار

أثيوبى ، مع أمر بالعودة إلى (الخرطوم) .. وقبيل سفره مباشرة ،
التقى بالمندوب (يوسف) ، الذى قال له بلهجة أمره حازمة :

- بمجرد وصولك إلى (الخرطوم) ، سيكون عليك أن تنفذ ثلاث
خطوات .. أن تستقيل من عملك ، وتتسلم أدوات التصوير من
(إبراهيم منشة) ، ثم تبدأ اتصالاتك بنا ، عن طريق خطابات عادية ،
ولكنها مكتوبة بالشفرة .

استمع إليه (إسماعيل) فى استسلام تام ، وأعلن طاعته
للأوامر ، ولم يكذب يصل بالفعل إلى (الخرطوم) ، حتى استقال من
عمله ، وبدأ اتصالاته ، ولكنه لم يتسلم أدوات التصوير ؛ لأن
(إبراهيم منشة) غادر (الخرطوم) نهائياً ..
ومرة أخرى ، طلب الإسرائيليون من (إسماعيل) الحضور
إلى (أسمرة) ..

وفى هذه المرة ، تلقى (إسماعيل) تدريبات أكثر قوة ، تضمنت
هذه المرة استقبال إشارات (مورس) اللاسلكية ..
وبعد أسبوعين آخرين ، استقبله المندوب (يوسف) بابتسامة
واسعة ، وقال :

- أهنتك يا بطل .. لقد أصبحت جاهزاً للعمل معنا ، وستحصل
على راتب شهرى قدره مائة جنيه إسترلينى .

هتف (إسماعيل) فى دهشة : (إسماعيل)

- مائة جنيه إسترلينى دفعة واحدة؟!!

أجابه (يوسف) فى صرامة .

- ولكن أمامك عمل شاق .

- ستسافر إلى (القاهرة) فى ديسمبر 1960 م ..

أى فى نهاية هذا العام ، وهناك حاول أن تبحث عن عمل ، يبرر
إقامتك بصفة دائمة فى (القاهرة) ، وبعدها عليك أن تستأجر شقة
مفروشة ، وتعد فيها حجرة للتصوير ، ثم تبدأ العملية الكبرى .

مال (إسماعيل) نحوه ، قائلاً :

- العملية الكبرى؟!.. وما هى بالضبط؟

صمت (يوسف) لحظات ، ليمنح كلماته تأثيراً قوياً ، وهو
يجيب :

- ستعمل على تجنيد ضابط فى سلاح الطيران المصرى .

شهق (إسماعيل) فى دهشة ، ولكنه لم يعترض .. وسافر
(إسماعيل) إلى (القاهرة) ..

وسار كل شىء على ما يرام .

لقد وجد (إسماعيل) العمل ، واستأجر الشقة ، وأعد قسم التصوير ..

بل - وهذا أخطر ما فى الأمر - نجح فى تجنيد ضابط سلاح الطيران المصرى ..

وفى هذه المرة ، استدعى رجال (الموساد) (إسماعيل) إلى (أسمره) ، على وجه السرعة ، وهناك استقبله (يوسف) .

- لقد نجحت بشكل لم يسبق له مثيل يا (إسماعيل) ، حتى إنك أثرت دهشتنا .

بدأ شبح ابتسامة يرتسم على شفتى (إسماعيل) ، عندما أضاف (يوسف) فى صرامة : وشكوكنا !

ولم تكن هذه الكلمة الأخيرة مجرد حروف بسيطة .. بل كانت الجحيم عينه ..

لقد قضى (إسماعيل) ما يقرب من ست ساعات ، فى حجرة مغلقة ، مع ثلاثة من المحققين ، راحوا يمطرونه بالأسئلة ، ويطلبونه بإجابات سريعة ، ويحاصرونه بنظرات الشك والريبة ..

وفى النهاية استقبله (يوسف) مرة أخرى ، وهو يقول فى صوت يحمل رنة اعتذار مستترة :

- أظنك تستطيع استيعاب دورة تدريبية جديدة .

كان هذا اعترافاً منه بنجاح (إسماعيل) ، فى هذا الاستجواب الشاق ، وإيضاحاً ببداية مرحلة جديدة تلقى خلالها (إسماعيل) ، تدريبات مكثفة ، على الإرسال والاستقبال اللاسلكى ، وعلى تمييز كل أنواع الأسلحة والطائرات ، وكيفية التعامل مع ضابط سلاح الطيران المصرى الذى جنده .

وفى (القاهرة) ، بدأت رسائل واتصالات (إسماعيل صبرى) تنهال على (تل أبيب) ، بريدياً ولاسلكياً ، حاملة سىلاً من المعلومات ، سال لها لعاب الإسرائيليين ، واتسعت لها عيونهم فى دهشة وانبهار ، بذلك الجاسوس الرهيب ، ثم فجأة ، وصلت رسالة عجيبة إلى منزل (إسماعيل) فى (القاهرة) ..

رسالة يطالبه فيها الإسرائيليون بالسفر فوراً إلى الحبشة بطريق البر ، ودون جواز سفر ..

وشعر (إسماعيل) بقلق حقيقى ، فهم يطالبونه دائماً بالسفر بالطائرة ؛ مما جعله يشك فى أنهم يدبرون له أمراً ما .. ولكن شكوكه لم تكن فى محلها ..

لقد ثبت له أن كل ما طلبه الإسرائيليون ليس سوى إجراء أمنى من جانبهم ؛ نظراً لأنهم قرروا منحه دورة تدريبية جديدة ..

وبعد عشرة أيام ، أصبح (إسماعيل) بالفعل جاسوسًا لا يشق له
غبار .. لقد تلقى تدريبات دقيقة لرفع مستواه ، في سرعة الإرسال
والاستقبال لاسلكيًا ، وكيفية التصوير وإخفاء الأفلام ..

وعاد (إسماعيل) إلى (القاهرة) ، ليعاود عمله ونشاطه ، بخبرة
أكثر ، وحنكة مدهشة ..

وبلغت ثقة الإسرائيليين به ذروتها ، حتى إنهم قرروا ربطه
بواحد من أقوى وأخطر مندوبهم ، في أوروبا كلها ..

هو (هوثير غيستر فراولد فرانزسكنز) ..

هذا هو اسم مندوبهم الألماني البريء المظهر ، الطالب الجامعي ،
الذي اعتبروه طوال عدة سنوات أقوى وأخطر رجال شبكتهم
الأوروبية .. و(فروالد) هذا كان شابًا عاديًا ، يدرس اللغات
الشرقية ، وتوطدت علاقته بمدرس اللغة العبرية اليهودي ، الذي
شجعه على الالتحاق بمعسكر شباب الجالية اليهودية في مدينة
(كولون) ، وهناك عينوه قائدًا لمجموعة من الفتيان اليهود ..

وبعد أشهر ، صحبه المدرس نفسه إلى (إسرائيل) ، على نفقة
الجالية اليهودية في (كولون) ، وهناك التقى بعدد من أقارب
المدرس ، ومن بينهم شخص قدم نفسه باسم (باروخ باردن) ..

وفي العام التالي ، حصل (فروالد) على منحة لدراسة اللغة العبرية

في جامعة (القدس) ، حيث قضى هناك تسعة أشهر ، وبعدها
عاد إلى (كولون) ، عبر (مصر) و(تونس) .. وفي (ألمانيا) ،
التقى (فروالد) مرة أخرى مع (باروخ) ، الذي طلب منه كل
الصور ، التي التقطها أثناء رحلته في (تونس) و(مصر) ..

وعلى الرغم من دهشة (فروالد) ، إلا أنه منحه كل الصور ،
فاحتفظ بها بعض الوقت ثم أعادها إليه ، وهو يرسم على شفتيه
ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- ها هي ذى الصور .. لقد طلبها أصدقائي ، وراقت لهم جدًا .

سأله (فروالد) :

- وهل هؤلاء الأصدقاء يجيدون التصوير ؟

أجاب (باروخ) :

- بل يمتنون مهنة أكثر أهمية .

وتطلع إلى عينيه مباشرة ، قبل أن يضيف :

- إنهم رجال المخابرات الإسرائيلية .

بهت (فروالد) لحظة ، ثم قال .

- إنه شاتك على أية حال .

- ومن الممكن أن يكون شأنك أيضًا ، لو أن ما عرضه عليك يروق لك ..

نريدك أن تعمل لحسابنا .. نريدك جاسوسًا لنا في (القاهرة) .

وبدت الفكرة مثيرة بالنسبة للألماني ، الذي تلقى بدوره تدريبات على استخدام اللاسلكي ، والشفرة ، ثم أرسلوه إلى (بروكسل) ، استعدادًا للسفر إلى (القاهرة) ، وأعطوه حقيبة خاصة بها جيب سرى ، وطلبوا منه أن يحضر بعض الوثائق المهمة من رجلهم في (القاهرة) ..

وكان هذا الرجل هو (إسماعيل صبرى) ..

وسافر (فروالد) بالفعل إلى (القاهرة) ، وأقام في فندق (كليوباترا) بميدان التحرير .. وبعد ساعات ، استقل واحدة من سيارات الأجرة ، وانطلق بها إلى (مصر الجديدة) ، مع خريطة أعطاه إياها (باروخ) ، لتحديد منزل (إسماعيل) ..

وفي الثالثة عصرًا ، التقى (إسماعيل) و (فروالد) ، في شقة الأول ، وتبادل كل منهما حديثًا قصيرًا مع الآخر .

كان (فروالد) يعلم أن الواقف أمامه هو رجل إسرائيل الأول في (القاهرة) ، في حين يدرك (إسماعيل) جيدًا ، أن هذا الألماني الجامعي الشاب ، هو صورة لما تمارسه معسكرات الشباب اليهودي في (ألمانيا) ..

وفي هدوء ، وبكلمات قليلة موجزة ، قدم (فروالد) نفسه ، وحصل من (إسماعيل) على الوثائق والمستندات المهمة وأخفاها في جيب حقيبته السري ، ثم غادر شقة (إسماعيل) في هدوء وثقة ..

ولم يكد (فروالد) يبتعد عن شقة (إسماعيل) بضعة أمتار ، حتى استوقفه شاب مصري وسيم ، سأله بلغة ألمانية صحيحة :

- أنت (هوثير غيستر فروالد) .. أليس كذلك ؟

شعر (فروالد) بدهشة بالغة ، وهو يحدق في وجه الشاب ، الذي استطرد بابتسامة كبيرة واثقة :

- أنا (أكرم ...) من المخابرات المصرية .

انتفض جسد (فروالد) في عنف ، وندت منه حركة ، توحى بأنه سيعدو هاربًا ، إلا أن رجال المخابرات المصرية أحاطوا به .

وفي مبنى المخابرات العامة المصرية ، ألقى (فروالد) باعتراف تفصيلي ، حمل تفاصيل تجنيد الشباب الألماني في معسكرات اليهود ..

وكانت ضربة رائعة للمخابرات المصرية ..

ولكن ماذا عن (إسماعيل صبرى) ؟ ..

الواقع أنه في نفس اللحظة ، التي كان (فروالد) ينهي فيها اعترافه

التفصيلية ، بعد ثلاثة أيام كاملة من إلقاء القبض عليه ، كان (إسماعيل صبرى) يجلس فى مكتب (أكرم) ، فى مبنى المخبرات المصرية ، وهو يرسل رسالة لاسلكية مباشرة إلى (تل أبيب) ، التى كانت أول رسالة يقوم (إسماعيل صبرى) بإرسالها ، منذ انقطاع أخبار (فروالد) ، و(إسماعيل) ..

وكانت كلمات الرسالة الموجزة تقول :

- شكراً لما لقيناه منكم ، من تعاون مثمر ، خلال السنوات الأربع الماضية ، ولكل ما قدمتموه لنا من خدمات ، طوال هذه الفترة ، عن طريق رجلنا (إسماعيل صبرى) ، وإلى اللقاء فى عمليات قادمة ..

كان (إسماعيل صبرى) يرسل هذه الرسالة الأخيرة ، وهو يتبادل نظرة ظافرة مع (أكرم) ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، تحمل الكثير من الارتياح والزهو والنصر والسخرية .. فطوال أربع سنوات ، وستمئة رسالة لاسلكية ، وخمسة عشر خطاباً بالشفرة ، لم يكن الإسرائيليون يدركون أن المصريين هم أصحاب اللعبة منذ البداية ..

وأن (إسماعيل صبرى) يعمل لحساب (مصر) ، لا لحساب (إسرائيل) ..

لقد خسر (الموساد) اللعبة ، ونجحت (مصر) فى إعداد وتنفيذ خطتها ..

الخطأ ..

ارتفعت درجات الحرارة فى ذلك اليوم ، فى صيف عام 1960 م ، على نحو تجاوز المعدلات المعتادة فى مثل هذه الفترة من العام ، وراح الجميع يتحركون فى شىء من العصبية ، كما يحدث عادة ، مع تلك النوبات الحارة المبالغتة ، ولكن ذلك الإحساس بدا مضاعفاً ، بالنسبة لذلك الشاب ، الذى راح يتلفت حوله فى شىء من العصبية ، ويجفف شلالات العرق ، التى تغرق وجهه ، وتتسلل إلى عنقه وصدره ، فتضاعف من قلقه وتوتره ، وهو يقطع ذلك الطريق الهادئ ، خلف القصر الجمهورى ، فى منطقة (حدائق القبة) ، حتى بلغ مبنى حديث التشييد ، تبدو بوابته المزدوجة وكأنها غارقة فى بحر من الصمت والسكون ، أضفى على المكان رهبة أخرى ، ضاعفت من عصبية الشاب ، وهو يقترب من البوابة ، ويقول لحارس الأمن فى صوت مبحوح مضطرب :

- أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

كان يتوقع معاملة قاسية صارمة ؛ لذا فقد أدهشه هذا الأسلوب الشديد التهذيب ، عندما طالبه الحارس ببطاقة هويته ، ثم دعاه للجلوس فى مكان أنيق ، وسأله فى اهتمام ، عما إذا كان يرغب أن يتناول مشروباً مرطباً ، فى هذا الجو الحار ، فلما أجاب بالنفى ، استأذنه الحارس فى الغياب دقيقة واحدة ، غاب خلالها فى حجرته الخاصة ، ثم عاد يقول فى هدوء مهذب :

- تفضل .. سيستقبلك أحد المسئولين على الفور .

وتلقفه رجل آخر بابتسامة ، وود ، وقطع معه ممرات المبنى الهائلة ، حتى بلغ حجرة أحد الضباط ، ففتح بابها ، وفتحها في هدوء ، ثم أشار للشاب بالدخول ، وأغلق الباب خلفه في حرص ، وكأنه يخشى تبديد هدوء المكان ..

كان هذا المبنى هو مبنى المخابرات العامة المصرية ، وذلك الذي استقبل الشاب كان أحد ضباط هذا الجهاز الخاص ، ولقد نجح باستقباله الحار في إزالة الكثير من توتر الشاب وعصبيته ، بعد أن دعاه للجلوس ، وتركه يلتقط أنفاسه ، دون أن يلقي عليه سؤالاً واحداً ، حتى حسم أمره ، وقال في سرعة ، وكأنما يفرغ حمولته كلها دفعة واحدة :

- اسمي (أديب حنا كارلوس) .. ضابط مصري ، وأنا هنا لأبلغكم بأمر بالغ الأهمية والخطورة .. فأتنا أعمل مع .. مع ..

ارتج عليه الأمر ، وراح يردد الكلمة الأخيرة ، دون أن يجد الشجاعة للاستمرار وتطلع إلى ضابط المخابرات المصري مستنجداً ، إلا أن هذا الأخير ظلَّ على صمته ، يتطلع إليه بابتسامة مشجعة ، حتى انحلت عقدة لسان (أديب) ، وهتف :

- أعمل مع (الموساد) .

كان يتخيل أن هذا الاعتراف سيجعل ضابط المخابرات يقفز من مكانه ، ولكنه فوجئ بأن الضابط قد بقي على هدوئه ، وحافظ على ابتسامته ، وهو يقول :

- قص على ما لديك يا (أديب) .. وبكل التفاصيل .
وكانت هذه هي اللحظة الحاسمة ..

اعتمد جهاز المخابرات الإسرائيلي في السنوات الأولى لثورة يوليو ، على واحد من أخطر رجاله داخل (مصر) ، وهو ضابط الوحدة 131 عمليات خاصة ، (إبراهيم دار) ، الشهير باسم (جون دار لنج) ، والذي بذل جهداً كبيراً ، في عملية ترحيل وتهريب اليهود من (مصر) ، إبان العدوان الثلاثي ، إلا أنه لم يلبث أن سقط ، واحترق ، ولم يعد من الممكن أن يواصل عمله داخل (مصر) مما أدى إلى وجود فجوة كبيرة ، في شبكة التجسس ، التي يسعى الإسرائيليون لنسج خيوطها في المنطقة ، وإلى ضرورة البحث عن بديل ، لسد هذه الفجوة ..

ووجد (الموساد) غايته في (جاك ليون توماس) ..

(جاك) أرمني ، ولد عام 1932 م في (القاهرة) ، وتعلم في مدارسها ، وأتقن العربية والإنجليزية ، والفرنسية والألمانية ، إلى جوار لغته الأصلية الأرمنية ..

ومنذ حدثته ، كان الحلم الأكبر في حياة (جاك) هو أن يسافر
ليعمل ويحيا في (أوروبا) ، ولم يكد يبلغ الرابعة والعشرين من
عمره ، حتى سافر إلى (بيروت) ، وحاول البحث عن عمل جيد
فيها ، إلا أنه لم يلبث أن غادرها إلى (كولون) في (ألمانيا) ،
حيث ساعده حظه في العثور على عمل جيد ، في شركة للمقاولات ،
ارتبط بها لمدة عامين ، وبذل جهدا للترقي فيها ، ولكنه لم يبلغ
أبدأ المرحلة التي كان يطمح إليها إبان سفره ..

وفي أوائل عام 1958م ، تقابل (جاك) مع شاب لبناني ، قدم
نفسه إليه باسم (إميل) ، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة
بينهما مع مرح (إميل) ، وروحه الاجتماعية ، وقدرته
المدهشة على جذب انتباه واهتمام الآخرين .

ومع الوقت ، راحت هذه الصداقة تتطور ، وبدأ (إميل) يحيط
(جاك) باهتمامه ورعايته ، من الناحيتين النفسية والمادية ،
فهو مستمع جيد ، ورفيق سخي كريم ، ينفق بلا حساب ، ويتعامل
بلا قيود ..

وذات يوم ، بدأ الحديث بينهما حول اللهو والعبث مع الفتيات ،
وجمالهن ، والأساليب المثلى للتعامل معهن ، ثم انتقل دون مقدمات
إلى نوع من النقد السياسي ، عندما قال (إميل) ، وهو يسترخي
فوق فراش وثير :

- لا يمكنني فهم رئيسكم (عبد الناصر) هذا .. ما الذي يريده
منكم بالضبط ؟ .. هل يريد أن يصبح الجميع فقراء ؟

انعقد حاجبا (جاك) في شدة ، وهو يقول :

- إنه ديكتاتور ، وحاقد على الأغنياء ، وشيوعي مستتر ، و ...

وراح يعن سخطه في وضوح ، على نظام الحكم كله ، في ذلك
العهد ، حتى قاطعه (إميل) بغتة ، قائلا :

- ما دمت تكره النظام إلى هذا الحد ، فلم لا تعود إلى (مصر) ،
وتعمل على إسقاطه ؟

بهت (جاك) لحظة ، ثم اعتدل ، وسأله في خبث :

- وهل سأفعل هذا من منطلق الكراهية وحدها ؟

أدرك (إميل) ما يرمى إليه (جاك) ، فابتسم قائلا :

- ستكون هناك مكافآت مجزية بالطبع .

ولم يناقشه (جاك) طويلاً ..

لقد وافق فور علمه بوجود مكافآت مادية لمثل هذا العمل ،
مما شجع (إميل) على الانتقال معه لمرحلة التدريب مباشرة ،
ودون إبطاء ، وبدأ الاثنان يلتقيان في شقة صغيرة في مقاطعة

(كولون) الألمانية ، يطلق عليها ، فى لغة المخابرات اسم
(المنزل الآمن) حيث تلقى (جاك) تدريبات مكثفة على التصوير ،
وإخفاء أفلام (الميكروفيلم) ، وإرسال المعلومات إلى صناديق
بريد سرية ، وتمييز الأسلحة العسكرية ، والمنشآت وغيرها من
التدريبات ، التى يتلقاها أى جاسوس جديد ..

وعندما اكتملت هذه المرحلة من التدريب ، سأل (جاك) (إميل)
لأول مرة :

- قل لى يا (إميل) : لحساب من أعمل ؟

ابتسم (إميل) ابتسامة غامضة ، وهو يُرَبِّت على كتفه ، قائلاً :

- لحساب دولة أوروبية ، ولا تشغل نفسك كثيراً ، بالتفكير فى
هذا الأمر .

ولم يُلَق (جاك) سؤالاً آخر ، وعاد بأمر (إميل) إلى (القاهرة) ،
فى يوليو 1958م ، ولم يكد يصل إليها ، حتى بدأ عمله على الفور ،
فى جمع المعلومات والبيانات ، وفى دراسة احتمالات تجنيد بعض
ضباط الجيش ، مقابل مكافآت شهرية كبيرة ..

وكل عدة أشهر ، كان (جاك) يسافر إلى (ألمانيا) ، ليحصل
على مزيد من التدريبات ، ويلتقى بالضابط المسئول عن متابعة
حالته ..

وفى واحدة من هذه الزيارات ، التقى (جاك) بفاتنة ألمانية
ساحرة ، اسمها (كيتى بندوف) فوقع فى حبها على الفور ،
ووقعت هى فى حبه ، وسرعان ما أقنعها بالعمل معه جاسوسة
فى (مصر) ، ثم تزوجها ، وعاد بها إلى (القاهرة) ..

وواصل الزوجان عملهما لفترة ، وساعد تعاونهما على إضفاء
رونق جديد على العمل ، وتضاعف نشاطهما فى حماس ، أقنع
(الموساد) بإخلاصهما ، فأرسلوا يستدعون (جاك) إلى (كولون)
فى مايو 1960م ، وهناك التقى برجل جديد ، استقبله بابتسامة
باردة ، وصافحه بقبضة قوية ، وهو يقول بلهجة شبه أمره :

- اسمى (جون) ، وأنا المسئول منذ هذه اللحظة ، عن كل ما
يخص عملك ، جاسوساً لدولة (إسرائيل) .

وانتفض (جاك) لحظة ، فقد كانت هذه المرة الأولى ، التى
يصارحونه فيها بأنه يعمل لحساب (إسرائيل) مباشرة ، ولكن
هذه الانتفاضة لم تستغرق سوى هذه اللحظة ، وبعدها استعاد
(جاك) توازنه ، وتمتم :

- وهل هناك أوامر جديدة ؟

أجابه الضابط الإسرائيلى :

- نعم .. نريدك أن تعلمنا بكل المعلومات العسكرية والمدنية الممكنة

عن (مصر) ، كما ينبغي أن تحاول توسيع الشبكة ، عند عودتك إلى (مصر) .. وبالذات وسط صفوف الجيش المصري .

وكان من الواضح أن معرفته بأنه يعمل لحساب (إسرائيل) ، لم تغير شيئاً من طبيعته ، فلم يكد يعود إلى (القاهرة) هذه المرة ، حتى نشط لتنفيذ الأوامر ، فجمع بعض المعلومات المطلوبة ، ونجح في تجنيد مصور (أرميني) إلى الشبكة ، وكذلك الراقصة اليهودية الشهيرة آنذاك (كيتي) بالإضافة إلى محاولته لتجنيد الضابط المسيحي الشاب (أديب حنا كارلوس) .

ولم يعلنه (أديب) باعتراضه ، وإنما وافق على العمل لحساب (الموساد) ، ولكنه اتجه مباشرة إلى المخابرات العامة المصرية .. وكان ما كان ..

استمع ضابط المخابرات المصري إلى (أديب حنا) في اهتمام ، دون أن يقاطعه بحرف واحد ، ثم شبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وابتسم وهو يقول :

- أشكر لك كثيراً موقفك الوطني هذا يا (أديب) ، وأنا واثق من أنك صادق في كل ما ذكرته ، وأعتقد أن سفر زوجة (جاك) إلى (أمستردام) ، يرتبط إلى حد ما بهذا الأمر .

اتسعت عينا (أديب) في دهشة ، وهو يقول :
- سفر زوجته؟! .. ومن أين لكم أن تعلموا شيئاً كهذا؟! ..
إنني لم أخبركم به !

ثم تراجع في حدة ، قبل أن يهتف مستطرداً :

- آه .. فهمت .. أنتم تعرفون .

مال الضابط نحوه ، وقال في سرعة وهدوء :

- هذا لا يعني أننا لا نحتاج إلى تعاونك معنا يا (أديب) ، فهؤلاء الخونة يهددون أمن الوطن ، ونحن نحتاج إلى كل سلاح لمحاربتهم .
رفع (أديب) يده إلى عنقه في حركة آلية سريعة ، وهو يقول في حزم صادق :

- رقبتي فداء للوطن يا سيادة الضابط ..

وكانت بداية لتعاون جديد ، في مواجهة الخونة ..

والواقع أن ضابط المخابرات كان على حق في شكوكه ، فلقد طلب (الموساد) من (جاك) إرسال زوجته إلى (أمستردام) ، لتتلقى بعض التدريبات على جهاز لاسلكي جديد ، يعتمد على شفرة حديثة ، مستقاة من رواية للأديبة (فارل بوك) ، بعنوان (الأرض الطيبة) ..

أجابه زميله فى توتر :

- من الواضح أن (جاك) هذا حاد الذكاء ، ولا ريب أنه شعر بشيء ما ، أو رواده الشك فيما يحدث من حوله ، فبادر بالفرار .

لم يكذ يتم عبارته ، حتى اقتحم الحجرة زميل آخر ، وهو يقول :

- عثرنا على الوسيلة .. لقد استخرج (جاك) جوازى سفر مزيفين ، له ولزوجته ، استطاعا بواسطتهما مغادرة البلاد .

قال الضابط المسئول :

- إنه يتصور أن هذا قمة الذكاء ، ولكننا سنلحقه درسًا فى عبقرية التعامل ، وسنجعله يبصم على أننا الأكثر براعة .

سأله زميله :

- وكيف نفعل هذا ؟

أجابه الضابط :

- سندرس الأمر ، وسنجد الوسيلة المناسبة بإذن الله .

وظل ثلاثتهم يدرسون الموقف طيلة الليل ، حتى انتهوا إلى أن أفضل وسيلة هى تجميد الموقف كله ، والتظاهر بأن كل شيء يسير على ما يرام ، دون المساس بأى فرد من أفراد الشبكة ، حتى يستعيد (جاك) ثقته ، وتستقر نفسه ، ويقرر العودة إلى (القاهرة) مطمئنًا ..

ونجحت (كيتى) فى تدريباتها ، وعادت إلى (القاهرة) ، وهى تحمل الرواية ، التى أخبأتها فى عناية فى حمام منزلها فى (جاردن سيتى) ، وبدأت تستخدمها فى نقل المعلومات واستقبال الأوامر ..

وبدأ (جاك توماس) يشعر بالزهو والأمن ، وقد بدت له شبكته عظيمة الكيان ، دقيقة التنظيم ، متقنة الأسلوب ..

هذا لأنه لم يكن يدرى أن مفتاح اللعبة لم يعد فى يده كما كان يتصور ، بل صار فى قبضة المخابرات المصرية ، التى سيطرت على الموقف تمامًا ، وراحت تحرك كل الخيوط ، وتمتد الشبكة بمعلومات مزيفة خاطئة ، على نحو شديد الإتقان والدقة والتعقيد ..

ولكن لكل شيء نهاية ..

فى ديسمبر 1960م ، تقرر وضع نهاية لشبكة (جاك ليون توماس) ، وتأهبت المخابرات العامة لإلقاء القبض على الجميع ، و ...

وفجأة ، اختفى (جاك) وزوجته ..

وفى ضيق ، هتف الضابط المسئول عن العملية :

- أين ذهبوا؟! .. لقد راجعنا كشوف السفر ، ولم نجد اسميهما

فيها !

وكان ما اتفق أمرهم عليه ..

ولشهر كامل - تقريباً - ترك رجال المخابرات المصرية أفراد الشبكة يتحركون في حرية تامة ، حتى اطمأنت قلوب الجميع ، وقال (جاك) لزوجته ساخرًا :

- يبدو أننا كنا كمن يقفز فزغًا من ظله ، في حجرة مظلمة .. من الواضح أن هؤلاء المصريين الأغبياء لم ينتبهوا حتى إلى ما نفعله .. إنهم أكثر حماقة مما كنت أتصور ..

سألته (كيتي) في حذر :

- هل تعنى أننا نستطيع العودة إلى (مصر) ؟

لوح بذراعه ، وهو يقول في ثقة :

- ولم لا؟! .. صدقيني .. كل شيء على ما يرام .

واتفق رأيه هذا مع رأى ضابط (الموساد) المسئول عن العملية كلها ، فاستقل (جاك) و (كيتي) أول طائرة إلى (القاهرة) ، وهما يتبادلان الدعابات والنكات ، ويسخران من حماقة وتفاهة المصريين .

وفي السادس من يناير ، عام 1961 م ، حاصرت المخابرات المصرية حي (جاردن سيتي) كله ، وأطبق رجالها على (جاك) ، واعتقلته مع كل أفراد الشبكة في لحظة واحدة ، ولكن زوجته نجحت في الفرار بقميص نومها ، وأسرعت تتصل بالراقصة (كيتي) ، وتحذرها .

واختفت (كيتي) و (كيتي) ، في حين وقع الجميع في قبضة المخابرات المصرية ..

وأثناء التحقيق معه ، حاول (جاك) أن ينكر كل المنسوب إليه ، ولكن المخابرات المصرية واجهته بفيض من الصور ، والتسجيلات ، وواجهته بالضابط المسيحي (أديب حنا كارلوس) ، ولم يكذ (جاك) يراه حتى تجهم وجهه ، وقال :

- أنت فعلتها .. هذا هو الخطأ .. لا ينبغي أبدًا أن تثق في مصري ، في حرب مع المصريين .

ومع الاعتراف الكامل ، الذي أدلى به الجميع أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على عملاء وأفراد الشبكة بالإعدام شنقًا ، بتهمة خيانة الوطن والتخابر مع (إسرائيل) ، وفي العشرين من ديسمبر ، عام 1962 م ، تم تنفيذ حكم الإعدام في (جاك ليون توماس) ، واثنين آخرين من أفراد شبكته التجسسية ، وقبل أن يتدلى جسده من حبل المشنقة ، أدرك (جاك) أن الخطأ الفعلي لم يكن في محاولة تجنيد (أديب كارلوس) فحسب ..

لقد كان الخطأ الحقيقي في محاولة العبث بأمن وسلامة (مصر) ، وفي الاستهانة بقدرة وذكاء جهاز المخابرات المصري ..

وهذا أكبر خطأ وقع فيه (جاك) ..

وآخر خطأ ..

قاطعته صاحب الصوت فى هدوء ، وابتسامه شبه ساخرة تتألق
على شفتيه :

- يمكننا فحص محتوياتها ..

هاتف (ريموند) محذراً .

- إنها أفلام لم يتم تحميضها ، وفحصها قد يتلفها ، وقد ..

قاطعته الرجل مرة أخرى :

- اطمئن يا (ريموند) .. سيتم تحميضها هنا ، وبكفاءة تامة ..

وسنعمل هذا مجاناً .. ما رأيك ؟

ارتجفت شفتي (ريموند) ، وهوى قلبه بين قدميه ، وحاول أن

يعترض ..

ولكنه لم يكن يملك هذا .

وفى حزم . قاده الرجل إلى سيارة سوداء صغيرة ، تقف أمام

مكتب الصادرات ، وحملته السيارة مباشرة إلى (القاهرة) ، دون

أن يتبادل معه سائقها أو الرجل كلمة واحدة طوال الطريق ، على

الرغم من محاولاته معرفة ما يحدث ..

وهناك .. فى (القاهرة) .. وفى مبنى المخبرات العامة بالتحديد ،

جلس (ريموند) داخل حجرة خالية ، يفرك كفيه فى عصبية وتوتر ،

الشبكة السوداء ..

ارتسمت ابتسامه واسعة على شفتي (ريموند نافر) أحد العاملين

بمحل (موريس) للتصوير بالإسكندرية ، وهو يدخل إلى مكتب

الصادرات ، حاملاً - كالمعتاد - لفافة صغيرة ، اعتاد حمل مثلها إلى

المكتب كل أسبوعين ، حيث تحوى عددًا من الأفلام الملونة ،

التي يتم إرسالها إلى الخارج بصفة دورية ، لتحميضها وطبعها

هناك ، حيث لم يكن هذا ممكناً فى (مصر) ، فى تلك الفترة فى

الستينات ، وكالمعتاد أيضاً ، راح (ريموند) يوزع ابتساماته

على موظفى المكتب ، ويحثهم على الإسراع فى إنهاء إجراءات

سفر طرده الصغير ، حتى يمكنه العودة إلى العمل ، وتوقف

ليتبادل بعض الدعابات مع مدير المكتب ، عندما سمع من خلفه

صوتاً يقول فى هدوء :

- أستاذ (ريموند) ، هل تسمح لنا بفحص طردك ؟

شحب وجه (ريموند) ، وخفق قلبه فى عنف ، قبل حتى أن يلتفت

إلى صاحب الصوت ، الذى بدا له هادئاً ، صارماً ، قوى البنية

والصوت ، على نحو جعله يجيب فى شىء من الارتباك والاضطراب :

- ولكن ما الذى يمكنكم فحصه ؟ .. إنها مجرد أفلام ملونة ،

و ...

ويتساءل : هل يستطيع رجال المخابرات المصرية تحميض وطبع الأفلام الملونة بالفعل ؟ ..

ولم يطل تساؤله ، ففي ذلك الوقت ، كانت المخابرات المصرية قد أقامت قسمًا خاصًا لتحميض وطبع تلك الأفلام ، حيث كان من المستحيل الاعتماد على معمل خاص ، مهما بلغت درجة الثقة فيه ، لتحميض وطبع الصور التي يلتقطها رجال المخابرات ، في مناسبات مختلفة ..

وأمام الصور المطبوعة ، تضاعف شحوب وجه (ريموند) حتى حاكى وجوه الموتى أو كاد ، ورجل المخابرات المصري يسأله في هدوء حازم :

- ما رأيك ؟

اختنق صوت (ريموند) في حلقه ، وهو يجيب مرتجفًا :

- سأعترف .. سأعترف بكل شيء .. ولكنني لست المسئول الأول عن كل هذا .

سأله رجل المخابرات :

- من المسئول الأول إذن ؟

ازدرد (ريمون) لعبه في صعوبة ، وأجاب بصوت متحشرج :

- (على) .. (على الفارحي) .

وكان هذا هو الاعتراف ، الذي ينشده رجل المخابرات المصري بالضبط ..

(على أحمد الفارحي) .. حبشى الجنسية ، بدأت قصته مع المخابرات الإسرائيلية في مارس 1959م ، عندما قرأ في صحيفة (الزمان) ، التي تصدر في (أسمره) ، إعلانًا عن وظيفة خالية ، في واحدة من شركات التأمين على الحياة ، فأسرع يتقدم لشغل الوظيفة ..

وفي شركة التأمين ، استقبله (أبو يوسف إسماعيل) ، الذي ألقى عليه عشرات الأسئلة ، ثم منحه الوظيفة ، ولم يكد (على) يلتحق بها ، حتى أجريت حياله سلسلة من الاختبارات ، في سرية تامة ، وراح (أبو يوسف) يمنحه ، بين الحين والآخر عددًا من المبالغ المالية والمكافآت ، بلغت في مجموعها ثلاثمائة دولار أثيوبي ، إلى أن اطمأن ، إليه تمامًا ، وهنا طلب مقابله في مكتبه ، وقال على نحو مباشر :

- لقد أعجبنى عملك هنا يا (على) ، وقررت إرسالك في مهمة سرية ، لإحدى الدول العربية .. ما رأيك ؟

لم يسأله (على) عن نوع المهمة ، أو عن اسم الدولة ، التي سيذهب إليها ، وإنما سأله مباشرة ، وفي اهتمام واضح :
- وكم سأتقاضى مقابل هذا ؟

ابتسم (أبو يوسف) في ارتياح ، وقال :

- مائتي دولار أنثويبي .. ما رأيك ؟

كان واثقاً من أن (على) سيقبل المبلغ على الفور ، ومعه المهمة بالطبع ، لذا فقد بدأ في تدريبه على استخدام الحبر السري والتصوير ، في اليوم التالي مباشرة ، ولمدة شهرين كاملين ، سافر بعدها (على) إلى (اليمن) ، وهو يسعى خلف مهمة محددة .

جمع كل ما يمكن من المعلومات السرية عن المطارات في (تعز) ، و(صنعاء) و(الحديدة) ، وعدد الطائرات الموجودة فيها ، وعدد الخبراء الروس والمصريين ، والمساعدين السوفيتية للجيش اليمني .

ونجح (على) في مهمته هذه ..

لقد جمع معلومات لا حصر لها ، عن طريق ضابط في الطيران المدني اليمني ، والتقط عدة صور للمنشآت العسكرية والمعدات الحربية ، عن طريق أجنبي ، يعمل في الخطوط الجوية الأنثيوبية ، ويدعى (ملس استفانوس) ..

ثم استخرج (على) جواز سفر يمينياً من (تعز) باسم (على أحمد على) ، بناء على تكليف من (أبو يوسف) ، واستمر في مهمته لمدة أربعة أشهر في (اليمن) ، عاد بعدها إلى (أسمره) ، والتقى بأستاذه (أبو يوسف) ، الذي استقبله في حرارة وترحاب ، وسأله :

- هل راق لك العمل معنا ؟

أجابه (على) بابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد :

وهنا مال (أبو يوسف) نحوه ، وقال في حزم :

- ينبغي إذن أن تعرف مع من تتعامل بالضبط .. أنت تعمل مع المخابرات الإسرائيلية .

بدت الدهشة لحظة على وجه (على) ، ثم لم تلبث أن تلاشت في سرعة ، وهو يقول في خفوت :

لقد خمنت هذا تقريباً .

وكان هذا يعني أنه يوافق على الاستمرار ..

ويعني أيضاً ضرورة الانتقال إلى مرحلة جديدة ..

وفى (أسمره) ، بدأت المرحلة الجديدة ، وبدأ تدريب (على) على الإرسال والاستقبال اللاسلكى ، وكيفية استخدام الشفرة ، وتصوير المستندات ، وطبع الأفلام الملونة ، وإخفائها بطرق سرية ، وتمت هذه التدريبات تحت إشراف أربعة مدربين جدد ، أعلنوا فى نهاية الفترة نجاح (على) ، وتجاوزه هذه المرحلة ، مما دعا (أبو يوسف) إلى استقباله فى مكتبه ، وهو يقول فى اهتمام :

- هذه التدريبات جعلتك خبيراً يا (فارحى) .

والخبراء لدينا نرسلهم عادة إلى منطقة القتال الكبرى .

ظهر تساؤل فى عيني (على) فمال (أبو يوسف) نحوه ، وتألقت عيناه ، وهو يقول فى حسم وجذل واقتضاب :

- (إلى القاهرة)

وكانت مفاجأة حقيقية .

فى الثمانى والعشرين من يوليو عام 1960م ، وصل (على الفارحى) إلى (القاهرة) ، لأول مرة ، وهو يحمل جواز السفر اليمنى ، وقائمة التعليمات ، التى تطلب منه جمع المعلومات عن منطقة القناة ،

والتحركات والتجمعات العسكرية فيها ، ونظام العمل فى كوبرى (الفردان) ، ومواعيد عبور القوات العسكرية عليه ، وتصميمات الكوبرى نفسه ، إذا ما أمكنه هذا ..

وقضى (على) شهراً واحداً فى (القاهرة) ، درس خلاله المدينة ، ثم سافر إلى (الإسكندرية) ، واستأجر فيها شقة أنيقة ، قام بتأثيثها لإقامته ، واتخذها مقراً لعمله ..

وفى أحد الملاحى الليلية ، التقى (على) بأول أفراد شبكته ..

كان يعمل ميكانيكى طيران ، فى أحد المطارات الحربية ، وقد استدرجه (على) بنفس الثالوث الأشهر ، فى عالم الجاسوسية ، المال ، والخمر ، والنساء ..

وفى سهراته الحمراء ، راح (على) يستمع إلى كل ما يتحدث عنه الميكانيكى ، وما يلقى من معلومات عسكرية ، فى اتسيابية وطلاقة ، ودون حرص أو حذر ، وأخذ ينقلها أولاً بأول إلى (أبو يوسف) ، الذى يرسلها بدوره إلى (تل أبيب) ..

وفى المرحلة التالية ، سافر (على) إلى منطقة القناة ، وجمع المعلومات المطلوبة ، ثم عاد فى سبتمبر 1960 م ، إلى (أسمره) ، حيث قدم كل ما لديه من صور ووثائق ومعلومات .

ومرة أخرى تلقى (على) تدريبات جديدة ، على الإرسال

والاستقبال ، وحل الشفرة ، والتصوير ، ثم عاد إلى (القاهرة)
وهو يحمل هذه المرة جهازى لاسلكى ، مخبأين فى عصا فأس ،
ومعهما كتاب الشفرة ، وآلات التصوير ، وخمسمائة وثمانون
دولارًا أمريكيًا .

وفى (القاهرة) اتصل (على) بصديقه الميكانيكى ، ودعاه
إلى سهرة حمراء أخرى ، ووسط الكنوس والمرح ، مال على
أذنه وقال فى صراحة مذهشة :

- أنا أعمل لحساب (إسرائيل) .

شحب وجه الميكانيكى ، وسقطت كأسه ، وهو يحدق فى وجه
(على) مرددًا :

- لحساب من !؟

لم يمهل حتى يفيق من أثر المفاجأة بل عرض عليه أن يمده
بمعلومات عسكرية أكثر ، مقابل خمسين جنيهاً مصرياً شهرياً ،
إلى جانب مكافآت مجزية ، للمعلومات الأكثر أهمية ..

ووافق الميكانيكى ..

لم يكتف بالموافقة فحسب ، وإنما جند صديقاً له يعمل فى
محطة الرادار ، نظير مكافأة قدرها ثلاثون جنيهاً مصرياً لا غير ..

ومع غزارة المعلومات ، التى يحصل عليها (على) ، كان
لابد من البحث عن وسيلة مثالية ، لنقل الصور والوثائق إلى
(الموساد) ، بأقل مخاطر ممكنة .

ومن هنا كان اللقاء مع (ريموند بافر) ، الذى شاركهم سهراتهم
الحمراء بعض الوقت ، قبل أن يصارحه (على) بالموقف كله ، ويطلب
منه التعاون معهم ، وإرسال أفلام التجسس إلى الخارج ، ضمن طرد
الأقلام الملونة ، الذى يرسله محل (موريس) للتصوير كل أسبوعين ..
ووافق (ريموند) ..

وكانت البداية بالنسبة إليه ..

بداية النهاية ..

« حان الوقت يا سيدى .. »

رفع مدير المخابرات العامة عينيه ، يتطلع إلى الضابط الشاب ،
الذى نطق هذه العبارة فى هدوء ، وهو يضع أمامه عددًا من
الصور والوثائق ، طالعها المدير فى سرعة ، قبل أن يقول :

- هل أعددتكم كل شيء ؟

أوما الضابط الشاب برأسه إيجابًا ، وقال :

- إننا نراقب (على الفارحي) منذ عام كامل ، ولدينا سجل حافل بأعماله في (اليمن) ، كما إننا نحكم السيطرة على كل المعلومات التي ينقلها إليه رجال شبكته ، ومعلوماتنا متكاملة عن المصور ، ولم يعد أمامنا سوى تنفيذ الخطة ، وإلقاء القبض على أفراد الشبكة كلها .

تنهد المدير ، وقال :

- احرصوا على أن تكون لديكم كل الأدلة والوثائق اللازمة ، حتى لا تفشل العملية .

أجاب الضابط الشاب في حسم :

- اطمئن يا سيدي .. إنها قضية متكاملة .

ابتسم المدير ، وقال :

- ومن أين ستبدأ ؟

أجاب الضابط الشاب ، وهو يشير إلى إحدى الصور ، على مكتب المدير :

- من هنا .. من (ريموند بافر) .

وهذا ما كان ..

استيقظ (على الفارحي) مبكراً ، على الرغم من السهرة الحمراء الطويلة ، التي قضاها في الليلة الماضية ، وراح ينظم كل المعلومات التي حصل عليها ، من الميكانيكي وفنى الرادار ، ثم أخرج جهاز الإرسال في حرص ، واستعد لإرسالها ، عندما ارتفع رنين جرس باب شفته فجأة ..

وارتبك (على) ، وأسرع يخفي جهاز الإرسال ، والمفكرة التي تحوى كل المعلومات ، ومسح بشرته الداكنة بكفه في توتر ، وهو يسأل في لهجة أنت - على الرغم منه - عصبية عنيفة :

- من الطارق ؟

أتاه صوت هادئ بسيط ، يقول :

- محصل الإنارة .

مط (على) شفثيه الغليظتين في حلق ، وهو يلحن ذلك المحصل ، الذي يأتي مبكراً ، هكذا ، وإن لم ينسه هذا أن يلقي نظرة حذرة عبر العين السحرية للباب ، ليتأكد من أن الطارق هو بالفعل محصل الإنارة ، قبل أن يفتح الباب ، ويهتف به ساخطاً :

- اسمع يا هذا ..

قبل أن يتم عبارته ، وقع بصره على الضابط الشاب ، الذي يرتدى ثياباً مدنية ، ويقف مع عدد آخر من الرجال ، إلى جوار

جرس الباب ، فأتسعت عيناه فى مزيج من الدهشة والذعر ، قبل أن يقول الضابط فى هدوء لا يخلو من الحزم :
- (على الفارحى) .. أليس كذلك ؟

لم يجب (على) ، ولم يكن هناك من ينتظر جوابه فعلياً ، فلم يكد الضابط الشاب ينطق عبارته ، حتى اندفع الرجال المصاحبون له داخل شقة (على) ، الذى هتف فى ذعر :

- ماذا تفعلون ؟

أزاحه الضابط الشاب عن طريقه ، وهو يقول فى هدوء :

- إنهم يبحثون عن بعض الأشياء .

قال (على) فى ذعر :

- أية أشياء !؟

لم يكد ينطقها حتى جاء الجواب قاسياً ، عنيفاً كصاعقة هوت على رأسه فجأة ، فافتلعت مخه من جمجمته ، وضربت به قلبه بلا رحمة ، فقد أخرج الرجال أمام عينيه كل شيء ..

الحبر السرى .. جهاز الإرسال اللاسلكى .. مفكرة المعلومات .. آلات التصوير ..

كل شيء ..

وبحركة عصبية ، تفتقر إلى الحكمة ، حاول (على) أن يبلغ مسدسه ، فى درج قطعة الديكور ، المجاورة للباب ، ولكن الضابط الشاب تحرك فى سرعة ومرونة ، ولوى ذراعه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

- محاولة سخيفة يا رجل .. لم يعد هناك ما يفيد .. لقد انتهى كل شيء .

وفى مبنى المخبرات العامة المصرية التقى (على) بالميكانيكى ، وفنى الرادار ، و (ريموند بافر) ، ورأى كل الصور والوثائق .. ولم يعد هناك مجال للإنكار ..

وفى انهيار تام ، كتب الجميع اعترافاتهم ، ونيلوها بتوقيعاتهم ، وهم سيكون ندمًا ومرارة ..

وفى بداية عام 1972م ، تمت محاكمة (على الفارحى) وشبكته وقضت المحكمة بإعدامه ، وحكمت بالأشغال الشاقة على باقى أفراد الشبكة ..

وفى حلق ومرارة ، تلقى (أبو يوسف) خبر انهيار الشبكة التى تصور يوماً أنها أفضل شبكة ساهم فى صنعها فى قلب (مصر) ، لحساب (الموساد) .

شبكة (على الفارحى) .
أو الشبكة السوداء .

الخيانة

انهمك رجل المخابرات المصري (قدرى) فى مطالعة عشرات الصور والتقارير ، الخاصة بالعملية التى يتولى أمرها ، فى الآونة الأخيرة ، وتوقف طويلاً أمام صورتي جاسوسين ، يسعى جاهداً للإيقاع بهما ، منذ شهر تقريباً ، وهما (جعفر درويش) ، و(جميل شاكر) ، اللذان يعملان لحساب (الموساد) ، منذ فترة طويلة ، زوّدا العدو خلالها بعشرات الصور والرسائل ، التى تكشف الكثير والكثير من أسرارنا الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فى تلك الفترة المؤلمة من تاريخ (مصر) ، بعد هزيمة يونيو 1967م ، التى حطمت النفوس ، وزعزعت الثقة فى القلوب .

وبينما كان (قدرى) يطالع صورة لرجل ثالث ، يتزعم شبكة الخيانة كلها ، ويحمل اسم (آدم نعمان) ارتفع رنين الهاتف فى مكتبه ، فالتقط سماعته الداخلية فى آلية ، وقال :

- أنا (قدرى) .. من المتحدث ؟

أتاه صوت مندوب أمن بوابة المبنى ، وهو ينقل إليه حديثاً هامساً ، استمع إليه (قدرى) فى اهتمام بالغ ، ثم قال :

- دعها تأتى إلى هنا .

ولملم أوراقه فى عناية ، ورصها فى حرص جتياً ، وجلس ينتظر ، حتى سمع طرقات مترددة على باب مكتبه ، فقال فى هدوء :

- ادخل .

تابع ببصره سيدة شابة ، فاتنة الحسن والجمال ، دلفت إلى مكتبه فى خطوات سريعة ، وكأنها تخشى أن تتراجع عما حسمت أمرها بشأنه ، لو أنها أبطأت سيرها ، فنهض يصفحها ، ودعاها للجلوس ، وطلب لها كوباً من عصير الليمون ، ثم شبك أصابعه أمام وجهه ، وهو يقول :

- والآن ما الذى أتيت بشأنه يا سيدتى .. كلى آذان مصغية ؟

ابتلعت السيدة عصير الليمون ، وازدرت بعده لعابها ، ثم اعتدلت فى مجلسها ، وقالت فى حسم لا يخلو من نبرة متوترة :

- أنا أعمل مع المخابرات الإسرائيلية .

ويبدو أنها كانت تتوقع منه أن يقفز من مقعده ، ويطلق شهقة قوية ، من فرط الدهشة والذهول ، عندما تدلى بتصريحها هذا ، لذا فقد ارتدت الدهشة إليها هى ، عندما استقبل الأمر فى هدوء شديد ، وهو يقول :

- وماذا بعد ؟

حدقت في وجهه لحظات بدهشة بالغة ، ثم قالت في عصبية :
- يبدو أنك لم تفهمنى جيداً .. أقول لك : إننى أعمل لحساب
(الموساد) .. مخابرات العدو.

أجابها بنفس الهدوء العجيب ، وهو يشير بيده :

- فليكن .. لقد استوعبت هذا جيداً .. أكمل ما لديك .

فغرت فاها في دهشة أكثر وهي تقول :

- أكمل ماذا ؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يميل نحوها ، قائلاً :

- لا بأس .. دعيني أكمل أنا.

وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يستطرد :

- اسمك (دلال) .. (دلال رستم) .. ابنة رجل أعمال وإقطاعي
سابق ، وشقيقة الشهيد (عاصم رستم) ، بطل منظمة (سيناء) ،
وتعملين لحساب (الموساد) منذ عامين تقريباً ، وتتلقين أوامرك
من (آدم نعمان) .. الفلسطيني الخائن ، الذى يتزعم شبكة
الجاسوسية داخل (مصر) ، فى مقره فى (روما) .

تحولت دهشتها إلى ذهول تام ، وهو يتراجع بمقعده مرة
أخرى ، قائلاً :

- هل أتابع ؟

ازدرت لعابها فى صعوبة شديدة ، مع ذلك الجفاف الشديد ،
الذى تشعر به فى حلقها ، وغمغت فى انهيار ومرارة :

- كلاً .. سأكمل أنا .. سأخبرك بكل شيء ..

وراحت تروى قصتها ..

ومنذ البداية ..

لم يحتمل والد (دلال) ما فعلته به الثورة عندما أممت ممتلكات
عائلته ، فى أوائل الستينات ، فتوفى بعد أسابيع قليلة ، وسرعان
ما لحقت به زوجته ، وتركها خلفهما (دلال) و(عاصم) ، وحيدتين ،
ضائعتين ، لا يكفيهما المعاش الضئيل ، الذى تمنحهما إياه الدولة ،
مما دفع (دلال) إلى استغلال إجادتها للإنجليزية والفرنسية
والإيطالية ، لتعمل مرشدة سياحية ، لبعض الأفواج الأجنبية ،
والتي تأتى لزيارة (مصر) ، بين الحين والحين ..

ولأنها شابة جميلة ، وتنتمى إلى طبقة اجتماعية جيدة ، فقد
نجحت فى عملها بسرعة وبدأت شركات السياحة فى الاستعانة
بها ، مما زاد من دخلها ، وسمح لها بإلحاق شقيقها (عاصم)
بمدرسة داخلية ، يحصل فيها على أفضل وسائل التربية والتعليم ..

ثم التقت (دلال) بالرجل الذى غير مجرى حياتها كله ..

(جورج) .. مهاجر مصري إلى (إيطاليا) ، نجح في تثبيت أقدامه في (روما) ، وأصبح واحداً من رجال الأعمال المعدودين هناك ، ويمتلك شركة كبيرة ، ويقوم في قصر منيف ، هذا بالإضافة إلى وسامته ، وأناقته ، وروحه الاجتماعية النادرة ..

باختصار .. كان (جورج) هذا رجلاً تحلم به كل فتاة ..

ولقد بدأ يرمى شبابه حول (دلال) ..

ولأن (دلال) مصرية أباً عن جد ، لم ينجح (جورج) ، على الرغم من كل محاولاته ، في أن ينالها بلا زواج ، لذا فقد حسم أمره ، وطلب منها أن تلحق به في (روما) ، حيث تزوجا وحملها إلى قصره ، لتصبح (دلال) المصرية هي سيدة القصر في (روما) ..

أما (عاصم) ، فقد بقي في (مصر) ، وألحقته (دلال) بمدرسة داخلية أكثر رقياً ، وراحت تراسله كل يوم تقريباً ، لتشرح له مدى سعادتها وارتياحها بالحياة مع (جورج) ..

ولكن الرياح لا تأتي دائماً بما تشتهي السفن ..

لقد ذهبت (دلال) يوماً لتفاجئ زوجها بزيارته في مكتبه ، فجاءت المفاجأة من نصيبها هي ، عندما ضبطته مع سكرتيرته ، في وضع يندى له الجبين ..

وكانت صدمة الخيانة قاسية على (دلال) ، التي ثارت وهاجت وماجت ، ولكن (جورج) استقبل الأمر على نحو أكثر بساطة ، واتخذ إجراءً عملياً كعادته ..

لقد طلقها ..

وفجأة ، وجدت (دلال) نفسها وحيدة ، ضائعة ، مفلسة ، في قلب (روما) ..

وفي (بنسيون) رخيص ، في أحد أحياء (روما) الفقيرة ، أجهشت (دلال) ببكاء حار ، أفرغت فيه معظم انفعالاتها ، فدخلت صاحبة (البنسيون) إلى حجرتها ، وربّت عليها في حنان وسألتها عما يبكيها ..

وقصت عليها (دلال) كل شيء ..

واستمعت إليها صاحبة (البنسيون) في اهتمام ، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة ، وأحضرت لها زجاجة كبيرة من الخمر ، وهي تقول :

- اطمئني .. سيصبح كل شيء على ما يرام ..

اطمئني ..

وراحت (دلال) تعباً الخمر عباً ، وتفزره على شكل أنهار من الدموع ، التي تغرق وجهها وقلبها ، وصاحبة (البنسيون) تبتسم ، وتربّت على كتفها في هدوء وحنان ..

ثم ظهر (إميل) وهو رجل في الخمسين من عمره قدمته صاحبة البنسيون إلى (دلال) باعتباره صديقها وقالت إنه يستطيع مساعدة (دلال) ، ويمكنه الحصول لها على عمل لدى صديق آخر له ، وابتسم (إميل) ، وهو يقول :

- صديقي هذا رجل أعمال عربي ، يحتاج إلى من يترجم له أوراق أعماله ، التي تصل إليه من جميع أنحاء العالم وسيصل بعد أسبوع واحد ، وعندئذ أقدمك إليه ، وتبدنين عملك معه على الفور.

وعندما لاحظ خيبة الأمل ، التي ارتسمت على وجهها ، أخرج حافظة نقوده ، والتقط منها رزمة من المال ، ناولها إياها ، قائلاً :

- هذه سلفة مؤقتة لتدبير أمورك ، حتى يصل صديقي العربي.

تظاهرت بالتمنع ، ولكنها لم تلبث أن أخذت المبلغ ، الذي كانت في أشد الحاجة إليه ، ووقعت به إيصالاً ، وضعه (إميل) في حافظته بدلاً من النقود ..

وكان هذا الإيصال هو الخطوة الأولى في الطريق ..

طريق الخيانة ..

ولم يتبق المبلغ طويلاً مع (دلال) بعد أن أدمنت الخمر ، وعادت تحيا حياة الرفاهية ، التي اعتادتها من قبل مع (جورج)

وقبل مضي الأسبوع ، كانت قد أفلست مرة أخرى ، وجلست تنتظر عودة (إميل) مع صديقه العربي ..

ولكن (إميل) لم يعد بعد أسبوع .. ولا حتى بعد أسبوعين ..

وعادت (دلال) تبكي الفقر والحاجة ، وأمدتها صاحبة البنسيون بالمزيد من المال ، بإيصال ثان ، وثالث ، ورابع ..

وتورطت (دلال) حتى أننيها في المصيدة ، وأصبحت تنتظر عودة (إميل) بلهفة شديدة ..

وأخيراً عاد (إميل) ..

عاد بصحبة ذلك الصديق العربي ، الذي قدمه إليها باسم (آدم نعمان) ..

وبسرعة إيقاع عجيبة ، استقبلها (آدم) وأعطاهما بعض الأوراق ، وطلب منها ترجمتها من الفرنسية إلى العربية ، ثم فارقها على الفور ، دون أن يعطيها قرشاً واحداً ..

وسهرت (دلال) طوال الليل تترجم الأوراق ، وهرعت إلى (آدم) لتعطيها إياه في اليوم التالي ، وهي تسأله في حيرة :

- ولكن ما صلة المعلومات الواردة بهذه الأوراق بك؟! أنت رجل أعمال ، وهذه معلومات اقتصادية وسياسية وعسكرية عن (مصر) !!

التقط منها الترجمة ، ومطّ شفتيه في ازدياء ، وهو يقول :

- يبدو أنك لا تصلحين للعمل معنا يا (دلال) .

انهارت (دلال) ، وراحت تستعطفه ، وترجوه أن يمنحها العمل لأنها في أمس الحاجة للنقود ، فتطلع إليها طويلاً ، ثم سألها على نحو مباشر :

- هل تعلمين مع من ستعملين ؟

كان ذكاؤها قد استنتج الجواب ، ولكنها حاولت اللف والدوران ، إلا أنه تابع في حزم :

- لا تنسى أن لدينا تقريراً بخط يدك ، يحوى معلومات اقتصادية وسياسية وعسكرية عن (مصر) .

أسقط في يدها ؛ وأعلنت موافقتها على الفور ، ولكنها طلبت أجراً كبيراً ، للعمل لحساب جهاز المخابرات الإسرائيلي ، وافق عليه (آدم) على الفور ، ثم جلس يحدد لها طبيعة عملها في شبكته ..

كان لديه عميلان بالغا الأهمية في (مصر) يلتقطان عشرات الصور للأماكن العسكرية ، والوثائق المهمة ، ويجدان صعوبة في إرسالها إليه في (روما) وعليها هي أن تتولى عملية نقل الخطابات هذه ..

ووافقت (دلال) .. وفي الأسبوع التالي مباشرة ، سافرت إلى (القاهرة) حيث افتتحت متجرًا صغيراً للثياب وأدوات الزينة (بوتيك) وكان من الطبيعي أن تسافر كل فترة إلى (روما) لشراء متطلبات (البوتيك) وبضائعه ، ومع كل مرة تسافر فيها ، كانت تنقل الصور والرسائل ، من العميلين (جعفر درويش) و(جميل شاكر) ، إلى زعيم الشبكة الفعلى (آدم نعمان) في (روما) وتنقل تعليماته إليهما .

وفي هذا الوقت ، كان (عاصم) قد تخرج في الكلية الحربية ، والتحق بقوات الصاعقة ، وبالتحديد بما عرف أيامها باسم (منظمة سيناء) وهي مجموعة من أبطال الصاعقة ، الذين يكبدون العدو خسائر فادحة ، عبر عدد من العمليات الفدائية العسكرية ، التي أثارت غيظه وحنقه وعصبيته ، بحيث صار أكثر ما يسعى إليه ، هو كشف عمليات (منظمة سيناء) مسبقاً لاتخاذ ما يلزم ضدها ..

ولسخرية القدر ، كلف (آدم نعمان) (دلال) مهمة كشف أسرار (منظمة سيناء) ..

ونفذت (دلال) المهمة بنجاح ..

ولأن مهمتها هذه المرة كانت ناجحة للغاية ، فقد تصدى الإسرائيليون للفدائيين ، في إحدى عمليات (منظمة سيناء) وأسروا وقتلوا معظم أفراد الفرقة ..

وخلال هذا ، كان رجال المخابرات المصرية قد انتبهوا إلى تلك الصلة ، بين (دلال) والجاسوسين (جعفر) و(جميل) ولكن لم يكن هناك دليل واحد يكفي لمحاكمتها وإدانتها ، لذا فقد اكتفى رجال المخابرات بمراقبتها ، وتتبع خطواتها خطوة بخطوة .
حتى جاء ذلك اليوم ..

كانت قد استيقظت مبكراً على غير عاداتها ، وبدأت في إعداد رسالة جديدة لإرسالها إلى (روما) عندما دق جرس بابها ، وحضر أحد زملاء شقيقها (عاصم) وهو يطرق بعينيه أرضاً ، ويقول في أسى :

- أعلم أن مهمتي ليست باليسيرة ، ولكنني أتيت لأخبرك أن الشهيد (عاصم رستم) قد لقي مصرعه ، أثناء عملية فدائية ، تتبع ما يعرف باسم (منظمة سيناء) بسبب تسرّب معلومات عن العملية و ...

ولم تستمع (دلال) إلى باقي حديثه ، فقد أطلقت صرخة مروعة ، وسقطت فاقدة الوعي ، وعندما استعادت وعيها ، بعد ساعة كاملة ، أجهشت بالبكاء وراحت تبكي على نحو مستمر طوال سبع ساعات كاملة ، قبل أن تفقد الوعي مرة أخرى ..

لم يكن من السهل عليها أبداً أن تعلم أنها السبب في مصرع (عاصم) .. شقيقها الوحيد ، الذي ليس لها في الحياة سواه ..

وانهارت (دلال) لعشرين يوماً كاملة ، وهي تبحث عن وسيلة للانتقام من نفسها ، ومن المسنولين عما فعلته ، وفكرت في قتل (جعفر) و(جميل) أو السفر إلى (روما) وقتل (آدم) ثم لم تلبث أن استقرت على رأي أفضل ، فغادرت فراشها ، وارتدت أفضل ما لديها ثم اتجهت مباشرة إلى المكان الذي وقع عليه اختيارها ..

إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ..

استمع رجل المخابرات المصري (قدرى) إلى (دلال) وهي تروي كل ما لديها ، ثم تركها تكتب اعترافاً خطياً كاملاً ، سلمته إليه قائلة :

- ها هو ذا اعترافي ، مذيل بتوقيعي ، وأنا مستعدة لتلقى أية عقوبة ، التقط (قدرى) الاعتراف ، ووضعها في درج مكتبه ، الذي أغلقه في عناية ، وهو يقول : من الممكن ألا تكون هناك أية عقوبة .

تطلعت إليه في دهشة ، قائلة :

- ماذا تعنى !؟

عاد يميل نحوها ، قائلاً :

- ألا تجدين أن الانتقام من الخونة ، أفضل من مجرد الاستسلام لعقوبة الخيانة ؟

هتفت بلا تردد :

- بالتأكيد .. ولكن كيف ؟

ابتسم وهو يقول :

- سأخبرك كيف وبدأ (قدرى) يشرح لها خطته كلها ، واستمعت إليه هى بكل انتباه بل بكل ذرة فى حواسها ..

واستيقظ جانب الخير فى نفس (دلال) التى قررت أن تعمل جاهدة ، وتخطر بحياتها لو لزم الأمر للتكفير عن خيانتها السابقة .

وبعد أيام ، سافرت (دلال) إلى (روما) وهى تحمل أفلام الجاسوسين (جعفر) و (جميل) وهناك استقبلها رجل آخر بخلاف (آدم) وهو (عازر) الذى صافحها فى حرارة ، وحصل على ما لديها من أفلام وتقارير ، وصحبها إلى الفندق الذى ستقيم فيه ..

وفى اليوم التالى ، تصرفت (دلال) بشكل طبيعى للغاية ، فخرجت للتسوق ، وابتاعت بعض الثياب وأدوات الزينة لحساب (البوتيك) الذى تملكه ، كما تفعل فى كل مرة ، ثم عادت إلى الفندق ، وجلست وحيدة ، تشاهد (التلفزيون) ..

كان كل شىء يسير على النمط نفسه ، الذى يسير عليه فى كل مرة ، مع فارق واحد ، وفى هذه المرة ، كانت هناك عيون أخرى تراقب (دلال) وتراقب من يراقبونها من رجال (آدم نعمان) ..

وكانت هذه العيون الجديدة مصرية ..

عيون رجال المخابرات العامة ..

ثم ظهر (آدم) فجأة ، وزار (دلال) فى الفندق ، وقضى معها بعض الوقت يسألها عن أحوال (مصر) وشبكته هناك ، ثم بدأ يراودها عن نفسها ، كما يفعل فى كل مرة يلتقيان فيها ..

وفى هذه المرة منحته (دلال) ابتسامة مشجعة ، وطلبت منه أن يلتقى بها فى فيلا صغيرة ، على شاطئ (نابولى) ، حيث يمكنهما الاستمتاع معا ..

والتقط (آدم) الطعم ، وهرع إليها فى (نابولى) ، وهو يمتنى نفسه بليلة هائلة ..

ولكن الليلة لم تكن كذلك ..

لقد استقبله ثلاثة من رجال المخابرات المصرية ، أفقدوه الوعي فى لحظات ، ثم حملوه إلى زورق بخارى على الشاطئ ، واصطحبوا معهم (دلال) وانطلقوا إلى حيث تنتظرهم سفينة مصرية ، خارج المياه الإقليمية ..

وفى الوقت نفسه ، كان رجال المخابرات المصرية يلقون القبض على (جعفر درويش) و (جميل شاكر) وباقى أفراد الشبكة السرية ..

ويسألها عن (مصر) ، وأحوالها ، وأهلها ، .. وحتى مشكلاتها ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف كثيراً عن هذا ..

فالواقع أن (سامى) هذا كان أبعد ما يكون عن عشق الوطن ، أو حبه .. أو حتى الاهتمام بأمنه وسلامته ..

إنه - وبكل وضوح - جاسوس ..

نعم .. جاسوس يعمل لحساب (الموساد) ، ويُقيم فى قلب (ميونيخ) ، ورحلاته إلى المطار تحمل هدفين ، يختلفان تماماً عما يتصوره الجميع ، فهو يحصل من (سلوى) على بعض المعلومات العامة عن (مصر) ، ويبحث عن شخص أو أشخاص قادمين من (مصر) يمكنه الحصول منهم على معلومات أكثر أهمية ، أو العمل على تجنيدهم لحساب (الموساد) ..

وظهرت (سلوى) ..

وفى حماس ، وبابتسامته الجذابة ، ووسامته الملحوظة ، نهض يستقبلها فى حرارة ، ويهتف بها :

- أوحشتنى .. فترة طويلة مضت ، منذ التقينا آخر مرة .

ضحكت وهى تقول :

- ليس إلى هذا الحد .. إنهما أسبوعان فحسب .

كان يُعد أسطوانة طويلة ، ليلقيها على مسامعها ، مؤكداً حبه وعشقه وولفه ، إلا أن عينيه تعلقتا فجأة برجل رصين ، أنيق ، تألق بياض فؤديه وسط سواد شعره الفاحم ، فمنحه مظهرًا وقورًا جذابًا ..

وبسرعة خبير ، فحص (سامى) الرجل ، ودرسه بنظرات سريعة ، أكدت له على الفور أنه صيد ثمين ، لا ينبغي إفلاته أبدًا ..

كان ذلك الرجل يرتدى ثيابًا غالية الثمن ، ويصف شعره على نحو جعله أشبه بنجوم السينما ، ويحمل حقيبة دبلوماسية ، يندر وجود مثلها فى (مصر) ، فى تلك الفترة فى نهايات عام 1967م ، ثم إن يده كانت تحمل خاتمًا ذهبيًا كبيرًا ، يشير إلى حبه للمال والفخامة والظهور ..

وسأل (سامى) (سلوى) فى اهتمام :

- من هذا المتأنق ؟

أجابته فى سرعة : (أحمد عبد الله) .. رجل أعمال ، وصاحب مصنع للبلاستيك فى (مصر) .

ولم يكن من الصعب بعدها أن يعثر (سامى) على عنوان الفندق ، الذى يقيم به (أحمد) ، وأن يجلس فى بهوه قرابة الساعة وعيناه تراقبان المصعد فى اهتمام وتركيز ، حتى ظهر (أحمد) ، واتجه إلى مكتب الاستعلامات ليتسلم مفتاحه ..

وبتوقيت مدروس ، وفي نفس اللحظة التي استدار فيها (أحمد) ،
بعد أن تسلّم مفتاحه ، كان (سامى) يضع نفسه فى طريقه ،
ليصطدم به (أحمد) صدمة خفيفة ، جعلته يقول بردّ فعل تلقائى :

- آسف .. لم أقصد هذا .

قالها (أحمد) بالعربية ، وكان هذا ما يتمناه (سامى) بالضبط ،
فهتف وقد تهلّلت أساريره ، وتظاهر بالفرح والسعادة :

- أنت عربى ؟!

تعارفا على الفور ، وصافح كلُّ منهما الآخر بتلك الحرارة ، التى
تتزايد دائما فى الغربية ، عندما تهفو القلوب لرائحة الوطن ، وأصرّ
(سامى) على دعوة (أحمد) لتناول العشاء ، باعتباره ضيفا
أتى من الوطن الأم ، فحاول (أحمد) أن يتملّص من الدعوة ،
إلا أنه لم يلبث أن قبلها ، لتضمهما مائدة عشاء واحدة ، فى أحد
مطاعم (ميونيخ) ، الأنيقة ، ذات الأسعار المرتفعة ، وامتد بهما
الحديث إلى مصنع البلاستيك ، الذى يمتلكه (أحمد) ، فى نفس
الحى الشعبى الذى نشأ فيه (سامى) فى (القاهرة) ، وقال
(سامى) فى حماس :

- لدى صديق هنا ، يمكنه معاونتك فى عقد كل ما ترغب فيه
من صفقات هنا .

اعتدل (أحمد) ، وسأله فى سرعة وجدية رجل أعمال متمرس :

- وكم تبلغ عمولتك بالتحديد ؟

ناقشه (سامى) فى أمر العمولة ، ثم حدد معه موعدا لمقابلة
صديقه (هانز) ، الذى لم يكن فى الواقع سوى ضابط مخابرات
إسرائيلى عتيّد ، له شهرته الواسعة فى ذلك العالم الغامض ..

وفى المساء التالى ، وفى مقهى صغير ، له أضواء رومانسية
خافتة ، التقى (هانز) مع (أحمد) ، وراحا يتحدثان عن صناعة
البلاستيك ، والأعمال ، والتجارة ، وأسهب (أحمد) فى الحديث ،
وألقى ببعض المعلومات المهمة عن الصناعة والتجارة فى (مصر) ،
وجذب حديثه اهتمام (هانز) بشدة ، عندما راح يشرح بعض الدقائق
الاقتصادية ، التى يحتاج الإسرائيليون ، إلى معرفتها عن (مصر) ،
وجهاز التسجيل الصغير فى جيب (هانز) يسجل الحديث كلمة
بكلمة ، ويختزن الأسرار والمعلومات ..

وبعد اتصرف (أحمد) مال (سامى) على أنن (هانز) ، يسأله :

- ما رأيك ؟

هزّ (هانز) رأسه ، وقال مبهورا :

- المعلومات التى لديه شديدة الأهمية بالفعل ، ثم التقى حاجباه
فى صرامة ، وهو يستدرك بسرعة :

- ولكن لا بد وأن نتأكد منه أولاً ..

وفى (مصر) نشط عدد من عملاء (هاتز) ، لجمع المعلومات عن المهندس (أحمد عبد الله) ، وتأكدوا من أنه مسجل بنقابة المهندسين ، ويمتلك بالفعل مصنعًا للبلاستيك ، فى نفس الحى الشعبى ، وأنه فى هذه الأيام بالذات ، فى زيارة لمدينة (ميونيخ) لعقد بعض الصفقات التجارية ..

واطمأن (هاتز) ومن خلفه (الموساد) ، وصدرت الأوامر إلى (سامى) لتوطيد علاقته بـ (أحمد) ، والحصول منه على كل المعلومات الاقتصادية الممكنة .. بل وتوقيع أى نوع من عقود العمل معه ، لضمان استمرار العلاقة لأطول فترة ممكنة .

ونفذ (سامى) الأوامر بمنتهى الدقة كعادته ، وقد بدا له الأمر - فى هذه المرة بالذات - أشبه بصفقة تجارية ناجحة للغاية ، فهو يحصل على ثلاثمائة مارك ألمانى ، مقابل كل مصرى ينجح فى تجنيده ، وبالإضافة إلى هذا سيكون بينه وبين (أحمد) علاقة عمل ، تُدرُّ أرباحًا جديدة ..

كان قد حسب كل شىء جيدًا ، واطمأن إلى النجاح ، دون أن ينتبه إلى نقطة واحدة ، يمكنها أن تقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

هى أن (أحمد عبد الله) لم يكن - فى الواقع - مهندسًا ، أو صاحب مصنع للبلاستيك ..

بل لم يكن اسمه حتى (أحمد عبد الله) ..

اسمه الحقيقى كان (عمر) ، وكان يعمل ضابطًا وبالتحديد ..

ضابط مخابرات مصرى !

والعجيب أن قصة (سامى) كلها قد بدأت بصفعة ..

نعم .. صفعة تلقاها من والده ، يوم ظهرت نتيجة الثانوية العامة ، وحصل (سامى) على 51% فحسب ، فثار والده ، وراح يسبه ويلعنه ، ويضربه ، حتى هرب من المنزل ، ليبيت ليلته مع أحد أصدقائه ، وهو يلعب الدراسة والنتائج ، وكل تلك الأشياء ، التى تحرمه من التمتع بوسامته وأناقته ، وهو الذى يعتبر نفسه أكثر وسامة من نجوم السينما وبعد أسبوعين من هذه الصفعة ، أعلن (سامى) فى منزله أنه سيسافر إلى (ألمانيا) ليبحث عن عمل هناك ، فأشاح عنه والده بوجهه ، وقال فى سخط :

- فى ستين داهية .

وسافر (سامى) إلى (ألمانيا) ، ووصل إليها وهو يحمل فى أعماقه كل العداة والكراهية لمجتمعه ، وراح يُعلن مقتته وكراهيته فى كل مكان ، وكل مجموعة يلتقى بها ، سواء أكتوا من المصريين ،

أو من الأجانب ..

وكالمعتاد ، التقط (الموساد) هذا الخيط ، وبدأ يغزل خيوطه حول (سامي) في بظء وحذر ، ورجاله يُدركون أن عدم الانتماء هو الخامة المثالية ، لصنع جاسوس يعمل على هدم وطنه وبلاده ، دون وازع من أخلاق أو ضمير ..

ولم تكن عملية تجنيد (سامي) صعبة أو عسيرة ، بل لقد صارحه (هانز) بحقيقة الأمر في اللقاء الثاني مباشرة ، وهو يسأله :

- هل تحب أن تربح الكثير من المال ؟
أجابه (سامي) في لهفة :
- بالطبع .

وعلى عكس المتبع في عالم المخابرات ، مال (هانز) نحوه ، وقال في صراحة مذهشة :

- ما رأيك في العمل لحساب (الموساد) ؟
كان (هانز) يتوقع أن يكون للتصريح أثر المفاجأة ، في نفس (سامي) ، إلا أن هذا الأخير سأله في لهفة :

- وما المقابل ؟ .. أعني كم ستدفعون ؟

وانتهت العملية في سرعة وبساطة ..

وطوال أربع سنوات قضاها (سامي) في (ميونيخ) ، أصبح صديقاً لكل المصريين ، يستقبلهم ، ويعاونهم على الحصول على العمل والإقامة .. وحتى (لبن العصفور) ، لو اقتضى الأمر ..

ولم يعد (سامي) يتحدث عن مقتله وكرهيته لمجتمعه بل تصور الجميع أنه - على العكس من هذا تماماً - يهيم عشقاً ببلاده وهو يبذل كل هذا من أجل المصريين ..

وفي (مصر) ، شعر رجال المخابرات المصرية بالقلق ، وهم يتابعون حركة (سامي) وأسلوبه ، وعلاقاته بالمصريين .. شباباً ورجالاً وكهولاً ، وقدرته المدهشة على جذب بعضهم إلى عالمه القذر ..

وذات صباح استدعى مدير المخابرات (عمر) إلى مكتبه ، وسأله :

- هل سنترك ذلك القذر يواصل لعبته طويلاً؟! ..
إنه يتصور أن الساحة قد خلت له .
قال (عمر) :

- لا يمكننا إلقاء القبض عليه .. الوسيلة الوحيدة هي استدراجه

إلى (القاهرة) ، ومواجهته بكل الصور والأدلة ، التي نمتلكها
ضده ، ومحاكمته .

تراجع مدير المخابرات في مقعده ، وشبَّكَ أصابع كفيه أمام
وجهه ، وشرد ببصره وأفكاره لحظات ، وهو يُردد في خفوت :
- نعم .. لا بد من استدراجه إلى (القاهرة) .

كانت أعماق (عمر) تموج بالانفعالات ، وبالرغبة الأكيدة في
الإيقاع بالجاسوس ، ولكنه ظل صامتاً ، يتطلع إلى المدير في
لهفة ، متمنياً سماع ما يرغب فيه ، حتى اعتدل المدير ، وقال
في حزم :

- ضع خطتك لإحضار هذا الجاسوس يا (عمر) .. وبأى ثمن ..
وبهذا الأمر المباشر ، الذي أثلج صدر (عمر) ، بدأت العملية ..
عملية (ميونيخ) ..

في نفس الوقت الذي كان (هاتز) يجلس فيه مع (عمر) ، في
ذلك المقهى الخافت الأضواء ، ويسجل الحديث بينهما كلمة
بكلمة ، كان جهاز التسجيل الصغير ، داخل جيب سترة (عمر)
السرى ، يسجل بدوره كل ما يحدث ، وآلة التصوير الدقيقة داخل

قداحته الذهبية الأنيقة ، تلتقط عشرات الصور للرجلين (هاتز)
و (سامي) ..

وعندما عرض (سامي) عليه فكرة العقد المشترك ، وشرح له
الفوائد التي ستعود عليه منه ، لم يوافق (عمر) على الفور ،
وإنما بدا حذراً متردداً ، وأعلن أنه سيدرس الأمر بروية أكثر ،
فسأله (سامي) :

- ما الذي يقلقك ؟ .. يمكنك عرض العقد على محام .
أجابه (عمر) :

- وهذا ما سأفعله .. سأعود إلى (القاهرة) صباح الغد ،
وأسلم العقد لمحامي المصنع ، وبعدها أرسل إليك ، لتحضر إلى
(القاهرة) ، ونوقع العقد ..

وافق (سامي) بابتسامة جذابة ، لم تخل هذه المرة من علامات
اللهفة والجشع ، وأصرَّ على دعوته لتناول العشاء مرة أخرى ..

وفي الصباح التالي سافر (عمر) إلى (القاهرة) ، وانتظر
هناك خمسة أيام ، ثم أرسل إلى (سامي) برقية تقول :

- « احضر في أقرب فرصة لتوقيع العقد » .

وعندما تسلم (سامي) البرقية ، أسرع يتصل ب (هاتز) ، ويطلبه

بمكافأة إضافية ، لنجاحه في جذب رجل الأعمال (أحمد عبد الله)
إلى عالم (الموساد) ..

وكان هذا ، في نظر الإسرائيليين ، يُعد عملية ناجحة للغاية ،
فسوف يحصلون على كل ما يرغبون فيه من معلومات اقتصادية
عن (مصر) دون أن يُدرك رجل الأعمال المصري نفسه أنه
يعمل لحسابهم ..

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى وصل (سامي) إلى (القاهرة) ،
وهو مصطحب معه صديقين ألمانيين ، لقضاء رحلة سياحية بين آثار
(مصر) القديمة ، وفي مطار (القاهرة) تهللت أساريره ، عندما
رأى (عمر) بين المنتظرين ، وأسرع إليه يصافحه في حرارة ،
وابتسامته تملأ وجهه ، وهو يهتف :

- أحمد ، .. هل أتيت لانتظاري بنفسك؟! ..

أشكرك يا صديقي .. أشكرك كثيراً .

ولكنه فوجئ به يستقبله في برود صارم ، ويقول :

- اسمي ليس (أحمد) يا (سامي) .. أنا (عمر حماد) .. من
المخابرات المصرية وسقط فك (سامي) في ذهول ، وهوى قلبه
بين قدميه ، اللتين ارتعدتا ، وعجزتا عن حمله ، فكاد يسقط فاقدًا
للوعي ، لولا أن تلقفه عدد من الرجال ، تحمل عيونهم نفس

النظرة التي تموج بالحزم والاحتقار ..

ولم يستطع (سامي) النطق ، فقد ماتت الكلمات على شفتيه ،
وتجمد لسانه ، وغص حلقه بمرارة الهزيمة ، حتى إنه لم ينطق
بحرف واحد ، حتى وصل إلى مبنى المخابرات ، في كوبري
القبة ، وجلس في إحدى حجراته ..

عندئذ عاينته قدرته على النطق ، وأراد أن ينكر ما نسب إليه ،
ولكن رجال المخابرات أخرجوا ما لديهم من صور وتسجيلات
وشهود ..

وانهار (سامي) تمامًا ، عندما علم أن (سلوى) أيضًا كانت
تعمل لحساب المخابرات المصرية .

وأدلى الجاسوس باعتراف كامل ، وهو يبكي ويرتعش ، ويلعن
ذلك اليوم ، الذي سافر فيه إلى (ألمانيا) ، والذي التقى فيه
بذلك الضابط الإسرائيلي (هانز) ..

وعندما انتهى (سامي) من اعترافه ، وذيله بتوقيعه ، حمله
(عمر) إلى حجرة مدير المخابرات ، وقال وهو يضع الاعتراف
كله على مكتبه ، في ارتياح ظاهر :

- الآن فقط انتهت العملية يا سيدي ، عملية (ميونيخ) ..

وكما بدأ الأمر كله بصفعة ، انتهى أيضًا بصفعة ..

وفي هذه المرة ، لم تكن الصفعة على وجه (سامي) وحده ،

بل كانت أيضا على وجه جهاز مخابرات كامل ..

المخابرات الإسرائيلية ..

الغيرة ..

جرت الاستعدادات على قدم وساق ، في معسكر التدريب الإسرائيلي (النبي) ، لاستقبال الجنرال (بيريز) ، الذي قرر القيام بزيارة المعسكر ، وتفقد أحواله ، ونظم التدريب والأمن المتبعة فيه ، في ذلك اليوم من أيام فبراير ، عام 1968 ، وكان من الواضح أن نقيب الاحتياط (دان إفرام) ، مدرب الرماية في المعسكر ، هو أكثر المتحمسين لهذه الزيارة ، إذ ظل يراجع النظام والإجراءات طوال النهار ، وأشرف بنفسه على تنسيق الطوابير ، والاهتمام بنظافة وأناقة الجنود ، في أزيائهم العسكرية ، ثم كان أول المستقبليين للجنرال (بيريز) ، عندما وصل إلى المعسكر ، في العاشرة والنصف صباحا ، ومرافقه الأساسي طوال جولته الطويلة ، التي لم تنته إلا في تمام الواحدة ..

ومن المؤكد أن الجنرال قد شعر بالرضا عما رآه ولمسه ، وعما قام به النقيب (دان) ، فقد ربّت على كتفه في حرارة ، بعد انتهاء الزيارة ، وقال له في ارتياح ، وهما يجلسان في مكتب القيادة الدافئ :

- مجهود رائع يا (دان) .. كل شيء على ما يرام ، ومن الواضح أنك تبذل جهدا يستحق الإعجاب ، في تدريب الشباب الإسرائيلي في الرماية .

ثم مال نحوه ، ليسأله في اهتمام بالغ :

- ولكن ماذا عن الأمن والسرية ؟

ابتسم (دان) ، وهو يريح قدمه اليسرى ، بعد أن ألمته إصابة فخذة القديمة ، وقال في حسم واضح :

- كل شيء على ما يرام يا جنرال .. اطمئن .

أوما الجنرال (بيريز) برأسه في ارتياح ، وهو يتراجع مرة أخرى في مقعده ، قائلا :

- هذا أمر بالغ الأهمية يا (دان) ، فالمفروض أن تحاط نظم وأساليب التدريب عندنا بأقصى درجة من السرية ، حتى لا يعرف أعداؤنا وسائلنا .. أنت تعرف أن كشف هذا يساعد المصريين على تطوير أساليب تدريبهم ، بحيث يمكنهم التصدي لكل ما ندرّب شبابنا عليه ، أو ابتكار وسائل جديدة لمواجهة .

قال (دان) في حماس :

- أعرف هذا بالطبع يا جنرال .

رمقه الجنرال (بيريز) بنظرة إعجاب ، قبل أن ينهض قائلاً :

- عظيم .. هكذا نكون قد بلغنا النهاية .

رافقه (دان) في حماس إلى سيارته ، وصافحه مع قائد المعسكر في حرارة ، قبل أن يدلغ إليها ، فأشار الجنرال بسبابته ، مكرراً نصيحته :

- تذكروا دائماً .. السرية .. لا نريد أن يعرف المصريون ما نفعه هنا أبداً .

اتسعت ابتسامة (دان) ، وهو يقول :

- اطمئن يا جنرال .. لن يجد المصريون ثغرة واحدة ، ينفذون منها إلينا .

حملت ابتسامة الجنرال (بيريز) كل ثقته وارتياحه ، والسيارة العسكرية تنطلق به مبتعدة عن معسكر (النبى) ، وعقله يراجع تفاصيل زيارته الناجحة ، ويفكر في أمور شتى ..

ولكن الشيء الوحيد ، الذى لم يفكر فيه الجنرال ، والذى لم يخطر بباله قط ، هو أن المصريين قد نفذوا إلى المعسكر ، من خلال واحد من أقوى عملائهم فى قلب (إسرائيل) .. نقيب الاحتياط (دان إفرام) .

منذ المراحل الأولى للصراع العربى الإسرائيلى ، أدركت المخابرات العامة المصرية ضرورة وجود عين لها فى قلب

العدو ، وفى مؤسسته العسكرية بالتحديد ، وبعد حرب يونيو بالتحديد ، بات من الضرورى زرع عملاء من طراز خاص ، فى أعماق هذه المؤسسة العسكرية .

وفى معسكرات التدريب الجديد .

ففى تلك الفترة ، لم يكتف الإسرائيليون بتدريب جنود جيشهم النظامى ، والآلاف من ضباط وجنود الاحتياط ، وإنما امتدت تدريباتهم إلى الشباب من الجنسين ، ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر ، حيث يتم تدريبهم لمدة ساعة يومياً ، فى المدارس والمعاهد ، ولمدة نصف يوم أسبوعياً فى المعسكرات ، ثم لمدة يوم كامل كل شهر فى معسكر (النبى) ، وهناك يتم تدريبهم على الرماية ، وإعدادهم عسكرياً ، عبر برنامج أطلق عليه اسم (الجادنا) ..

ولقد أحاط الإسرائيليون ببرنامجهم التدريبية هذه بنطاق خاص من الأمن والسرية ، بحيث يصعب تسرب أساليبهم وطرقهم إلى المصريين ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يجذب الأمر بسريته اهتمام المخابرات المصرية ، التى قررت كسر نطاق الأمن ، واختراق حاجز السرية .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، وكما يحدث دائماً ، اجتمع مدير المخابرات بعدد من رجالها الأفيان لدراسة الموقف وتقييمه ، وبعد استعراض الأمر كله ، قال المدير في حزم :

- من الواضح إذن أن الحصول على معلومات كافية ، حول أساليب ونظم التدريب ، في معسكر (النبى) ، صار هدفاً أساسياً فى خطتنا القادمة ، ولابد من دراسة أفضل وأنجح السبل للوصول إليه .

اقترح أحد الرجال القيام بمحاولة لتجنيد أحد الشبان ، الذين يتلقون تدريباتهم فى المعسكر ، ولكن الاقتراح قوبل بالاعتراض ، خشية أن يفلت حماس الشاب فى أى الاتجاهين ، فيسرف فى الحصول على المعلومات والبحث عنها ، على نحو يعرضه لافتضاح أمره ، وكشف العملية كلها ، أو يسارع بالإبلاغ ، فنخسر عميلاً قديماً ، أو نكشف شبكة تجسس ، بذلنا جهداً ومالاً لنثبت أقدامها فى قلب (إسرائيل) ..

ثم جاء الاقتراح الأكثر جرأة ، بالسعى لتجنيد أحد ضباط التدريب فى المعسكر ..

وعلى الرغم من أن هذا أكثر صعوبة وخطورة ، إلا أن الفكرة لاقت قبولاً من الجميع ، فراحوا يدرسونها من كل الجوانب ، ويناقشون كل الاحتمالات ، ويسدّون الثغوب ، أو يرفون التمزقات فيها ،

حتى صارت فى النهاية نسيجاً مكتملاً ، ولا ينقصها إلا الأمر بالتنفيذ .

وكانت الساعة قد شارفت الرابعة والنصف صباحاً ، عندما قال مدير المخابرات ، وهو يرتشف قدح القهوة :

- السؤال الأخير أيها السادة هو :

من أفضل رجل لنا فى (تل أبيب) ، يمكنه القيام بمثل هذه العملية!؟

أجابه أحد رجاله فى حماس :

- أحد اثنين: إما (رفعت الجمال) ، أو (إميل دوربيه) .

كان الاقتراح وجيهاً ومناسباً بالفعل ، فالأول مصرى قلباً وقالباً ، يحيا فى (إسرائيل) منذ عدة سنوات ، تحت اسم (جاك بيتون) ، وله صلات واتصالات واسعة ، بعدد من رجال وضباط جيش الدفاع الإسرائيلى ، إلى الحد الذى كون فيه صداقة خاصة ، مع وزير الدفاع حينذاك (موشى ديان) ، فى حين كان الثانى عميلاً فرنسياً ، ولد لأب مصرى وأم فرنسية ، ويعمل كرجل أعمال فى (إسرائيل) ، منذ عامين أو ثلاثة ، ونجح خلال هذه المدة فى تجنيد إحدى العاملات فى مصنع الطائرات ، وحصل من خلالها على معلومات بالغة الأهمية ، كان لها أبلغ الأثر فى تحديد موقع الجيش الإسرائيلى من عملية التصنيع الحربى ..

وبعد مناقشة طويلة ، انتهت مع شروق شمس اليوم التالي ،
وقع الاختيار على الفرنسي للقيام بالمهمة ، نظراً لأن موقع
(الجمال) بالغ القوة والحساسية ، ويحسُن عدم المجازفة بأمنه
واستقراره ، واتصالاته الواسعة ، من أجل عملية محدودة ..

وفي السادسة والنصف صباحاً ، أي بعد ما يقل قليلاً عن الساعة
من اتخاذ القرار ، تم إرسال برقية شفرية إلى (إميل دوربييه) ،
في قلب (إسرائيل) ، تحدد له موعداً للقاء أحد رجال المخابرات
المصرية ، بعد ثلاثة أيام بالتحديد ، في ميناء (مارسيليا) الفرنسي .

وفي الموعد المحدد ، التقى (إميل) بضابط المخابرات المصري ،
الذي أسند إليه مهمة البحث عن شخص مناسب ، وترشيحه للعمل
لحساب المخابرات المصرية ، في معسكر (النبي) للتدريب .

لنقل كل المعلومات اللازمة إلينا ..

ولم يستغرق لقاء (إميل) برجل المخابرات المصري أكثر من
ساعة ونصف الساعة ، افترقا بعدها ، وقضى (إميل) يومين
في (باريس) ، لينجز بعض الأعمال ، التي تبرر سفره إلى
(فرنسا) ، ثم عاد إلى (تل أبيب) في اليوم الثالث ، ليبدأ في
تنفيذ مهمته ولم يمض شهر واحد ، حتى أرسل (إميل) تقريراً ،
طلب فيه الإذن بتجنيد نقيب الاحتياط (دان إفرايم) للمهمة ، مع
بيانات أولية لهذا الأخير ..

وكما يحدث في مثل هذه الأحوال ، راح رجال المخابرات يدرسون
شخصية المرشح الجديد بمنتهى الدقة والاهتمام ، من خلال المعلومات
التي حصل عليها (إميل) ، والتحريات التي قام بها عملاء آخرون
في قلب (إسرائيل) ، لم يلتق أيهم الفرنسي ، أو يتعارفا مرة
واحدة في حياته كلها ..

وجاءت النتائج مشجعة .

فالنقيب احتياط (دان إفرايم) مقامر سيئ الحظ ، عدد مرات
خسارته على مائدة القمار الخضراء يفوق عدد مرات ربحه
بخمسة أضعاف على الأقل ، وهو لا يكف لهذا عن اقتراض
النقود ، مما يثير مشكلات عديدة بينه وبين زوجته البولونية
الأصل (ميراشيمن) ، التي فسد الوفاق بينها وبينه منذ زمن ،
بسبب علاقته بفتاة تدعى (ديبور أمايزل) ، صديقة (ماجي)
التي جندها (إميل) للعمل لحساب المخابرات المصرية .

.. وفي الوقت نفسه ، فإن (دان) شديد النعمة على كل ما هو
إسرائيلي ، بعد إصابته برصاصة في فخذه اليسرى ، في حرب
1956 م ، أثناء هجوم المقاتلات المصرية على ممر (متلا) في
أول أيام المعركة ، مما أدى إلى إصابته بشلل جزئي في حركة
الساق ، وعرج واضح ، جعل بعض زملائه القدامى يطلقون عليه
اسم (دان الأعرج) ، وعلى الرغم من هذا فلم يحصل على أية

أوسمة أو مكافآت ، أو حتى شهادة تقدير ، وإنما تم تجاهله تماماً ، وأعيد إلى الخدمة المدنية في فبراير 1957 مساعداً للعمل في معهد التقنية الإسرائيلي (تكنيون) ، ومقره (حيفا) ..

وامتلأت نفس (دان) بالسخط ، ولكنه راح يتقدم بالالتماسات والشكاوى في إصرار ، حتى تم النظر في موقفه ، وعين مدرباً للرمية في معسكر (النبى) .. وعندما طرح أمر ترشيح (دان) على مائدة البحث ، في جهاز المخابرات العامة ، أبدى أحد الضباط اعتراضه ، قائلاً :

- مشكلة هذا الرجل أنه مقامر ، ولا يمكننا الركون إلى شخص مثله ، أو ضمان إخلاصه وولائه ، فمن الممكن جداً أن يخوننا ، مع أول أزمة تعترضه .

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يقول :

- نقطة ضعفه هذه هي أقوى وسيلة للسيطرة عليه يا رجل ، فكل ما يسعى إليه أي مقامر ، هو المال ، وما دمت تمده به على نحو منتظم ، فسيظل على ولائه لك ، ثم إنه سيتورط معنا ، بعد أول مرة يمدنا فيها بالمعلومات ، ولن يصبح بوسعنا التراجع أو التملص ، وهذا سيحكم قبضتنا عليه تماماً .

تبادل الجميع نظرة مؤيدة لنظرية المدير ، فيما عدا الضابط

المعترض ، الذي أشار بيده ، قائلاً :

- ما زالت هناك نقطة ضعف بالغة الخطورة ، في شخصية (دان إفرام) فله عشيقه يميل إليها ، وهذا يعني أنه من الممكن والمحتمل أن يتحدث معها يوماً حول عمله لحسابنا ، مما يعرض العملية كلها للخطر .

أدهشتهم تلك الابتسامة الكبيرة ، التي ملأت وجه مدير المخابرات ، وهو يقول :

- نفس المشكلة ، التي جالت بخاطري .

ثم وضع أمامهم برقية تم حل شفرتها منذ قليل ، وتحمل توقيع (إميل دوربيه) ، وهو يستطرد :

- والعجيب أن (إميل) أرسل حلها قبل أن نناقشها .

طلع الرجال البرقية في اهتمام ، ثم انفجرت الدهشة في أعماقهم ، فقد كان (إميل) يطلب الموافقة على تجنيد (دييورا) صديقة (دان) أيضاً ..

وبدأت عملية دراسة للمرشحة الجديدة ..

ومن المؤكد أن مثل هذه الأمور تستغرق وقتاً طويلاً ، وتحتاج إلى معلومات وتحريات بالغة الدقة ، وأن الوقت قد لا يصبح العامل

الرئيس في كثير من الأحيان ، إلى جوار الحرص والحذر ، تطبيقاً
للمثل القديم القائل :

« في التأتى السلامة ، وفي العجلة الندامة » ..

ولهذا لم يصل رد (القاهرة) بالموافقة على تجديد (دان)
و(ديبورا) إلا بعد شهر كامل ..

ولم يكد (إميل) يتلقى الرد ، حتى شرع في العمل على الفور ،
فاستغل صداقة (ماجى) و(ديبورا) ، ليتقرب إلى الأخيرة وصديقها
(دان) ، الذى لم يلبث أن وطّد صلته بالفرنسى ، لما رآه عليه من
مظاهر الثراء والبذخ ، إلى أن مال على أنه ذات يوم ، وهو يسأله :

- قل لى يا عزيزى (إميل) ألا يمكنك أن تقرضنى مبلغاً بسيطاً ؟

أجابه (إميل) فى حماس :

- بالطبع يا رجل .. فيم الأصدقاء إذن !؟

وابتهج (دان) لهذا المصدر الجديد ، الذى يمكنه الحصول منه
على القروض اللازمة ، لاستمرار البقاء على مائدة القمار ..

ولكن ، وكما يحدث مع كل المقامرین ، لم يكن من السهل أبداً
أن يسدد (دان) قروضه ..

.. بل كان من المستحيل أن يفعل ، مع معدلات خسائره المرتفعة

والمستمرة ، مما قفز بالمبلغ الذى اقترضه من (إميل) إلى
أرقام خيالية ، راح هذا الأخير يشير إليها باستمرار ، كلما طلب (دان)
قرضاً جديداً ، ثم أخذ يبدى ضيقه وتبرمه ، من عدم قدرة الرجل
على الوفاء بديونه ، مما وضع (دان) فى موقف لا يحسد عليه ..
وهنا حانت لحظة المواجهة ..

ولم يكن الأمر صعباً أبداً ..

لقد تقبل (دان) الأمر فى بساطة ، وكأنه كان يتوقع طيلة
عمره أن يقوم بعمل غير مشروع ، للحصول على المال ، أو أنه
لم يكن يعنيه ما يمكن أن يقوم به ، ما دام المقابل سخياً ..

وهكذا تطوى (دان إفرايم) تحت جناح المخابرات العامة المصرية ،
وصار عيناً لها فى قلب جهاز التدريب العسكرى الإسرائيلى ..

واكتملت شبكة (إميل دوربييه) فى قلب (إسرائيل) فاختص
(دان) بالموضوعات العسكرية والتصوير ، وتولت (ماجى) أمر
مصنع الطائرات ، والدراسات الاقتصادية ، فى حين انحصر عمل
(ديبورا) فى جمع المعلومات عن المنظمات النسائية ، وكتابة
التقارير حول مشاكل جبهة المعارضة اليهودية فى البلاد .

وفى فبراير 1969 م ، رشح (دان) اثنين فى صف الضباط
للعمل لحساب المخابرات المصرية ، أحدهما جاويش فى السلاح

البحرى ، يدعى (أودى بيدلسون) ، والثانى حسناء فاتنة ، تدعى (أستير تالمى) ، تعمل فى سجن (رانون نيرزا) النسائى .. ولقد وافقت المخابرات المصرية على تجنيد (بيدلسون) ، ولكنها رفضت (أستير) فى إصرار ، أوحى بأنها محاطة بقدر لا بأس به من الشبهات ..

وطوال فترة عمله ، نقل (دان إفرايم) إلى المخابرات المصرية قدرًا هائلًا من المعلومات حول نظم ووسائل التدريب فى معسكر (اللنبى) ، وفى عدد من معسكرات التدريب الإسرائيلية الأخرى ، التى يمكنه دخولها بحكم موقعه ورتبته ، بل والتقط بوسائله الخاصة عشرات الصور ، التى جعلت المصريين كأنهم يقيمون داخل معسكرات التدريب الإسرائيلية ، ويتابعون كل ما يحدث فيها لحظة بلحظة .

وكان لهذا أكبر الأثر ، عندما حدثت المواجهة الكبرى ، فى حرب أكتوبر 1973 م ، عندما فوجئ الإسرائيليون بأن المصريين يعرفون كل وسائلهم ، وأنهم قد استعدوا لها جيدًا ، وأفسدوا مفعولها بمنتهى البراعة والدقة .

ولكن (دان) لم يستمر فى عمله هذا مع الأسف ، لأسباب لا علاقة لها إطلاقًا بأعمال المخابرات أو بصراع العقول المصرى الإسرائيلى ..

بل كانت الأسباب عاطفية محضة .. وفى ديسمبر 1971 م ، كانت غيرة (ميرا) زوجة (دان) قد بلغت ذروتها ، بعد أن ترك الأخير منزل الزوجية تمامًا ، وأقام بصفة دائمة مع (ديبورا) ، ولم يعد يهتم حتى بطلب النقود منها ، لتعويض خسائره ، فى القمار ، كما كان يفعل من قبل ..

ولأن غيرة المرأة تسبق كل مشاعرها وانفعالاتها ، وحدود المنطق فى أعماقها ، فقد طردت (ميرا) زوجها فى عناد ، حتى ئيست من عودته إليها ، فقدمت ضده شكوى ، زعمت فيها أنه يقوم ببيع الذخيرة المخصصة لتدريب الشباب فى معسكر (اللنبى) .

وفى أول يناير 1972 م ، داهمت قوة من رجال الشرطة منزل (ديبورا) ، وراحت تفتشه فى غلظة وفضاظة ، على نحو أسقط قلب (دان) بين قدميه ، وجعله يتصور أن أمره قد انكشف ، وأنه لن يلبث أن ينتهى خلف القضبان ، أو يلقى مصرعه برصاصات فرقة الإعدام ، بعد اتهامه بالخيانة فى زمن الحرب ..

وعلى الرغم من أن التفتيش لم يسفر عن شيء ، وأن الشرطة أطلقت سراح (دان) وصديقه ، إلا أن الرعب الذى ملأ قلوبهما لم يفارقهما قط حتى إن (دان) انتحر فى اليوم التالى مباشرة ،

الفرنسي ..

« الإسرائيليون يستعدون لصنع مقاتلة نفائثة .. »

نطق رجل المخابرات المصري (و) بهذه العبارة ، في شيء من التوتر ، فاعتدل رئيسه في بطن ، وقد انعقد حاجباه في شدة ، وداعب ذقنه بسبابته ، وهو يسأله في اهتمام ، يشوبه شيء في القلق ..

- من أين أتيت بهذه المعلومة ؟

أجابه (و) ، وهو يلوح بكفه ، وكأنه يشرح ما لديه .

إنها شائعة قوية ، تتداولها الأوساط العسكرية الإسرائيلية ، وتتهامس بها بعض الأنظمة العربية والفلسطينية ، ومعلوماتنا تقول إنها انطلقت من مصنع (بيديك) ، المتخصص في صناعة الطائرات ، حيث يعمل رجل يدعى (أولشي فيمر) ، يصف نفسه دائماً بأنه عبقرى ، يتمتع بعقلية علمية فذة ، ويؤكد أنه المسئول الأول عن ابتكار وتصميم وصنع المقاتلة النفائثة ، التي أطلق عليها اسم (سوبر ميراج) .

بشئ نفسه بحبل ، في مخزن ذخيرة المعسكر ، في حين اختفت (ديورا) تماماً ، ولم يعثر لها على أثر .

والمدحش أن الإسرائيليين لم يكونوا قد انتبهوا قط إلى أن (دان) يعمل لحساب المصريين ، بل ولم ينتبهوا إلى هذا إلا مع التحقيقات المكثفة ، التي أجريت بعد حرب 1973 م ، لمعرفة سر تسرب معلومات التدريب إلى المصريين .

والمؤكد أن الحيرة ملأت نفوس الإسرائيليين كثيراً ، عندما توصلوا إلى حقيقة انتحار (دان) ، غير المبرر ، ولكن المؤكد أيضاً أنه لم يخطر ببالهم قط أن السبب وراء هذا كان مجرد انفعال بسيط ، لا يمتُّ لأعمال المخابرات بأية صلة ..

انفعال اسمه (الغيرة) .

ازداد انعقاد حاجبي رئيسه ، وهو يدرس الأمر في عقله
جيداً ، قبل أن يعتدل في مقعده ، ويقول في اهتمام بالغ :

- الأمر جد بالغ الخطورة يا (و) ، فهو يتعلق بالموازنين
العسكرية في المنطقة .. لابد وأن نتيقن من صحة الأمر .. نريد
معلومات ووثائق مؤكدة ، وليس مجرد شائعات ، تحتمل الخطأ
بأكثر مما تحتمل الصواب .

ثم اكتسى صوته بصرامة شديدة ، وهو يستطرد :

- نريد معرفة ما يدور في قلب مصنع (بيديك) يا (و) ،
وهذا يحتاج إلى عميل خاص ، يمكنه أن يقيم في (تل أبيب) ،
ويحصل على ما نريد من معلومات دقيقة ، دون أن تتطرق إليه
الشبهات .

ابتسم (و) ، وهو يقول :

- أعتقد أن لدينا مثل هذا العميل بالفعل يا سيدي .

تطلع إليه رئيسه في اهتمام ، فأكمل في حزم :

- العميل الفرنسي .

وكانت هذه هي البداية ..

(إميل دروبيه) ، ابن لأم فرنسية ، وأب مصري من أسرة
عريقة ، ولد وتلقى تعليمه ودراسته في (فرنسا) ، واكتسب
خلال سنوات عمره الست عشرة الأولى ، مزيجاً من الاجتماعية
الفرنسية ، والانتماء المصري الخالص ، حتى توفى والده فجأة ،
ومع وفاته برزت مشكلة ضخمة إلى السطح ..

لقد تبين فجأة ، أن والده كان متزوجاً من سيدة مصرية ،
أنجب منها ثلاثة أبناء ، قبل أن يلتقى بوالدة (إميل) ويتزوجها ..

ومع بروز هذه المشكلة ، التي لم يألّفها المجتمع الفرنسي ،
اضطرت والدته (إميل) إلى النزوح إلى (القاهرة) بصحبة ابنها ،
وخوض معركة قضائية ، استغرقت ست سنوات كاملة ، قبل أن
يصدر الحكم لصالحها ، ويحصل (إميل) على نصيبه من تركة
والده ..

وفي فترة ما ، خلال هذه السنوات الست ، اتصلت المخابرات
المصرية بالشباب ، وأقنعه بالعمل لحسابها ..

أو أنه هو الذي اتصل بها بوسيلة ما ، وتطوع للعمل معها ..

لا يمكننا الجزم بهذا أو ذاك ، إذ إن التفاصيل ما زالت تدرج

تحت بند السرية المطلقة ، ولكن المهم أن (إميل) لم يعد إلى

(باريس) ، إلا وهو ينتمي قلباً وقالباً إلى (مصر) ..

وإلى المخابرات العامة المصرية ، التي حصل فيها على الاسم
الرمزى (بيير) ..

وما إن أنهى (إميل دروبيه) دراسته الجامعية فى (باريس)
حتى استغل ما ورثه عن والده المصرى ، وما تلقاه من تعليمات
جهاز المخابرات ، ليبدأ نشاطه التجارى ، الذى لم يلبث أن قاده ،
على نحو بدا منطقيًا تمامًا ، إلى الانتقال إلى (تل أبيب) ، التى
لم يكد يصل إليها ، حتى بدأ يتحرك ويتصرف كرجل أعمال ناجح
نشيط ، فراح يستعلم عن عناوين مكاتب الاستيراد والتصدير ،
والشركات المختصة بصقل وتسويق الماس ، وكميات البوتاس
التي يتم استخراجها من البحر الميت ، ومراكز تجارة الموالح ..

وكان مسيو (دروبيه) شابًا أنيقًا رقيقًا للغاية ، يدرك أهمية
المظاهر ، بالنسبة لمن يعملون بالتجارة ، ويعقدون الصفقات
الكبيرة ، فاتخذ مسكنًا فاخرًا ، بالقرب من مشرب (رولاو) ، أشهر
مشارب (تل أبيب) ، وابتاع سيارة حديثة أنيقة ، كان يقودها
دائمًا بنفسه ، بزعم أنه لا يثق فى السائقين ، وفى بعض الأحيان
كان يقضى أمسياته فى (رولاو) ، أو فى بعض النوادى الفاخرة ،
حيث ينفق فى بذخ ، ويحيا وكأنما خلقت الدنيا من أجله ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يصبح (إميل دروبيه) نجمًا

من نجوم المجتمع الإسرائيلى ، وعالم المال والأعمال ، فامتدت
صلاته واتصالاته ، والتف حوله عدد هائل من التجار والسماسرة
والمنتفعين ، واستقر به المقام أكثر وأكثر فى (تل أبيب) ، ثم
وصلته الأوامر من (القاهرة) ، ليبدأ فى إنجاز المهمة التى جاء
من أجلها إلى (إسرائيل) ..

إنشاء شبكة من الجواسيس ، والحصول على أكبر قدر ممكن
من المعلومات ..

ولم يكد (إميل) يشرع فى مهمته ، حتى انتشرت شائعة استعداد
(إسرائيل) لصنع مقاتلة النفاثة ..

وبسرعة ، وصلت الأوامر الجديدة للفرنسى (إميل دروبيه) ..

لأبد من تحديد ما توصل إليه الإسرائيليون فى هذا المضمار ،
وبمنتهى الدقة ..

والعجيب أنه ، وبينما كان (إميل) يدرس الأمر ، ويسعى لوضع
خطة لتنفيذ التعليمات ، ألقى القدر إليه بالفاتنة (ماجى بشنس) ..

كانت (ماجى) نموذجًا فريدًا للجمال والفتنة ، ولقد التقى بها
(إميل) لأول مرة فى مطعم أسماك مُطل على البحر ، فى الثالثة
بعد الظهر ، فى أحد أيام الآحاد ، ويومها كانت بصحبة بدين
أصلع ، يوحى مظهره بالثراء وفساد الذوق فى آن واحد ،

زعمت أنه عمها ، على الرغم من أن حديثها معه وتدلُّها عليه ،
كانا يوحيان بغير هذا تمامًا ..

ولم تكن فتنة (ماجى) وحدها التى جذبت إليها انتباه (إميل) ،
وإنما إقبالها الشديد النهم على الطعام ، على نحو جعله يتساءل
عما إذا كانت قد تناولت طعامًا من قبل ، فى حياتها كلها !! ..

ولم تكذ (ماجى) تنتهى من طعامها ، حتى خيل إليه أنها تحولت
إلى شخص آخر تمامًا ، فقد تعالت ضحكتها ، وشملها مرح عجيب ،
ثم راحت تخلص النظرات إليه ، وتلوح له بيدها خلسة ، بعدما رآته
من اهتمام العاملين الشديد به ، وبذخه الواضح فى الإنفاق ، مع
أنفاقته ووسامته المبهرتين ..

وعندما لاحظ (إميل) اهتمامها به ، أنهى طعامه ، ونهض يعلن
لصاحب المطعم فى صوت مسموع أنه سيعود مرة أخرى فى الثامنة ،
ويرغب فى تناول عشاء من المحار ، فانتفض صاحب المطعم ،
ووعده بأن يكون المحار جاهزًا ، حتى ولو اضطر للغوص فى أعماق
البحر بنفسه لصيده ..

وقبل أن ينصرف (إميل) ، وزع هباته السخية على العاملين
فى المطعم ، ثم أوما برأسه للقاتنة (ماجى) ، وانصرف لا يلوى
على شيء ..

ولا أحد يدري ، حتى هذه اللحظة ، لماذا انتقى (إميل) (ماجى)
بالتحديد ، ولكن يبدو ، وهذا أميل إلى المنطق ، أنه لم يكن اختيارًا
عشوائيًا ، ولم تكن مصادفة محضة ، بل يؤمن البعض ، على
الرغم من عدم وجود تأكيدات رسمية ، بأن الالتقاء بتلك الفتاة
كان مدبرًا ، بواسطة عميل آخر ، لم يتم الكشف عنه بعد ..

المهم أن (إميل) عاد إلى المطعم بالفعل ، فى تمام الثامنة ،
ليجد كل ما أراده فى انتظاره ..
المحار .. و (ماجى) ..

ولم تمض دقائق على وصوله ، حتى كانت تجمعهما مائدة
واحدة ، و (ماجى) تطلق ضحكتها المرحية ، وهى تستعيد تفاصيل
ذلك الموعد ، الذى حصل عليه من خلف ظهر عمها المزعوم ..

وعندما وصل المحار ، تحولت (ماجى) مرة أخرى إلى آلة
نهمة للأكل ، وكأما حرمت الطعام طيلة عمرها ، وبعد أن التهمت
أكثر من نصف كمية المحار ، تفجر مرحها الزائد ، وراحت تروى
الكثير والكثير عن حياتها ..

واعترفت (ماجى) بأن ذلك العجوز ليس عمها ، وبأنها تنتمى
إلى أسرة فقيرة للغاية ، حتى إنها عاشت حياتها كلها تعانى من
نقص الطعام ، حتى بعد أن التحقت بالعمل فى مصنع (بيديك)

للطائرات ، الذي تعمل فيه من الساعة صباحًا إلى الواحدة بعد الظهر ، ومن الرابعة حتى الساعة مساءً ، نظير أجر شهري لا يتجاوز السبعين ليرة ، تدفع منها أربعين ليرة لأسرتها ، مقابل الإقامة والمأكل ، وتنفق عشرين ليرة أخرى على المواصلات ، نظرًا لأن أتوبيس المصنع لا يصل إلى حيث تقيم ، ثم يتبقى لها عشر ليرات ، تكفي بالكاد لشراء ثلاث علب من السجائر الرخيصة ..

والتقط (إميل) كل المعلومات في صمت ، ودون أن يعلق بحرف واحد ، شأن أي جاسوس محترف ، ثم غادر المطعم مع (ماجي) ، وقضيا معًا ما تبقى من الليل في جولة بالسيارة على الشاطئ ، انبهرت لها (ماجي) ، وأدركت أنها وقعت على صيد ثمين ، لا يمكنها أن تسمح له بالإفلات منها ، مهما كان الثمن .. ولم يكتف (إميل) بهذا ..

لقد انتظرها في اليوم التالي أمام المصنع ، ولم يكذب بصرها يقع عليه ، بعد انتهاء نوبة عملها الأولى في الظهر ، حتى أطلقت صرخة فرح ، وقفزت تتعلق بعنقه ، أمام زميلاتها ، اللاتي انبهرن بذلك الفرنسي الوسيم ، صاحب السيارة الفاخرة ، الذي ينتظر (ماجي) ، ويتعامل معها على هذا النحو ..

ولكن (إميل) كان يعد مفاجأة أكثر قوة ..

لقد اصطحب (ماجي) في جولة إلى أفخر متاجر الثياب والعبور ، في قلب (تل أبيب) ، وأظهر كرمًا وبذخًا غير عاديين ، وهو يبتاع لها عددًا من الثياب الأنيقة ، والعبور الغالية ، التي خفق لها قلب (ماجي) ، وسال معها لعابها ، وتضاعف إصرارها على الاحتفاظ برفيقها الجديد ، مهما كان الثمن ..

وعندما أيقن (إميل) تمامًا من أن (ماجي) لم تعد تستطيع الابتعاد عنه ، انتقل على الفور إلى الجزء الثاني من الخطة ..

لقد انتهز يوم عطلة ، صحبها خلاله إلى بعض أماكن التنزه ، ثم تناولوا الغداء في مطعم فاخر يطل على البحر ، وانتهت أمسيتهما بجولة في الأندية وأماكن اللهو ، قبل أن يستقر بهما المقام في منزله ، الذي جلس في شرفته شاردًا ، يتطلع إلى البحر في صمت ، جعلها تقترب منه ، وتساله في شيء من القلق الهامس :

- ماذا بك ؟ .. ما الذي يشغل بالك ؟

استعان بكل مهاراته ، ليطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، قبل أن يجيب :

- أحوالي المالية ليست على ما يرام ، في الآونة الأخيرة ، بسبب بعض الصفقات الخاسرة ، التي أفقدتني الكثير من الأموال .

هو قلبها بين قدميها ، وتسلس الذعر إلى كياتها ، وبكت في

حسرة ، وهي تتهم نفسها بأنها تجلب سوء الحظ لكل من تعرفهم ، إلا أنه طيب خاطرها ، وهو يقول :

- ليس إلى هذا الحد .. الواقع أنني أدرس مشروعاً ربما يحقق أرباحاً خرافية ، تعوّض كل الخسائر السابقة .

بدت لهفة متسائلة في عينيها ، فتابع في خفوت شارد ، وكأنه يتحدث إلى نفسه :

- لا شيء يحقق أرباحاً تفوق تجارة الأسلحة ، ولو أنني تعاقدت مع الحكومة الإسرائيلية لتوريد بعض مستلزمات التسليح ، لحققنا أرباحاً هائلة ، ولكن هناك مشكلة .

سألته في لهفة :

- أية مشكلة ؟

هز رأسه في أسي ، وهو يجيب :

- إتمام مثل هذه الصفقات يحتاج إلى مبالغ كبيرة ، وإلى سماسرة يتقاضون نسبة مخيفة ، ولو أمكننا تجاوز هذا العائق ، ستتم الصفقة على نحو رائع .. لا بد وأن نعرف بالضبط ما الذي يحتاج إليه الإسرائيليون ، ونتقدم به ، فتم الموافقة عليه بسرعة ، دون وسطاء أو سماسرة .

ثم التفت إليها ، مستطرداً بنظرة رجاء :

- وأعتقد أنك تستطيعين مساعدتي في هذا يا (ماجى) .. أليس كذلك ؟

خفق قلبها في عنف ، وأدهشها أن يحتاج أى مخلوق إلى مساعدتها ، فى أى يوم من الأيام؛ لذا فقد سألته فى انفعال :

- وما الذى يمكننى أن أفعله لمساعدتك يا (إميل) ؟

تطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يجيب :

- لو أننا حصلنا على قائمة بالمصاعب التى تعترض صناعة الطائرات ، يمكننى أن أتقدم بعرض مناسب ، و... إحم .. أعلم أن المسألة حساسة للغاية ، ولكن ..

وبتر عبارته بغتة ، وتنهد فى عمق ، ثم لوح بيده ، وأشاح بوجهه ، قائلاً :

- آه .. معذرة يا (ماجى) .. لست أدري لماذا خطرت هذه

الفكرة ببالي .. من الواضح أنه لا يمكنك التورط فى أمر كهذا .

هتفت بكل حماسها وانفعالها :

- من قال هذا ؟ .. إننى مستعدة لفعل أى شىء من أجلك .

ثم تراجع ، وغمغت مستطردة فى حزم :

- ثم إننى لست غبية كما تتصور ..

وكانت العبارة الأخيرة بالذات تضع النقاط فوق الحروف ..

إنها تعنى أن (ماجى) تفهم حدود الموقف إلى حد ما ..

وأنها مستعدة لأداء كل ما يطلب منها بشأنه ..

وهنا بدأ العمل الحقيقى ..

لقد درس (إميل) الأمر ، ووجد أن الوصول إلى الهدف يستلزم المرور بخطوة جوهرية ، وهى أن يطلع (إميل) على مراسلات المصنع ، ليتفهم احتياجاته الضرورية ، ويتبين كل ما يحتاج إليه من خامات ومواد أساسية ..

وكانت هذه وسيلة جيدة للغاية؛ لتحديد ما إذا كان المصنع يستعد بالفعل لصنع تلك المقاتلة النفاثة ، أم أن هذا لم يبدأ بعد ..

وتطوعت (ماجى) بجلب كل ورقة ، تبدو لها مهمة ، بوسيلة سرية للغاية ، إلا أن هذا الأمر لم يسفر عن أكثر من الحصول على طن من الأوراق عديمة الأهمية ، إذ إنه لم يكن من السهل أبداً خروج الأوراق والوثائق المهمة من المصنع ، وإن وجدت (ماجى) وسيلة للاطلاع عليها داخله ..

وهكذا كان من الضرورى أن يتم الانتقال إلى خطوة جديدة ..

وفى أول لقاء لهما ، اقترح (إميل) وسيلة للحصول على تلك الوثائق المهمة ، وكانت هذه الوسيلة عبارة عن آلة تصوير دقيقة ، ثبتها فى مقبض حقيبة يدها ، بعد أن لقتها وسيلة التقاط صور الوثائق فى الضوء العادى ..

ومع هذا التطور الجديد ، توقفت (ماجى) لتعلن موقفها ، وهى تقول فى حرص :

- لا بأس يا (إميل) .. إننى مستعدة لارتكاب أية حماقات ، وخوض أية مخاطر ممكنة ، ما دام هذا سيعاوننى على تحقيق رغبتى فى الاستقرار ، وإقامة عش سعيد جميل .

أدرك (إميل) ما ترمى إليه (ماجى) على الفور ، فأسرع يعرض عليها الزواج ، وعلم الرغم من سعادتها البالغة بعرضه ، إلا أنها أعلنت خشيتها من إتمام الزواج فى (إسرائيل) ، نظراً لمشكلات الإنجاب والجنسية ، التى تنشأ مع زواج الأجانب ، وطلبت منه تأجيل زواجهما ، حتى يتم عقده فى (باريس) ، فوافق على الفور ، وأعلنها أنه يكاد يطير فرحاً ، ولا يطيق صبراً لانتهاى المهمة ، حتى يمكنهما السفر إلى (باريس) ، وعقد قرانهما هناك ..

ومع فرحتها بالاتفاق ، انطلقت (ماجى) تنفذ عملها الجديد فى حماس منقطع النظير ، وراحت تلتقط صوراً ناجحة ، لكل ما يقع تحت يدها من أوراق ورسوم هندسية أو تخطيطية ، أو وثائق توحى بالأهمية أو الخطورة ..

والعجيب أن (ماجى) اندمجت فى عملها هذا بحماس بالغ ، حولها فى أشهر قليلة إلى عميلة محترفة ، لم يعد يشغلها أمر الزواج من (إميل) ، بقدر ما يشغلها النجاح ، وإثبات جدارتها ، والحصول على قدر كاف من المعلومات السرية والبالغة الخطورة ..

وبفضل هذا الحماس ، حصلت (مصر) على جواب السؤال ، الذى تم من أجله تجنيد (ماجى بشنس) ، ودفعها إلى عالم العمل السرى ..

لقد ثبت أن الإنتاج الإسرائيلى لم يكن يتجاوز صنع بعض النماذج البسيطة من طائرات (أرافا) ، وهى طراز متواضع من الطائرة (أطلس) ، لا يصلح إلا لنقل عدد محدود من الأشخاص ، لا يتجاوز العشرين ، أو طنين من البضائع على الأكثر ، وتجديد عدد من طائرات (كومودور) الأمريكية ، التى تم الاستغناء عنها ، بعد سنوات من العمل الشاق ..

وصحيح أنه كان هناك رجل يدعى (أولشى فيمر) ، ويحلم بصنع المقاتلة النفاثة ، إلا أن حلمه هذا كان يفتقر إلى التصميمات الرئيسية ، والتقارير الجادة ، ولم يتجاوز عملياً مرحلة الحلم بعد ..

وكان الحصول على هذه المعلومة وحدها ، يعنى أن عملية المقاتلة الإسرائيلىة ، قد نجحت نجاحاً تاماً ..

إلا أنها لم تكن نهاية المطاف ..

لقد اندمجت (ماجى) فى العمل أكثر وأكثر ، وتم تدريبها بواسطة خبير من خبراء المخابرات المصرية ، وظلت تزود (مصر) بأهم البيانات والقوائم والرسوم التفصيلية ، وخطط الإنتاج الخاصة بصناعة الطائرات فى (إسرائيل) ، طوال ثلاث سنوات كاملة ..

والعجيب أنها لم تتزوج (إميل) قط ..

ولم تعد تطالب بهذا ..

أما (إميل) نفسه ، فقد حصل على تصريح بالإقامة فى (تل أبيب) للمرة الثالثة ، وواصل عقد صفقاته التجارية هناك ، فى نفس الوقت الذى أنشأ فيه واحدة من أقوى وأنجح شبكات التجسس المصرية فى قلب (إسرائيل) ، لحساب المخابرات العامة المصرية ، التى لم تنس أبداً ذلك العميل ، الذى حقق كل هذه النجاحات بقلب مصرى ، وتحت علم (مصر) ..

العميل الفرنسى .

اللعبة اليونانية

انهمك (نيقولا جورج كويس) منسق الديكور اليونانى الجنسية، المصرى المولد، فى إعداد وتنسيق جناح (مصر) فى معرض (ميلانو) الدولى، عام 1959 م، وتحركت أصابعه الماهرة الخبيرة لتضع اللمسات الفنية الأخيرة على عمله، الذى بدأ أنيقًا مبهرًا، خلب لب العاملين معه وأثار حسد وغيره أصحاب الأجنحة الأخرى، وتراجع (نيقولا) ليلقى نظرة شاملة على عمله، وهو يبتسم فى ثقة وزهو، عندما سمع تصفيقًا حارًا أنيقًا يأتى من خلفه، مع صوت يقول بالإيطالية، رائع .. عمل رائع بحق ..

التفت (نيقولا) إلى صاحب الصوت، الذى بدا له إيطاليًا، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وهو يواصل فى حرارة:

- أنت موهوب بحق يا (نيقولا) ..

سأله (نيقولا) فى دهشة، وهو يتأمله فى حذر:

هل تعرفنى؟

مد الرجل يده يصافحه، قائلاً:

- بالطبع .. من ذا الذى يجهل أبرع منسق ديكور .. أنا (إميليو فرانثيسكو) .. مهندس ديكور، وأعلم أنك أيضًا منسق ديكور، فى شركة ملابس الأهرام .. أليس كذلك؟

أكمل حديثهما فى كافيتريا المعرض، وأخبره (إميليو) أنه يحتاج إلى من يمثله فى (القاهرة)، وحدد له موعدًا فى المساء التالى، ليلتقى بمدير الشركة، التى يعمل بها ..

وعاد (نيقولا) إلى عمله، وهو يبتسم فى سعادة، وانتظر بفارغ الصبر، حتى جاء اليوم التالى، وأسرع إلى محل حلوانى فى قلب (ميلانو)، حيث التقى مرة أخرى بـ (إميليو)، والذى اصطحب معه هذه المرة مديره المزعوم، وقدمه إليه باسم (أرمان جالوب)، وأكد له أنه معجب أيضًا بعمله، وتبادل الثلاثة أطراف الحديث، وألقى (أرمان) على (نيقولا) عدة أسئلة، حول (القاهرة)، وأحوالها، وعلاقته بها، ثم انتهى الحديث، وانتهى اللقاء، دون أن يحصل (نيقولا) على العمل، الذى وعده به (إميليو)، أو حتى يشير إليه (أرمان) ..

وطوال فترة المعرض ، كان (نيقولا) بالغ التوتر ، يبحث دون جدوى عن (إميليو) أو (أرمان) ، دون أن يجد لهما أثرًا ، أو يعثر على عنوان أحدهما ..

ثم اتصل به (إميليو) فجأة ، وقال :
أنت حسن الحظ يا صاح .. لقد استعلم (أرمان) عنك ، وعلم أنك بارع ونشيط ، ولك اتصالات واسعة ، وهو ينتظرك في (روما) لتوقيع عقد العمل .

قال (نيقولا) في حذر :
وماذا عن النفقات ؟

ضحك (إميليو) وقال :
- اطمئن .. سأرسل إليك عشرة آلاف ليرة إيطالية ، وستجد حجرة محجوزة باسمك في (روما) ، في فندق (ديانا) .. وهناك سيتصل بك (أرمان) .

وعندما انتهت المحادثة ، كان (نيقولا) يكاد يطير من فرط السعادة ، في حين كان (إميليو) يسأل (أرمان) ، الذي يجلس إلى جواره في مكتبه .

- ما رأيك ؟ .. أتظنه يفيدنا كثيرًا ؟

أوماً (أرمان) برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالتأكيد .. لقد درسوا أمره جيدًا في (تل أبيب) ..

هذا لأن (إميليو) و (أرمان) لم يكونا إيطاليين ، على الرغم من هينتهما ولغتهما .. كاتا في الواقع ضابطى مخابرات .. وإسرائيليين ..

انتهى المعرض ، وسافر (نيقولا) إلى (ميلانو) ، ووجد بالفعل حجرة محجوزة باسمه ، في فندق (ديانا) ، وأرسل إليه (إميليو) عشرة الآلاف ليرة الإيطالية قبيل سفره بالفعل ، ولكن .. لم يظهر (أرمان) أبدًا ..

لقد انتظر (نيقولا) عدة أيام ، دون أن يظهر (أرمان) أو يتصل ، ومبلغ عشرة الآلاف ليرة يتبخر وينكمش ، وأعصاب (نيقولا) تتوتر وتلتهب .

ثم حدث الاتصال ..

لم يكن الذى اتصل هو (أرمان) ، وإنما شخص آخر قدم نفسه باسم (سميث بيترز) ، وقال إنه صديق (أرمان) ، وأنه سيلتقى بـ (نيقولا) فى الصباح التالى ، فى قهوة قريبة من الفندق .

والتقى (نيقولا) ، مع (سميث) الذى بدا له أنيقاً ، قوياً ، يختلف عن (إميلييو) و (أرمان) ، بشاربه الأسيب ، ووجه العريض ، وتحدثا لمدة ساعة كاملة ، أكد (سميث) بعدها أنه سيلتقى به مرة ثانية ، لحسم الأمر ، وتوقيع العقد ..

وفى هذه المرة نفدت نقود (نيقولا) وهوى قلبه بين قدميه ، وانهارت أعصابه ، وهو يضرب أخماساً فى أسداس ، ويتساءل كيف يحصل على طعامه وشرابه ؟ ..

بل كيف يعود إلى (القاهرة) ؟ ..

وعندما تأزمت الأمور ، وبلغت حدها الأقصى ، ظهر (سميث) فجأة ، واتصل هاتفياً ، وقال إنه سيحضر لزيارة (نيقولا) فى حجرته بالفندق ..

وتنفس (نيقولا) الصعداء ، وانتظر حضور (سميث) فى لهفة ، ولم يكذب يلتقى به فى حجرته ، حتى هتف بكل العصبية الكامنة فى أعماقه :

- أين كنت يا رجل ؟ كاد القلق يقتلنى .

أزاحه (سميث) من أمامه فى غطرسة ، واتخذ لنفسه مقعداً بجوار فراش (نيقولا) ، وهو يرفع عينيه إلى هذا الأخير ، ويقول فى ببطء :

- نريدك أن تعمل معنا .

قال (نيقولا) فى حيرة .

- وأنا وافقت وانتظر توقيع العقد .

اعتدل (سميث) ، وتطلع إلى عيني (نيقولا) مباشرة ، وهو يقول :

- ولكنك لم تعلم من نحن .. إننا من (الموساد) .. المخابرات الإسرائيلية ..

شحب وجه (نيقولا) وردد الاسم فى زعر ، وهو يلقي جسده على طرف فراشه ، فى حين تابع (سميث) :

- دعنا نتعامل بواقعية يا رجل .. صحيح أنك مصرى المولد ، ولكنك لست مصرياً ولن تشعر بالانتماء إلى (مصر) أبداً .

غمغم (نيقولا) فى توتر بالغ :

- ليست هذه هى القضية ، ولكن ..

قاطعته (سميث) ، وهو يقول :

- ستحصل على مائة دولار شهرياً ، مقابل عدد من المعلومات العسكرية ، والسياسية ، والاقتصادية عن (مصر) وسنحيطك برعايتنا واهتمامنا ، على نحو يجعلك آمناً تماماً ، ومن المستحيل أن يكشف المصريون أمرك .

ولم يتردد (نيقولا) طويلاً هذه المرة ، أمام إغراء النقود ..
وهوى ..

وفي الأيام التالية ، بدأ خبراء (الموساد) عملية تدريب (نيقولا) على استخدام الحبر السرى ، وأعطوه زجاجة دواء للشعر ، تحوى فى واقع الأمر حبراً سرىً ودفتراً به أوراق خاصة لكتابة الرسائل السرية ، ومنحوه اسماً كودياً وهو (فلاش) ، كما حددوا له مهمته ، وهى جمع كل ما يمكنه من معلومات ، عن مواقع الطائرات المصرية ، والرادارات ، والوحدات العسكرية المهمة ، والحالة الاقتصادية ، والأزمات التموينية ، وعن كل ما يبلغه من معلومات سياسية أو أمنية ..

وفي نهاية فترة التدريب ، أعطاه (سميث) أربعين ألف ليرة إيطالية ، لسداد حساب الفندق ، وتغطية نفقات السفر ..

وعاد (نيقولا) إلى (القاهرة) ، التى ولد وعاش بها ، وهو يعد نفسه لخيانتها ، ونقل أسرار (مصر) كلها إلى (إسرائيل) ..

وبكل النشاط والحماس راح (نيقولا) يختلط بالمجتمعات ، والناس ، والجيران ، ويشترك بكل نشاط ممكن ، حتى يجمع أكبر قدر ممكن من الأسرار ، ويجوب كل المناطق العسكرية فى (مصر) ، وهو يشحن بصره وسمعه ، ويستخدم الحبر السرى من زجاجة دواء الشعر ، لينقل كل ما يحصل عليه إلى (سميث) فى (روما) ، ليقوم هذا الأخير بنقله مباشرة إلى (تل أبيب) ..

ثم انتقل (نيقولا) إلى المرحلة الثانية ..

ولقد بدأت هذه المرحلة أثناء حديثه مع صديقه اليونانى أيضاً (جورج ستماتييو) . الذى سأله فى لهفة :

- من الواضح أن أعمالك رائجة هذه الأيام يا (نيقولا) .. أليس كذلك ؟

رمقه (نيقولا) بنظرة جانبية ، قبل أن يسأله :

- لماذا تتصور هذا ؟

ازرد (جورج) لعبه ، وهو يجيب :

- كل شيء فىك يوحى بهذا .. إنك تنفق ببذخ ، وترتدى أفخر

الثياب ، وتقضى لياليك فى الفنادق الفاخرة ..

ابتسم (نيقولا) ، وقال :

- هل تحب أن تحيا مثلي ؟

- هتف (جورج) ، واللهفة تحفر ملامحها في وجهه بوضوح ،

وتمترج بصوته الأجلش :

- بالتأكيد .. من ذا الذي يرفض العيش هكذا ؟

- وهنا مال (نيقولا) نحوه وقال :

- حتى ولو كان يعمل لحساب (الموساد) .

بهت (جورج) لهذا الأسلوب المباشر وتراجع كالمصعوق ، ثم

لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال في حزم :

- نعم .. حتى ولو أعمل لحساب الشيطان نفسه .

ثم استدرك في قلق وإحباط :

- ولكن كيف يفيد (الموساد) مني ؟ .. إننى مجرد جارسون

في محلات (جروبي) .

أفهمه (نيقولا) أن عمله بالغ الأهمية ، لأن زبائن المحال

الكبيرة مثل (جروبي) يتحدثون دائماً في طلاقة ، ويسردون كل

ما لديهم ، دون أن ينتبه أحدهم إلى أن (الجارسون) يستمع ،

ويدخر المعلومات ، ويخزنها في عقله ، ثم ينقلها إلى الأعداء ..

ووافق (جورج) على العمل لحساب (الموساد) مقابل خمسين

جنيهاً مصرياً في الشهر الواحد ، وأرسل (نيقولا) يخبر (سميث)

بالأمر ..

ووافق (سميث) على تجنيد (جورج) ، بعد موافقة رؤسائه

في (تل أبيب) ، وطلب من الرجلين (نيقولا) و (جورج) العمل

بكثافة أكبر ، ونقل المزيد والمزيد من المعلومات ..

ونشطت اللعبة اليونانية ..

كان (نيقولا) في قمة نشاطه وثقته .. في ذلك الصباح ، الذي

انتهى فيه من إعداد وتنسيق واجهة المعرض الرئيس لشركة

(الأهرام) ، حيث يعمل ، وراح يلقي نكاته ودعاباته على من

حوله ، واستدعى عامل البوفيه ، وطلب منه إحضار الشاي

للجميع على حسابه . في نفس اللحظة التى وصل فيها شاب

طويل القامة ، ممشوق القوام ، يخفى عينيه بمنظار داكن ، لم

يلبث أن خلعه ، عندما دخل إلى المكان ، واتجه إلى (نيقولا)

مباشرة ، وهو يقول :

- أنت (نيقولا كويس) .. أليس كذلك ؟

تطلع إليه (نيقولا) بشيء من الزهو والتعالى ، وقد ظنه زبونًا جديدًا ، جاء يفاوضه من أجل تنسيق واجهة متجره ، أو إضافة لمسة جمالية على معرضه وقال :

- بلى .. أنا هو (نيقولا كويس) ، ولكن ينبغي أن تعلم أنني مشغول لشهر كامل ، و...

اختنقت الكلمات في صدره وغص بها حلقه ، وهو يحدق في تلك البطاقة الصغيرة ، التي أبرزها الشاب أمام عينيه ، الذي يقول في صرامة وحزم :

- هيا بنا .

ودون أن يضيف الشاب حرفًا آخر ، تراجع مفسحًا الطريق أمام (نيقولا) الذي غاب الزهو والغرور عن وجهه تمامًا ، وحل محلها شحوب رهيب ، جعل رفاقه يسألونه في جزع :

- ماذا حدث يا (نيقولا) ؟ .. من هذا الرجل ؟

ولم يجب (نيقولا) ..

وفي اللحظة نفسها ، في محل (جروبي) بوسط البلد ، اعترض

شاب آخر عريض المنكبين طريق الجارسون (جورج ستماتيوي) ،

وهو يقول :

- (جورج) .. سلم ما لديك من إيراد لصاحب المحل ، واتبني .

سأله (جورج) ، في ذعر :

- إلى أين ؟

أجابه الرجل في حزم مخيف :

- إلى حيث تنضم لزميلك (نيقولا كويس) ثم مال نحوه ،

مستطردًا :

- لقد ألقينا القبض عليه .

كاد (جورج) يسقط فاقد الوعي ، لولا وجود الرجلين اللذين

أحاطا به ، وكبلاً حركته في سرعة ، وبمهارة لم تلفت انتباه أي

من زبائن المحل لما يحدث ، فهتف بصوت مختنق ، تمتزج فيه

الكلمات بالدموع :

- سأعترف .. سأعترف بكل شيء ..

وفي حجرة واسعة ، من حجرات مبنى المخابرات ، في كوبري

القبّة ، سألت دموع (نيقولا) وهو يسأل ضابط المخابرات

الشاب ، الذي يجلس أمامه :

- منذ متى تعلمون ؟

انهارا ، ولكنهما اعترفا كتابيًا بكل ما نسب إليهما ، وذيلا
اعترافهما بتوقيعهما ، وعبارة (سميث بيترز) تدوى فى أذنى
(نيقولا) ..

- سنحيطك برعايتنا واهتمامنا ، على نحو يجعلك آمنًا تمامًا ،
ومن المستحيل أن يكشف المصريون أمرك ..

ظلت هذه العبارة تتردد فى أذنى (نيقولا) .. طوال الفترة التى
استغرقتها التحقيقات والتى تمت خلالها محاكمته مع (جورج)
أمام المحكمة العسكرية ، التى قَدِّم إليها رجال المخابرات المصرية
كل ما لديهم ، من شرائط ، وصور وتسجيلات ، تدين الرجلين .

بل قدموا زجاجة دواء الشعر ، ودفتر الأوراق ، اللذين كانا
مفاجأة حقيقية لمنسق الديكور ، الذى تصور على الرغم من
سقوطه أن أحدا لن ينتبه أبداً إلى أن زجاجة الدواء تحوى فى
الواقع حبراً سرياً .

وهنا ، وقبل أن يصدر حكم المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة
لكليهما ، أدرك (نيقولا) و(جورج) أن أمرهما قد انتهى وأنهما
قد خسرا الشوط الأخير من اللعبة ..

اللعبة اليونانية ..

هز الضابط الشاب كتفيه فى هدوء ، وأجاب :

- منذ البداية تقريبًا .

حذق (نيقولا) فى وجهه مشدوها ، وردد :

- منذ البداية؟ .. كيف؟

ابتسم الضابط الشاب ، وقال :

- إنها ليست أول عملية يقوم بها (إميليو) و(أرمان) ، ونحن
نراقبهما منذ زمن ، وعندما التقى بك الأول ، أثناء المعرض ، أثار
هذا قلقنا ، وجعلنا نراقبك باهتمام أكبر .

وتنهَّد قبل أن يستطرد :

- وصدقنى .. لقد حاولنا أكثر من مرة تحذيرك بطرق غير
مباشرة ، وإنقاذك من الفخ ، الذى يُعدُّه لك الإسرائيليون ، ولكن
شهوة المال غلبتكَ ، وأعمت عينيك عن الحقيقة ، ثم إنك لم تحترم
البلد ، الذى منحك المأوى والعمل ، والذى ولدت على أرضه .

ثم قست ملامحه ، وهو يضيف فى صرامة :

- لذا فأنت وصديقك تستحقان المصير الذى ينتظركما ..

وانهار (نيقولا) و(جورج) تمامًا .

ألماني تحت علم مصر

من المؤكد أن هذا الجاسوس بالذات لم يكن أبداً عادياً ، أو تقليدياً ..
لقد حقق نجاحات مدهشة ، أثارت حيرة وإعجاب كل من تعامل
معه ..

وفشل فشلاً ذريعاً ، أحنق حتى من يميلون إليه ، خالف كل
النظم ، وحقق انتصارات رائعة ..

وكسر كل القواعد ، وارتكب أخطاء قاتلة ..
ولكنه في النهاية أدى خدمات جليلة ، لا يمكن نسيانها أو إنكارها ،
لجهاز المخابرات العامة المصرية ولد (مصر) كلها ، في فترات
شديدة الحرج في تاريخها الحديث ..

إنه (مايكل سميث) الألماني المولد ، المصري الانتماء ..
وقصة (مايكل سميث) كلها عجيبة ، بدءاً من مولده في
(ألمانيا) ، عام 1921م ، فقد مات أبوه بعد أيام من ولادته ، ولم
تلبث أمه أن لحقت به بعد شهر واحد ، وتركاه يتيم الأبوين ، في
دولة عنصرية ، اندحرت في الحرب العالمية الأولى ، فانكشيت
على نفسها ، ولعقت جراحها ..

وتبنت (سميث) أسرة ألمانية ، تحمل اسم (مولر) وتبنت
معه طفلاً يهودياً ، يحمل اسم (إدوار) ..
ونشأ (سميث) في تلك الأسرة ، وهو يتعامل مع طفل
يهودي ، ويثير خلافات دائمة مع زملاء دراسته ومدرسيه ،
وحتى أبناء الجيران ، دون أن ينجح أبواه بالتبني في تقويمه ،
أو تخليصه من روح العنف في أعماقه ..

ثم التحق (سميث) بالجيش ، وأظهر شيئاً من العنف ، مع الكثير
من الجرأة والتفوق ، مما أهله للالتحاق بالفرقة الخاصة ، وحصل
على عدد من أرفع الأوسمة ، وأبلى بلاءً حسناً ، على الرغم من
انغماسه الشديد في حياة اللهو ، وإقباله المبالغ فيه على الحياة ..
وفجأة ، سقط (سميث) أسيراً في أيدي الأمريكيين خلال الحرب
العالمية الثانية وبدا وكأنه قد استسلم لمصيره ..

واستكان لحياة الأسر ، إلا أنه لم يلبث أن فاجأ الجميع بهروبه ،
واختفى دون أن يعثر له أحد على أثر ، حتى انهزمت (ألمانيا) ،
وانتهت الحرب أو كادت ، فأدرك (سميث) أن الأوسمة التي حصل
عليها من قبل ، ستكون هي نفسها المسامير الحادة ، التي تدق في
نعشه وقرر أن يجد لنفسه وسيلة للإفلات من المصير المحتوم ،
الذي ينتظر كل النازيين القدامى ..

وفي حركة جريئة ، اختطف (سميث) طبيباً ألمانياً هارباً ،
واقطعه إلى خندق صغير ، وناوله شفرة حلاقة قديمة ، وهو
يقول في صرامة :

- أريدك أن تجرى لي عملية سريعة .. عملية ختان .

كان الطبيب مضطرباً بشدة .
ولكنه لم يكن يملك سوى الإذعان ..

وبصلاية نادرة ، احتمل (سميث) تلك العملية ، دون مخدر
أو مطهر ، والطبيب يرتجف أمامه في هلع ، دون أن يدرك الهدف
من إجراء تلك العملية العجيبة ، في هذه الظروف المعقدة ..

ولكن (سميث) كان يعلم كل شيء ، ويدرك هدفه جيداً ..

ففي اليوم التالي ، كان (سميث) يتقمص شخصية يهودي هارب
من الاضطهاد ، ويهرع إلى أحد معسكرات اللاجئين في (ميونخ) ،
حيث انتحل اسم (ميخائيل زوسمان) ، وصنع لنفسه قصة مأساوية
مدروسة ، تقول : إن النازيين قد ذبحوا أباه وأمه بلا رحمة ،
وأنه هرب منهم بأعجوبة ..

ولافت القصة قبولا وتعاطفاً ، في أوساط اليهود ، الذين شجعوه
على المضي حتى النهاية ، فلم يلبث أن سجل اسمه في الوكالة
اليهودية ، مع رغبته في الهجرة إلى (إسرائيل) ..

وبسبب خلاف بين اليهود والبريطانيين ، اضطر (سميث) لقضاء
أربعة أعوام في (قبرص) ، قبل أن يصل إلى (إسرائيل) ..
ومع وصوله إلى هناك ، حقق (مايكل سميث) ، ما اعتبره
رجال المخابرات أشبه بالمعجزة ..

لقد دفن تاريخه القديم كله ، ومحاه من الوجود ، وراح ينشر
قصته الملفقة ، حتى مد جذوره في تربة المجتمع الجديد ، وتغلغل
فيه حتى النخاع ، بل واستقر إلى الحد الذي جعلهم يضمونه إلى
صفوف الجيش الإسرائيلي ، حيث أخفى خبراته السابقة ، وشق
طريقه بسرعة ، وحصل على رتبة (ملازم) ..

والعجيب أن (سميث) لم يشعر قط بالفارق ، بين المؤسسة
العسكرية النازية ، وقرينتها الإسرائيلية ، فكلاهما - على حد
قوله - كانت تقوم على نظرية واحدة ..

نظرية التوسع الاستعماري ..
وأنهى (سميث) فترة الخدمة العسكرية ، واختار مستعمرة
(أنانيم) موطناً له ، حيث عمل في الزراعة ، وصنع لنفسه عالماً
جديداً ..

وعاد إليه إقباله العنيف على الحياة ..

- ينبغي أن تبدل كل حياتك السابقة يا (سميث) .. لا خمر ،
ولا نساء ، ولا مقامرة ..

هتف (سميث) دون تردد :

- ومن ذا الذي يعود إليها بعد الآن ؟

وبدأ عمله على الفور ..

وتفوق فيه ..

لقد نجح في تزويد (مصر) بمعلومات بالغة الدقة والخطورة ،
وشديدة الأهمية والخصوصية ولكنه كان يستخدم من الأساليب أكثرها
جراً وخطورة ، ويقدم على بعض الأعمال في انتحارية مدهشة ،
ليحقق معها نتائج رائعة ..

ولكنه لم يف بوعده ..

لقد عاد إلى كل ما حذر منه رجل المخابرات المصري ، وارتبط
مرة ثانية بفتاة إسرائيلية وعاد يعاقر الخمر ويرتاد أماكن اللهو
والقمار ..

ولأن العبث بالقواعد لا يؤدي - في عالم المخابرات - إلى
النجاح ، فقد وقع (سميث) في خطأ فادح .

وذات ليلة ، وفي أحد الملهى الليلية ، التقطته عين (رفعت
الجمال) .. العميل المصري ، الذي زرعت المخابرات المصرية
في قلب (إسرائيل) تحت اسم (جاك بيتون) ، وبقي فيها قرابة
ربع القرن ، دون أن ينكشف أمره ..

ولا أحد يدري كيف أدرك (رفعت الجمال) ما يخفيه (مايكل
سميث) !!

ولا كيف كشف أمره ..
ولكن الطيور على أشكالها تقع ..

ولم يحاول (رفعت الجمال) تجنيد (مايكل سميث) ، أو حتى
مناقشته في الأمر ، أو التلويح إليه من بعيد ، فمهمته كانت
تقتصر - طبقاً لأوامر المخابرات العامة المصرية - على ترشيحه ،
ودفعه إلى السفر إلى (باريس) ، بطريقة تبدو عادية ، وغير
مثيرة للشبهات ، ثم ينسى الأمر برمته ، ويقطع كل علاقاته به
للأبد ..

وهنا بدأت مهمة المخابرات المصرية ..

وفي (باريس) ، عرف (مايكل سميث) أنه سيعمل لحساب
المخابرات المصرية ، وأبدى استعداده التام لهذا ، وحذرته رجل
المخابرات المصري ، الذي عمل على تجنيده ، قائلاً :

لقد أطلع فتاته على صورة له ، فى زى قوات الصاعقة الألمانية ،
وتباهى بأنه كان مقاتلاً ألمانياً وبسرعة غير متوقعة ، دفع
(سميث) الثمن ..

لقد أطبقت عليه الشرطة الإسرائيلية قبل بزوغ الشمس ، بعد أن
وشت به الفتاة ، وتعرض لاستجوابات قاسية عنيفة ، حاول خلالها
إقناع المسئولين بأنه اعتنق اليهودية عن اقتناع ، إلا أن أحداً لم
يصدق ، فتم طرده من (إسرائيل) ، وصودرت كل ممتلكاته ..

ولم تمض أيام معدودات ، حتى وجد (سميث) نفسه وحيداً
فى (جنوة) ، بلا نقود ، أو عمل ، أو جنسية ، فهرع إلى
القنصلية المصرية ، وبدا شديد الثقة ، وهو يقول :

- أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

سأله موظف الاستقبال بلهجة مهذبة :

- هل يوجد سبب محدد ؟

أجابته فى خيلاء وهو يتصور نفسه نجماً شهيراً ، فى سماء
(مصر) :

(نعم .. إنهم يعرفوننى أنا صديق قديم) ..

غاب الموظف طويلاً ، ثم عاد يعتذر فى أدب ، ويعلن (سميث)
أن أحداً لا يعرفه ، ولا يرغب فى مقابلته ..

وثار (سميث) ، وهاج وماج ، ولكنه اضطر فى النهاية إلى
الانصراف ..

ومع توتره الزائد ، شعر (سميث) بشخص يتبعه فى إلحاح ،
فاستدار يواجهه فى عنف ، ورفع قبضته ليضربه ، ولكن الرجل
احتفظ بهدوئه ، وهو يقول :

- أنا قادم من قبل أصدقائك المصريين ..

- المصريون؟! .. ولكنهم رفضوا استقبالى ..

ابتسم الرجل ، وقال :

- أبداً .. كل ما حدث هو أنك أخطأت الباب الذى تطرقه ..

ولم تمض ساعة واحدة ، حتى كان (سميث) يتناول وجبة
فاخرة ، ويدس جسده تحت أغطية فراش وثير ، وينام ملء
جفنيه ، ولكنه لم يكذب يستيقظ فى الصباح ، ويأخذ حماماً ساخناً ،
ويتناول وجبة شهية ، ويرتدى ثياباً جديدة نظيفة ، حتى وجد
أمامه رجل المخابرات المصرى ، الذى قام بتجنيدده ، وهو يرمقه
بنظرة صارمة ، قائلاً :

- ألم أحذرك من كل هذا ؟

وبعد فاصل طويل من التأييب والتقريع سلم رجل المخابرات
(سميث) جواز سفر باسمه الحقيقى ، وعشرة آلاف مارك ،

وطلب منه السفر إلى (فرانكفورت) ، وأخبره أنه سيحصل على عشرة آلاف مارك أخرى ، ولكن بعد عام كامل ..

وسافر (سميث) إلى (فرانكفورت) ، وعمل في متجر للثياب ، ولكنه أنفق عشرة الآلاف مارك في أربعة أشهر فحسب ، وحاول الحصول على سلفة من عشرة الآلاف الأخرى ، ولكن أحدًا لم يستجب لطلبه ، حتى أصابه السأم ، وكره العمل مع أخيه بالتبني (إدوار) ، صاحب متجر الثياب ..

وهنا كانت المفاجأة ..

لقد عاد إلى منزله يومًا ، ليجد ضيفًا مصريًا في حجرته ، استقبله في هدوء ، وطلب منه في حسم افتعال مشاجرة مع صاحب العمل ، ثم السفر إلى (روما) ، ومنها إلى (القاهرة) .. ولم يُصدق (سميث) نفسه ..

لقد طلب أكثر من مرة السفر إلى (القاهرة) ، ولكن أحدًا لم يستجب له ..

لذا فهو لم يتردد لحظة ..

لقد ترك العمل بالفعل ، وسافر إلى (روما) ، ومنها إلى (القاهرة) حيث عرف لأول مرة مزية صداقته للمصريين ، حيث أحسنوا استقباله ، ومنحوه شقة مريحة أنيقة في (مصر الجديدة) ، وراتبًا ضخماً ، وعدداً من العلاقات الجيدة ..

وفي (القاهرة) وتحت اسم (روبرت دونر) ، راح (سميث) يُعد ملفاً ضخماً ، يضم تقارير وخرائط المنشآت العسكرية الإسرائيلية ، ومعسكرات التدريب ، والمطارات ، والوسائل الدفاعية ، وغيرها ، كما اشتهر بتدريس نظم الحياة في (إسرائيل) لرجال المخابرات العامة ، المسئولين عن هذا الجانب ، وتعليم اللغة العبرية لرجال الصاعقة والكوماتدوز ..

وتحوّل (مايكل سميث) إلى شخصية أخرى .. لقد صار أنيقاً ، رصيناً ، وقوراً ، مرحاً ..

ولكن أعماقه لم تخضع لهذا التغيير طويلاً ..

اشتعل في أعماقه حب الحياة مرة أخرى ، فراح يتردد على أماكن اللهو والمرح ، وانغمس مرة أخرى في حياة لاهية ، أدت في النهاية إلى إصابته في حادث سير عنيف ، كاد يودي بحياته ، لولا أن أنقذوه في اللحظة الأخيرة ، وتم إسعافه بما يشبه المعجزة ..

وهنا تم إيقاف عمله في المخابرات ، وتلقى فاصلاً جديداً من التأنيب ، ونقل إلى عمل مكتبي بحت ، لم يحتمله طويلاً ، فاتجه ذات يوم إلى حجرة مدير المخابرات ، وقال :

- سيدي المدير .. أريد أن أتقدم باستقالتي ..

لقد أجريت له عدة عمليات جراحية ، لاستئصال بعض الأجزاء من شحمتي أذنيه ، وتم شد جفنيه إلى أعلى ، وتعديل عظمة أنفه ، وفكه ، حتى إن (سميث) نفسه شعر بالدهشة ، وهو يتطلع إلى وجهه في المرآة ، بعد أن اكتسب شكله الجديد ..

وهكذا سافر (سميث) إلى (مارسيليا) ، ومنها إلى (مدريد) ثم إلى (مارسيليا) مرة ثانية ، ومن هناك استقل الباخرة مباشرة إلى (حيفا) ، التي وصل إليها وهو يحمل جواز سفر باسم (دافيد روكمان) ..

وفور وصوله إلى هناك ، بدأ (سميث) مهمته مباشرة ، من فندق بجبل (الكرمل) فراح يلتقط الصور للميناء والتحصينات ، والدشم ، والسفن ..

والعجيب أنه كان يعمل في وضوح تام ، وبجراحة مذهلة ، فآلة التصوير تتدلى من كتفه طوال الوقت ، وابتسامته لا تفارق شفثيه ، وأفلامه يتم تسليمها إلى شركة سياحية في شارع (بيريز) في (تل أبيب) ، فترسلها الشركة مباشرة إلى فرعها في (باريس) ، ومن هناك إلى (القاهرة) ..

وكانت خبرته السابقة في (إسرائيل) ، تمنحه ثقة لا حد لها ، وتجعله يتحرك في هدوء وبساطة ، ويتصرف كأى مواطن إسرائيلي عادي ، ثم يقضى جزءاً من الليل في تحضير أخباره السرية بنفسه ..

نظر إليه المدير لحظة ، ثم أجابه :
- فليكن .. تقدّم بطلب رسمي ، مرفق بتقرير كالمعتاد ..

وعلى الرغم من دقة التقرير وأناقة أسلوبه ، إلا أنه لم ينته بطلب الاستقالة ، كما توقع مدير المخابرات ، وإنما بطلب آخر ، أكثر غرابة وإثارة للحيرة ..

لقد طلب (مايكل سميث) العودة إلى (إسرائيل) ..

ولما كانت القاعدة المتبعة ، في عالم المخابرات ، تنص على عدم استخدام الجاسوس ، الذي سبق كشف أمره ، في نفس المكان ، فقد اعترض بعض رجال المخابرات العامة على فكرة إعادة (سميث) إلى (إسرائيل) ، ولكنه أصر على تحدى القاعدة ..

واجتمعت لجنة من كبار خبراء المخابرات العامة لدراسة هذا المطلب العجيب ، وأصر بعض رجالها على أن الرجل معتوه ..

ولكن مدير المخابرات قال في حسم :

- ربما كانت غرابة الفكرة هي نفسها سر نجاحها ، فالإسرائيليون أيضاً لن يتصوروا أن يعود إليهم رجل كشفوا أمره من قبل ..

وهكذا تم اتخاذ قرار عودة (سميث) إلى (إسرائيل) ..

ولكن الأمر لم يتم بهذه البساطة ..

وراح سيل من المعلومات والصور يتدفق على المصريين ،
الذين شعروا بمزيج من الدهشة ..

وكان من الممكن أن يصبح (سميث) أشهر جاسوس في العالم ،
لو أنه واصل عمله على هذا النمط حتى النهاية ، واتقى المحاذير
نفسها ..

ولكنه - مع الأسف - لم يفعل ..

لقد عاد إلى نهمه العجيب للحياة .. وراح يعب الخمر عبًا ، ويرتاد
أماكن اللهو ، وهو يتصور أنه سيحطم قاعدة النجاح الفريدة في
عالم المخابرات ..

لا خمر .. لا نساء .. ولا قمار ..

ولم ينجح (مايكل سميث) في تحطيم القاعدة ، بل هي اكتسحته
في طريقها كالمعتاد ، عندما تجول مخمورًا حول واحد من معسكرات
الجيش الإسرائيلية ، وهو يحمل آلة التصوير ثم تشاجر مع جنود
الحراسة ، فتم إلقاء القبض عليه ، وتحميض الأقلام التي يحملها ..

وكانت الكارثة ..

لقد انكشف أمره على الفور ، وراح الإسرائيليون يستجوبونه
طوال عدة أسابيع ، ويخضعونه لوسائل تعذيب عنيفة وقاسية ..

وبكلمات مرتجفة توحى بالانهيار ، قصّ (سميث) على
الإسرائيليين قصة أنيقة ، تقول :

- إنه أحب فتاة مصرية في (مارسيليا) ، فورطته مع المخابرات
المصرية ..

وصدق الإسرائيليون قصته ، خاصة أن بصمات أصابعه التي
تم تغييرها أثناء عمليات التجميل لم تتوافق مع بصمات أصابع
(ميخائيل زوسمان) ، الجاسوس الذي كشف أمره سابقًا ..

وهكذا صدر الحكم على (سميث) بالسجن سبع سنوات ، سافر
بعدها إلى (فرنسا) ثم إلى (القاهرة) ومنها إلى (برلين) ،
حيث افتتح بمكافأة تقاعده شركة كبيرة هناك ..

وفي ملفات المخابرات ، بقيت شخصية (سميث) غامضة
محيرة ، يعجز الكثيرون عن تحديد موقعها ، بين عالمي النجاح
والفشل ، ولكنه ، وعلى الرغم من كل هذا ، كان يستحق الإشادة
به ، ونشر قصته على الجميع ، فيكفيه أن كان يعمل من أجل
(مصر) ..

وتحت علم (مصر) ..

المستحيل

انخفضت درجة الحرارة على نحو غير عادي ، فى العاصمة اليونانية (أثينا) ، فى تلك الفترة من شتاء عام 1968م ، وبدأت الشوارع خالية من المارة تقريباً ، مع اقتراب منتصف الليل ، إلا من عدد قليل من المارة ، الذين تحتم عليهم ظروف عملهم العودة إلى منازلهم ، فى تلك الساعة ..

ووسط هذا المناخ المزعج ، غادر شاب مصرى أحد الفنادق ، داخل معطف طرى سميك ، ارتفعت ياقته لتخفى نصف وجهه ، واشتركت مع تلك الكوفية الصوفية ، التى أحاط بها عنقه ، مع غطاء الرأس الأوروبى ، فى إخفاء النصف الآخر ، بحيث بات من المستحيل تقريباً تعرف الشاب ، الذى تجاهل سيارته الصغيرة ، المتوقفة أمام المنزل ، وسار فى خطوات واسعة سريعة ، متجاوزاً الشارع كله ، قبل أن ينحرف فى شارع جانبي ، ويقطعه بنفس الخطوات المتوترة حتى نهايته ، حيث تنتظره سيارة كبيرة ، فتح بابها فى عصبية ، وقفز داخلها ، وهو يغمغم :

- مساء الخير يا (إبراهيم) ، ألم تجد موعداً أفضل من هذا للقاء ؟
تجاهل (إبراهيم) ، مندوب المخابرات الإسرائيلية السؤال ، وهو يقول :

- وستعود غداً إلى (مصر) .. لقد تلقيت كل التدريبات اللازمة ، وتعرف المطلوب منك .. أليس كذلك ؟

ازدرد الشاب لعابه ، وهو يقول :

- بلى .. ولكن حكاية الحبر السرى هذه ..

قال (إبراهيم) فى برود :

- ماذا عنها ؟

تردد الشاب لحظة ، قبل أن يندفع قائلاً :

- قد يكشف المصريون أمرى بسبب رسائل الحبر السرى هذه ..

إنهم ليسوا أغبياء ..

ابتسم المندوب الإسرائيلى فى سخرية ، وهو يقول :

- لا تفكر حتى فى هذا .. اسمع يا (جمال) .. ربما كان المصريون

أذكىاء ، ولكن مهارتهم لن تبلغ أبداً نصف مهارتنا ، ثم إن الحبر

السرى الذى تحمله معك صناعة أمريكية ، ومادته ما تزال مجهولة

بالنسبة للمصريين ، ومن المستحيل أن يتنبهوا إليه ، أو يكشفوا

أمرك .. هل تفهم ؟ .. هذا مستحيل ..

واسترخى الجاسوس المصرى فى مقعده فى ارتياح ، وذهنه

لا يحمل سوى تلك الكلمة الأخيرة .. كلمة (المستحيل) ..

(جمال حسنين يوسف) .. شاب مصرى من مواليد (القاهرة) ، عاش فيها مع أسرته المكونة من والديه وثلاثة أشقاء ، وحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم التحق بمدرسة المساحة ، وتفوق فيها على نحو ملحوظ ، وأجاد لعبة كرة القدم ، ومارس العديد من النشاطات ، حتى صار عضواً فعالاً فى الاتحاد الاشتراكي العربى ، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ..

ثم تخرج (جمال) ، وحصل على وظيفة فى مصلحة المساحة ..
ومن هنا بدأت المشكلة ..

فطموح (جمال) كان أضخم من أن تحتويه وظيفة محدودة الدخل ، ومع استغراقه فى أحلام الثراء ، بغض (جمال) وظيفته واحتقرها ، وراح يسعى لتحسين وضعه بأية وسيلة ، حتى إنه صار يعتبر تجار الشنطة من النماذج الناجحة الثرية ، وتمنى لو استطاع السفر إلى (أوروبا) مثلهم ، والعودة بحقائب الثياب الفاخرة ، ورزم الدولارات ، ولم يطل به الوقت ، حتى قرر تحويل أحلامه إلى حقائق ، فتقدم إلى رئيسه فى مصلحة المساحة ، بطلب لمنحه إجازة بدون مرتب ، لمدة سنة أشهر ، للسفر إلى الخارج ..

وما إن حصل (جمال) على الإجازة ، حتى طار فرحاً ، وسافر إلى (بيروت) فى محاولة للعمل كتاجر شنطة ، وتحقيق الثراء المأمول ..

وعلى الرغم من أن حقائبه كانت تكتظ بمنتجات (خان الخليلي) ، التى بذل جهداً خرافياً لبيعها بأكبر ثمن ممكن ، إلا أن أحلام الثراء راحت تذوب وتتلاشى ، وتتحطم على صخور الواقع فى (بيروت) ، مع ارتفاع مستوى المعيشة ، والنفقات ، والليرات التى تنطير من بين أصابعه بأسرع مما يربحها ..

ولم يعد هناك مفر من العودة إلى (القاهرة) ، التى وصلها (جمال) محبطاً بائساً ، وقضى فيها عدة أشهر ، محاولاً هضم هزيمته الفادحة فى بلاد الشام ، إلا أن حلم الثراء لم يلبث أن استيقظ فى أعماقه ، وصوّرت له نفسه أنه أخطأ فى اختيار محطة الوصول ، وأنه كان من المفروض أن يسافر إلى (أوروبا) مباشرة ، وليس إلى (لبنان) ، فأسرع يقدم طلباً لمد الإجازة لعام آخر ، تمهيداً للسفر إلى (اليونان) ..

ولكن رئيسه رفض ..

وحاول (جمال) إقناع رئيسه ، أو استمالته ، أو حتى رشوته ، للموافقة على مد الإجازة ، إلا أنه فشل فى هذا تماماً ، فلم يجد أمامه سوى أن يتقدم باستقالته ، التى لم يكده قبولها يتم ، حتى كان هو على ظهر باخرة ، تنطلق به عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أرض أحلامه ..

إلى (اليونان) ..

وعندما رست به الباخرة فى ميناء (بيريه) ، اكتشف (جمال) أنه ليس الوحيد الذى يحمل حلم الثراء ، فقد غرق وسط خضم من الباحثين عن العمل ، من المصريين وغيرهم ، وبدا له من الواضح أن الأمور لن تسير ببساطة ويسر كما كان يتوقع ..

وفى فندق صغير بسيط متواضع ، قضى (جمال) ليلته مع زملائه الباحثين عن العمل ، ونقودهم تنكمش مع أحلامهم ، وتتقلص يوماً بعد يوم ، حتى إنه لم يعد يحلم بالثياب أو السيارات الفاخرة ، وإنما اقتصر أحلامه على الحصول على ما يقيم أوده ، وأخيراً حصل (جمال) على عمل ..

كان عملاً مرهقاً ، يضطره للاستيقاظ فى الخامسة صباحاً ، والعودة فى السابعة مساءً ، مقابل ما لا يزيد على سبعة جنيهات مصرية فى الأسبوع ..

وفى مرارة ، قال (جمال) لزملائه فى العمل ذات يوم :

- كل أحلامي تحطمت .. استقلت من وظيفتى ، وتركت عملى ، وأنفقت كل نقودى ، ولم أحقق شيئاً مما أتيت من أجله ..

سأله أحد العمال العرب فى حيرة :

- لماذا لا تعود إلى (مصر) إن؟! .. بلذك فيه من الخير الكثير!

جفف (جمال) دموعه ، وهو يقول :

- وماذا أقول لأسرتى وأصدقائى؟! .. هل أخبرهم أنني تركت كل هذا ، حتى أعود إليهم معدماً؟! .. إننى مستعد للقيام بأى عمل ، ولو لحساب الشيطان نفسه ، لو أن هذا يحقق لى الثراء الذى أحلم به ..

والتقطت العبارة أذن أحد العمال ، الذين يرتادون مثل هذه الأماكن لأغراض أخرى ..
إنه شخص من ذلك النوع ، الذى يطلق عليه اسم (صياد الجواسيس) ، والذى تقتصر مهمته على اختيار العناصر الصالحة للتجنيد ..

وبعد ساعات محدودة من هذا الحديث ، كانت العيون الإسرائيلية ترصد (جمال) ، وتلاحقه ، وتحصى حركاته وسكناته ، وتدرس موقفه ، ومدى صلاحيته للعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

وفى ليلة تالية ، التقى (جمال) بشاب فى مثل عمره تقريباً ، قدّم نفسه إليه باعتباره فلسطينياً ، جاء ليشاركه حجرته ، وتوفيراً للنفقات ، واسمه (سمعان) ..

ولم تمض أيام معدودة ، حتى ارتبط (جمال) بصديقه الجديد (سمعان) الذى سأله ذات يوم :

- ألم تحصل على وظيفة مناسبة بعد ؟

هزّ (جمال) رأسه في أسى ، وقال :

- هذا ليس سهلاً .. إننى أبذل قصارى جهدى ، ولكن ..

ابتسم (سمعان) ، ومال يربت على كتفه ، وهو يقول :

- اطمئن يا صديقى .. (سمعان) سيجد لك العمل المناسب .

لم يهتم (جمال) كثيراً بعبارة صديقه ، واعتبرها مجرد مجاملة

غير مسنولة ، ولكنه فوجئ به يستقبله بعد أيام قليلة هاتفاً :

- أبشر يا صديقى .. لقد حصلت لك على العمل ، الذى سيحقق لك

كل أحلامك ..

تهللت أسارير (جمال) ، ولم يصدق نفسه ، وحصل من

(سمعان) على عنوان المكتب ، الذى سيوفر له العمل المنشود ،

وانطلق إليه فى الصباح الباكر ..

وكانت المفاجأة ..

فذلك المكتب لم يكن مكتباً عادياً ، وإنما كان أحد مكاتب العمل

الإسرائيلية ، التى تحمل لافتتها وبكل وضوح ، رسماً بارزاً

لنجمة (داود) ، مع عبارات عبرية واضحة ..

وكان على (جمال) أن يتخذ قراره ، أمام هذا الموقف الواضح ..

كان بوسعها أن يتراجع عند هذه النقطة ، وأن يرفض دخول

المكتب الإسرائيلى ، كما ينبغى أن يفعل أى مواطن شريف ، فى

ذلك الحين ، ولكنه قرر أن يتخلى عن وطنيته بإرادته ، وهو

يدلف إلى المكان ..

وبابتسامة عذبة ، استقبلته موظفة إسرائيلية ، وسألته عما

يبتغيه ، فمال على أذنها ، وهمس متوتراً :

- جئت من طرف (سمعان) .

تراجعت الإسرائيلية الشقراء فى حركة حادة ، ثم أشارت إليه قللة :

- تفضل بالجلوس .. سأعود إليك بعد قليل .

غادرت له لدقائق معدودة ، بدت له أشبه بدهر كامل ، قبل أن تدعوه

إلى مكتب آخر ، استقبله فيه رجل هادئ ، سأله عن نوع العمل

الذى يريده ، وعندما أجابه (جمال) بأنه مستعد لأى عمل ، تأمله

الرجل طويلاً فى هدوء ، ثم مال نحوه بغتة ، قائلاً :

- سنمنحك أى عمل تريد ، مقابل شرط واحد .

سأله (جمال) فى حذر :

- وما هو هذا الشرط ؟

صمت الإسرائيلي لحظات ، ثم تراجع مرة أخرى في مقعده ، وشبك
أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يجيب :

- أن تبيع لنا جواز سفرك .
بُهِت (جمال) في البداية ، وأبدى خوفه من بيع جواز سفره ،
ولكن الإسرائيلي أقنعه بأنه يستطيع الإعلان عن فقد جوازه ،
بكل الطرق الرسمية ، ويحصل على وثيقة سفر ، وبعد قليل من
المحاورات ، سلم (جمال) جواز سفره ، وهو واثق تمامًا من
أنه مسئول إسرائيلي ..

وكانت هذه هي الخطوة الثانية من مستنقع السقوط ..
وبعد أن دوّن (جمال) في استمارة خاصة ، كل بياناته وبيانات
أسرته ، وأقاربه وأصدقائه ، ووظائفهم ، واتصالاتهم ، وحتى
أسماء النوادي التي يشتركون فيها ، أعطاه الإسرائيلي ما يوازي
ثلاثة جنيهات مصرية ، وطلب منه العودة إلى الفندق والانتظار ..
وفي الفندق ، التقى (جمال) بصديقه (سمعان) ، وروى له
ما حدث ، فابتسم الأخير في ارتياح وأدرك أنه ما دام (جمال) قد
وافق على بيع جواز سفره للإسرائيليين ، فلن تكون هناك مشكلة
في تجنيده للعمل لحسابهم ..

وهذا يعنى أن دور (سمعان) قد انتهى ..

وبالفعل ، وفى اليوم التالى مباشرة ، أعلن (سمعان) أنه
سيغادر (اليونان) فى مهمة خاصة ، ثم رحل ، ولم يره (جمال)
بعدها أبدًا ..

وطوال أسبوع كامل ، انتظر (جمال) رد الإسرائيلى فى لهفة
وتوتر ، حتى اتصل به شخص قدّم نفسه باسم (يوسف) وطلب
أن يلتقى به ..

وفى لقاتهما الأول ، ادعى (يوسف) أنه رجل دين أردنى ،
وأنه يعقد دراسة مقارنة بين الدين الإسلامى والدين اليهودى ،
ثم لم يلبث الحديث أن امتد بشكل بدا طبيعياً ، إلى مشكلة الشرق
الأوسط ، والصراع العربى الإسرائيلى ، وانتقل بقعة إلى مميزات العمل
مع المخابرات الإسرائيلىة ، وإلى وفرة النقود وسهولة التعاملات ..

ووسط حديثهما ، توقفت أمامهما سيارة فارهة ، تقودها شقراء
فاتنة ، هبطت تصافح (يوسف) فى حرارة ، وتسأله عن صديقه ،
فقدّم لها (يوسف) (جمال) المبهور ، وتركها تصافحه فى دلال
مدروس ، وعيناها تتطلعان إلى عينيه مباشرة ، فى جراءة لم يعدها
الشباب العربى قط .

وبابتسامة خبيثة ، ولهجة هادئة ، قال (يوسف) :

- هل تعجبك السيارة ؟

هتف (جمال) :

- ليس السيارة وحدها .

أطلقت الفتاة ضحكة عابثة واثقة ، فاستطرد مبهوراً :

- بل وصاحبها أيضا .

وكانت هذه هي الخطوة الحاسمة ، ليخوض (جمال) مستنقع

الخيانة ..

بل ، وليغوص فيه حتى أنفيه ..

ومع تعدد لقاءات (جمال) بالإسرائيلي (يوسف) وزميلته

(ليا) ، أدرك الإسرائيليون أنه لم تعد هناك مشاكل قط في تعامله

معهم ..

وهنا حان دور (إبراهيم) ..

كان (جمال) يرتبط بموعد مع (يوسف) ، ولكنه فوجئ

بالآخر (إبراهيم) أمامه ، يُخبره أنه صديق (يوسف) ، وأنه

يعرف عنه كل شيء ، منذ وصل من (مصر) وحتى هذه

اللحظة ..

ومع (إبراهيم) انكشفت الأوراق في وضوح ..

وعرف (جمال) أنه سيعمل مع المخابرات الإسرائيلية ، ولكنه

لم يتراجع هذه المرة على الرغم من الحوار الذي دار بينه وبين

(إبراهيم) ، الذي سأله لماذا تصر على العمل في (أوروبا) ؟

أجابته (جمال) في حماس :

- هذا يمكن أن يحقق لي كل طموحاتي .

ابتسم (إبراهيم) ، قائلاً :

وماذا لو أنك تستطيع تحقيق كل هذا في بلادك ؟

سأله (جمال) في دهشة :

- وكيف يمكن هذا ؟

شرح له (إبراهيم) طبيعة العمل المطلوب منه في (القاهرة) ،

ثم منحه مائتي دولار دفعة واحدة ، ونقله من الفندق المتواضع

إلى فندق آخر أنيق ، ثم اختار له شقة خاصة للتدريب ..

وبدأت مرحلة إعداد الجاسوس ..

لقد تدرّب (جمال) على الكتابة بالحبر السري ، وتمييز الأسلحة

المصرية ، ومعرفة أنواع الطائرات ، والدبابات ، والمدافع الثقيلة ،

والخفيفة ، ورسم الخرائط العسكرية ، وتحديد مواقع ثكنات الجيش

والمطارات ، ومعرفة المعلومات المطلوبة ، وكيفية إخفاء أدوات

التجسس .

ومع انتهاء فترة التدريب ، استعد (جمال) للعودة إلى (القاهرة) ،
وودعه (إبراهيم) في ميناء (بيريه) ، وأعطاه مائتي دولار أخرى ،
وأعاد على مسامعه تعليمات المخابرات الإسرائيلية ، وطالبه بالحرص
والحذر ..

ووصل (جمال) إلى (مصر) ، ولم يكد يستقر في (القاهرة) ،
حتى أرسل بطاقة سياحية إلى عنوان محدد في (روما) ، ليعلن
عن وصوله ، وأن كل شيء يسير على ما يرام ، ثم حمل آلة
التصوير ، وبدأ يخرج لجمع المعلومات ..

ومع الأسف ، لم تكن مهمة (جمال) شاقة أو عسيرة ،
فالناس تثرثر في كل مكان ، وتلقى ما لديها من معلومات على
مسامع الجميع ، مهما كانت خطورتها ، وبدأ الجاسوس يشعر
بالأمان والارتياح والاسترخاء ..

وفجأة ، وبينما كان يكتب واحدة من رسائله بالحبر السري ذات
صباح سمع دقات هائلة على باب شفته ، ففتح الباب ، بعد أن أخفى
زجاجة الحبر السري ، ووجد أمامه وجهًا مألوفًا لرجل بيتسم ، قائلاً :

- صباح الخير يا (جمال) .. هل أزعتك ؟

ولثوان ، حار (جمال) في تذكر صاحب الوجه ، ثم لم يلبث
أن هتف :

- آه .. صباح الخير .. أنت (حامد سليمان) .. أليس كذلك ؟ ..
لقد كنت تقيم في نفس الفندق ، الذي أقيم فيه في (أثينا) ..

هزَّ الرجل رأسه نفياً ، وهو يقول : ..

- معلوماتك صحيحة يا (جمال) ، ولكن اسمي ليس (حامد
سليمان) ؟ .. أنا (...) .. من المخابرات العامة المصرية ..

شحب وجه (جمال) ، وارتجفت أطرافه ، وعجزت قدماه عن
حملة ، فانهار فوق أقرب مقعد إليه وهو يردد :

- المخابرات العامة؟! ولكنك كنت .. كنت أحد العمال ، الذين ..

قاطعه رجل المخابرات المصري ، وهو يذلف إلى الشقة ، ومن
خلفه عدد من رجال المخابرات ، والنيابة وخبراء فحص الأدلة :

- إننا نراقبك منذ فترة طويلة يا (جمال) ولدينا كومة من
الصور لك في مكتب العمل الإسرائيلي ومع (يوسف) و(سمعان)
و(إبراهيم) و(ليا) .. إننا نعرف كل شيء يا (جمال) كل شيء ..

كاد الجاسوس يفقد الوعي وهو يقول متشبثاً بأخر أمل :

- ليس لديكم دليل واحد .. كل الصور يمكن تلفيقها .

ابتسم رجل المخابرات في هدوء والتقط زجاجة الحبر السري
التي تشبه زجاجة عطر شهير وقال وهو يلتقط الرسالة :

- هذا هو الحبر السري .. أليس كذلك ؟

هتف (جمال) :

- كلا .. إنها زجاجة عطر عادية .. مجرد زجاجة عطر ..

الهواية ..

« هناك جاسوس إسرائيلي بلغ الخطورة ، فى قلب (مصر) .. »

بهذه العبارة المثيرة ، بدأ واحد من أهم اجتماعات المخابرات العامة المصرية ، فى تلك الفترة من أواخر خمسينات القرن العشرين ..

وعلى الرغم من خطورة ما تحمله العبارة من معان ، ظل الرجال ، المجتمعون حول مائدة الاجتماعات الرئيسية ، محتفظين بهدوتهم وتماسكهم ، وعيونهم متعلقة بمديرهم ، الذى واصل حديثه ، قائلاً فى حزم:

- أحد جواسيسنا المزدوجين ، الذين يعملون لحسابنا ، ويوهمون العدو بأنهم من رجاله ، تلقى ثلاث حوالات بريدية بما مجموعه مائة جنيه مصرى ، على صندوق بريده مباشرة ، من قلب (القاهرة) ، والمعنى الوحيد لهذا ، هو أن الإسرائيليين قد أرسلوا أحد جواسيسهم إلى هنا؛ لمتابعة عمل جاسوسنا المزدوج ، وتمويله ، والإشراف على تطورات مزمنة قادمة .

ولأن جميع من حضروا الاجتماع ، كانوا من أفضل عناصر المخابرات المصرية ، ومن المتابعين لقضية ذلك الجاسوس المزدوج الشاب ، فقد انبرى بعضهم على الفور يطرح مجموعة

تجاهله رجل المخابرات تماماً وأشار إلى أحد الخبراء فتقدم من الرسالة ومسحها بسائل خاص ظهرت بعده الكتابة واضحة ، فاتسعت عينا (جمال) فى ذهول وارتياح وهو يهتف :

- ولكن هذا مستحيل! .. لقد أخبرونى أن هذا الحبر السرى صناعة أمريكية وأنكم تجهلون كل شىء عنه .

التقط رجل المخابرات المصرى الرسالة بسببأبته وإبهامه وهو يبتسم فى سخرية ويلقى نظرة عليها قائلاً :

- وهل صدقت ما أخبروك به ؟
وهنا لم يستطع (جمال) الاحتمال ..

لقد اتهار تماماً وطلب الإلقاء باعتراف تفصيلى كامل ودموع الندم تغرق وجهه ..

ولكن بعد فوات الأوان ..
الآن فقط شعر بعمق المستنقع الذى غرق فيه ولفظ أنفاس وطنيته فى أعماقه ..
والآن فقط أدرك أنه لن يستطيع أبداً خداع جهاز المخابرات المصرية ..

هذا هو المستحيل ..

من الأسئلة ، حول هوية ذلك الإسرائيلي ، والحجة التي دخل بها إلى البلاد ، والسمة التي يتخفى خلفها ، و ... ، و

وجاء الجواب حاسماً حازماً ، على لسان المدير:

- كل هذا مجرد أسئلة .. مطلوب منكم إيجاد الأجوبة لها .. وبأسرع وسيلة ممكنة ..

كان تكليفاً مباشراً بالقيام بمهمة ، قد تبدو للوهلة الأولى مستحيلة تماماً ، لولا نقطة واحدة ..

أن هؤلاء الرجال من طراز خاص جداً .. طراز لا يعرف المستحيل! ..

فقبل مرور ساعة واحدة ، على انتهاء الاجتماع ، كان الرجال قد انقسموا بالفعل إلى عدة فرق ، مهمتها ، وبكل اختصار ، أن تمشط (مصر) تمشيطاً ، للعثور على جاسوس ، لا توجد عنه أية معلومات واضحة محددة ..

وفي نشاط منقطع النظير ، وبأسلوب مدروس عبقرى ، قدر الفريق الأول أن ذلك الجاسوس قد دخل البلاد خلال الأشهر الستة الأخيرة على أقصى تقدير ، وأنها ليست المرة الأولى ، التي يصل فيها إلى (مصر) ؛ نظراً لما درسه خبراء المخابرات

المصرية ، من أساليب وطرق المخابرات الإسرائيلية ، التي تتميز بالخطر الشديد ، وتعتمد على توطين الجاسوس لفترات متقطعة ؛ لدراسة ردود الأفعال المصرية تجاهه ، وللتأكد من استيعابه لإمكانيات المغادرة ، أو الفرار بأقصى سرعة ، إذا ما دعت الحاجة إلى هذا ..

وبناءً على المعلوماتين ، تمت مراجعة كشوف أسماء كل الأجناب ، الذين تنطبق عليهم تلك الشروط ؛ لتقليل أعداد المشتبه فيهم ، وحصراً دائرة البحث في قائمة محدودة ..

في الوقت ذاته ، كان الفريق الثاني يضع الحوالات البريدية تحت البحث ، ويجرى كل التحريات الممكنة ، حول كيفية ووسيلة إرسالها ، وهوية مرسلها ، في سرية بالغة ، حتى لا ينتبه الجاسوس لما يحدث ، فيبادر بالفرار ، قبيل الإيقاع به ..

أما الفريق الثالث ، فقد استعان بالقائمة المصغرة ، التي وضعها الفريق الأول ، مع تقرير دقيق للخبراء ، حول أماكن السكن المثالية للجواسيس ، والتي تناسب احتياجاتهم لتلقى التعليمات ، عبر وسائل الاتصال اللاسلكي ، كما تتيح لهم إمكانيات كشف المراقبة في الوقت ذاته ، ومزج كل هذا بقاعدة ذهبية ، تؤكد أن الجواسيس نادراً إن لم يكن من المستحيل أن يميلوا إلى الإقامة في الفنادق العامة ، أو الأماكن التي تفرض نظاماً خاصة ،

وأن طبيعة عملهم تدفعهم إلى اختيار الأماكن الخاصة ، التي يمكنهم السيطرة عليها تماماً ، وإخفاء أدوات التجسس وأجهزته فيها ، دون أن يخشوا فضول أحد الخدم ، أو عمال النظافة ، أو أية احتمالات أخرى غير متوقعة ..

وهنا أصبحت دائرة البحث محدودة للغاية ، فالمطلوب شخص أجنبي الجنسية ، دخل البلاد أكثر من مرة ، ويقوم في إحدى الشقق المفروشة على الأرجح ..

ومن هذا المنطلق ، بدأت عملية البحث الدقيق عن الهدف ..

واقترنت الدائرة على خمسة أفراد فحسب ، تنطبق عليهم الشروط الثلاثة ، على نحو يجعلهم المشتبه فيهم الأكثر احتمالاً ..

وبدأت عملية مراقبة دقيقة للمشتبه فيهم الخمسة ..

دقيقة لدرجة أن التقارير الرسمية يمكن أن تحوى عدد خطواتهم ، وتردد أنفاسهم ، وكل لمحة لمحتها خلجاتهم ، طوال فترة المراقبة ..

ولأن الجاسوس المنشود هو محترف بكل المقاييس ، كان من العسير أن يقع في أى خطأ يكشف أمره ، حتى إنه كان من الممكن أن تشتعل الحيرة في نفوس الرجال طويلاً ..

لولا لمحة واحدة ..

هوائى بسيط ، معلق فى شرفة منزل مواجه للبحر ، فى مدينة (الإسكندرية) ..

وذلك الهوائى ، الذى ورد ذكره فى تقرير المراقبة ، الخاص بأحد المشتبه فيهم الخمسة ، توقف عنده رجال المخابرات ، وطلبوا التقاط بعض الصور الواضحة له ، وعرضها على خبراء الاتصال اللاسلكى بالجهاز ..

وجاء تقرير الخبراء بسرعة مذهشة ، ليحسم الأمر تماماً ..

ذلك الهوائى ، الموجود فى شرفة شقة الدور العلوى ، فى المنزل رقم (8) ، فى شارع الإبريسى فى (جليم) (الإسكندرية) ، تنطبق عليه شروط الهوائيات المستعملة ، فى استقبال وإرسال البث اللاسلكى ، وإن موقع الشقة ، المطل على البحر ، يرجح وجود جهاز اتصال لاسلكى داخلها ..

وهنا ، تحولت الجهود كلها نحو ذلك الهولندى ، المقيم بتلك الشقة ، والذى يدعى (مويس جود سوارد) ..

وبسرعة ونشاط ، يعجز العقل العادى عن استيعابهما ، بدأت عملية تطويق الجاسوس ، وسبر أغواره فى الوقت ذاته ، ففى نفس الفترة ، التى استأجر فيها بعضهم ذلك المحل الصغير ، عند ناصية الشارع ، ووضع فوقه لافتة متهاككة ، تشير إلى أنه

متخصص في إصلاح أجهزة الراديو القديمة ، ونقل إليه بعض الأدوات ، وأجهزة الراديو الضخمة ، التي تخفى أدوات الرصد والاعتراض اللاسلكي ، على مسافة أمتار قليلة من منزل الجاسوس ، كان رجال المخابرات المصرية يجمعون كل ما يمكنهم جمعه من معلومات ، عن (مويس سوارد) هذا ، من قلب وطنه نفسه .

والمدعش أنه خلال ثلاثة أيام فحسب ، وصل أحد عملاء المخابرات المصرية من (أمستردام) ، مع ملف كامل عن الجاسوس ..

اسمه (مويس جود سوارد) ، مولود في (أمستردام) ، في يوليو 1892م ، والذي عمل بالتجارة في (هولندا) ، من عام 1929م ، وحتى عام 1942م ..

وفي الفترة من 1942م ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ترك العمل بالتجارة؛ ليتفرغ للعمل السري ، ضد الاحتلال النازي ..

ومع انتهاء الحرب ، عاد (مويس) إلى مزاولة نشاطه التجاري ، وسافر عام 1952م ، إلى جنوب أفريقيا ، إلا أنه لم يستطع تحقيق أي نجاح يذكر ، فعاد إلى (هولندا) في أوائل عام 1955م ، وقد ساءت أحواله المادية ، مما أدى إلى مشكلات عنيفة ، بينه وبين زوجته ، ثم طلاقه منها فيما بعد ، مما ضاعف من سوء أحواله المادية ، ومن موقفه العام أيضاً ..

ولأنه صار لقمة سائغة مثالية ، فقد وجدت المخابرات الإسرائيلية سبيلها إليه ، فالتقى بأحد رجالها ، في منتصف عام 1957م ، داخل القنصلية الإسرائيلية نفسها ، وقبيل القيام بأعمال جاسوسية في (مصر) ، لصالح (إسرائيل) ، مقابل ثلاثمائة جنيه شهرياً ، بخلاف أجور السفر ، وكل المصاريف التي يتم إنفاقها ، أثناء المهمة ..

وفي (باريس) ، بدأت عملية تدريب (مويس سوارد) ، على استخدام أجهزة الاتصال اللاسلكي ، للإرسال والاستقبال ، وترجمة الشفرة ، وكتابة وإظهار الحبر السري ، وتصوير المستندات ، والتصوير بصفة عامة ، وطرق إخفاء الأفلام في أماكن سرية بالطرود ، وتمييز الأسلحة والمعدات الحربية بصفة عامة ، والبحرية بصفة خاصة ..

وفي نهاية نوفمبر 1957م ، جاء (مويس) إلى (مصر) ، مع أوامر بإجراء معاينة كاملة لمدينة (القاهرة) ، والحصول على سكن مناسب للاتصالات اللاسلكية ، مع ادعاء تنفيذ بعض العقود التجارية الهولندية في (مصر) ..

وفي (القاهرة) ، استغل (مويس) ما لديه من توكيلات تجارية ، للاتصال ببعض الشركات المصرية ، وأجرى بعض الاتصالات اللاسلكية ، ولكنه لم يتلق رداً عليها ، ووصلته بعض الخطابات بالحبر السري ، ولكنه فشل تمامًا في إظهارها ،

فوصله أمر بالعودة ، فى أواخر إبريل 1958م ، ليسافر مع كل معداته إلى (أمستردام) ، فى 28/4/1958م ..

ومرة أخرى ، راح (موسى) يتلقى تدريبات مكثفة ، لفشله فى الاتصالات ، فى المرة الأولى ، واستمرت عملية تدريبه ، حتى 15/7/1958م ، بعد أن اطمأن مدربوه إلى أنه قد أجاد عمله بالفعل هذه المرة ..

وفى هذه المرة ، عاد (موسى) إلى (القاهرة) ، مع كل معداته ، فى نهاية يوليو ، من العام نفسه ، ولكن لم يقض وقتاً طويلاً ، إذ وصلته إشارة لاسلكية ، جعلته يعود إلى (أمستردام) ، بكل معداته وأدواته السرية ، فى نهاية مارس 1959م ..

فى تلك الفترة ، كان ذلك العميل المزدوج الشاب ، الذى يعمل لحساب المخابرات المصرية ، قد بدأ - بإيعاز منها - يلح على تلقى تمويله ، وعلى سرعة وصول راتبه ، وعلى ضرورة زيادة مكافآته ، وأبدى غضباً وتبرماً ، خشيت معه المخابرات الإسرائيلية أن تفقده ، وأن تفقد معه سيل المعلومات الخطيرة ، التى يرسلها إليها بانتظام ، فما كان منها إلا أن أعادت (موسى) إلى (مصر) ، عن طريق البحر ، ليصل مع كل أدواته ومعداته السرية إلى (الإسكندرية) ، فى منتصف يوليو 1959م ..

وكان ما كان ..

وبعد كشف أمر الجاسوس ، بدأت عملية مراقبته بتركيز أكثر ، ودقة أشد ، مع حرص شديد على ألا يشعر بهذا أبداً ، ولو حتى عن طريق الشك أو الحذر ..

ومن الواضح أن الرجال ، الذين قاموا بالمهمة ، كانوا خبراء بحق ، فالجاسوس المحترف لم يشعر بمراقبتهم له لحظة واحدة ، حتى وهو يسافر إلى (القاهرة) ، ويقيم فى فندق (سميراميس) ، ثم يجرى اتصالاته بالجاسوس المزدوج ، من فندق (هيلتون) للتمويه ..

ومن خلال مراقبة (موسى) ، اعترضت المخابرات المصرية كل اتصالاته اللاسلكية ، وكل ما يستقبله من بث ، وحلله خبراءؤها ، وتوصلوا إلى طبيعة الشفرة المستخدمة ، بل وقرأوا كل ما أرسله إلى رؤسائه فى (تل أبيب) ، من الرسائل المكتوبة بالحبر السرى ، وكل ما وصله منهم بالوسيلة نفسها أيضاً ..

وكان (موسى) قد انتحل هوية عالم آثار بريطانى ، ووضع بعض التحف فى شفته للتمويه ، وكان شديد الحذر ، بحيث لا يفتح باب الشقة ، إلا إذا تأكد من هوية القادم أولاً ، وذلك حسب تعليمات المخابرات الإسرائيلية ، حتى يمكنه تدمير بعض الوثائق التى تدينه ، أو التخلص من جهاز الاتصال اللاسلكى ، لو حاصره رجال الأمن بوسيلة ما ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد تم اتخاذ قرار ، فى التاسع من نوفمبر 1959م ، بإنهاء العملية ، وإلقاء القبض على (مويس جود سوارد) ، نظراً لقرب انتهاء تأشيرته السياحية ، وخشية أن يغادر البلاد فجأة ، فتفشل مع رحيله العملية كلها ..

وفى الساعة الثانية إلا عشر دقائق ظهراً ، تم استخدام أحد معارف (مويس) لطرق الباب ، وما إن تأكد من هوية الطارق ، وفتح باب الشقة ، حتى انقض عليه رجال المخابرات المصرية كالأسود ، وسيطروا عليه فى لحظات ، وكبلوا حركته ، حتى لا يمكنه لمس أى أداة من أدواته ..

وبدأت عملية تفتيش دقيقة للغاية ، أسفرت عن ضبط كل أدوات التجسس ، فى شقة (مويس) ... جهاز الاتصال اللاسلكى ، وزجاجات الحبر السرى ومظهره ، وأدوات التصوير ، والأفلام البحرية التى التقطها ، وكذلك آخر رسالة وصلته بالحبر السرى ، من قلب (تل أبيب) ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد ثار (مويس) ، وهاج ، وماج ، وطالب بإبلاغ السفير الهولندى ، وأنكر كل صلته بما عثر عليه رجال المخابرات ، فى وجود النيابة العامة ، وأكد أنه يخص الساكن السابق للشقة ، وأنه لم يدرك ماهيته ، عندما استأجرها للسكنى ، و ... و ...

وفى هدوء ، ودون أن يلتفت إلى ثورته الزائفة ، اتجه ضابط المخابرات إلى منضدة قريبة ، تراصت فوقها مجموعة من الكتب ، والتقط من بينها كتاباً بعينه ، وهو رواية (ذهب مع الريح) ، والتفت إلى (مويس سوارد) ، قائلاً بابتسامة ذات مغزى:

- قل لى يا سيد (مويس): هل تعتقد أننا يمكن أن نجد فى هذه الرواية ما يفيدنا!؟

ولم ينبس (مويس جود سوارد) بحرف واحد ، ولكن ملامحه حملت كل الإحباط واليأس والانهيار؛ فالرواية التى التقطها رجل المخابرات ، والتى انتقاها بالذات ، من بين كل الروايات الأخرى ، كانت كتاب الشفرة ، المستخدم فى بث واستقبال الاتصالات اللاسلكية ..

وكان هذا يعنى أن الرجال يعرفون ، ويدركون ، وليست لديهم ذرة من الشك ، يمكن استغلالها لتمنيع الموقف ، بأى حال من الأحوال ..

وفى استسلام تام ، طلب (مويس) بعض الأوراق وقلمًا ، وجلس يكتب اعترافاً تفصيلياً بكل ما حدث ، منذ لقائه الأول برجال المخابرات الإسرائيلية ، وحتى لحظة سقوطه ..

بل واعترف بالاصطلاحات الخاصة ، التى ينبغى أن يستخدمها فى رسائله واتصالاته ، فى حال إلقاء القبض عليه ، واضطراره للعمل تحت سيطرة الدولة التى ذهب ليتجسس عليها ..

وهنا ، تم اتخاذ قرار حاسم ، باستمرار العملية تحت سيطرة
المخابرات المصرية ، وإجبار (مويس) على مواصلة اتصالاته
مع الإسرائيليين؛ كوسيلة لكشف أى عملاء جدد ، قد يُطلب من
الجاسوس الاتصال بهم أو تمويلهم ، والتعرف على احتياجات
وأهداف المخابرات الإسرائيلية ، فى المرحلة التالية ..

وبناءً على هذا ، تم نقل (مويس) ، من (الإسكندرية) إلى
(القاهرة) ، وهناك بدأ أول اتصالاته المحاصرة مع العدو ، ليبرر
انقطاعه عن التراسل ، خلال اليومين السابقين ، متعللاً بإصابته
فى حادث سيارة خفيف ، وبخضوعه للعلاج فى مستشفى
(المواساة) لبعض الوقت ..

ولقد ابتلع الإسرائيليون الطعام ، وأرسلوا يتمنون له الشفاء
والصحة ..

واستمرت اتصالات (مويس) مع المخابرات الإسرائيلية ، حتى
يوم 26 فبراير 1960م ، وكان يتلقى بعض الأوامر ، لجمع بعض
المعلومات العسكرية ، حيث راح أحد ضباط المخابرات المصرية
يتعامل معهم ، متظاهراً بتنفيذ أوامرهم ، ومنفذاً بعض تعليماتهم ،
بنفس الأسلوب والإمكانيات ، التى ساعدت على خداع الإسرائيليين
تماماً ، فلم يكشفوا سيطرة المخابرات المصرية على الموقف لحظة
واحدة ، بدليل أنهم واصلوا كشف عملاتهم فى (القاهرة) ، من
خلال تعليماتهم لجاسوسهم (مويس) ..

ورويداً رويداً ، حصلت المخابرات المصرية على قائمة بأسماء
مجموعة من أخطر جواسيس العدو الإسرائيلى فى (مصر) ..

كان معظمهم من الأجانب المقيمين ، والعاملين فى (مصر) ،
مع قلة من المصريين ، الذين أغواهم الشيطان ، ففسدوا ما
أرضعتهم به أمهاتهم من ماء نيل (مصر) ، وسعوا بكل الطمع
والجشع والشر لخياتتها ، وبيع أمنها وأمانها للعدو ، مقابل حفنة
من النقود ..

وانطلق رجال المخابرات خلف أهدافهم ..

وتساقط الجواسيس كالذباب ..

شبكة هائلة من جواسيس العدو ، تساقطت فى قبضة المخابرات
المصرية ، فى وقت واحد تقريباً ، وهو نفس الوقت الذى استقبل
فيه رجال المخابرات الإسرائيلية رسالتهم الأخيرة ، من جاسوسهم
الهولندى (مويس جود سوارد) ..

« تعاونكم معنا ، خلال الفترة السابقة ، كان مثمراً بحق ،
ومنحنا أكثر بكثير مما كنا نحلم به... مع شكرنا وتحياتنا ..
المخابرات المصرية .. »

انتحار جاسوس

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحاً بعد ،
عندما غادر طبيب مكتب صحة (مصر الجديدة) منزله ، في طريقه
إلى مقر عمله ، في ذلك الصباح ، من صيف عام 1962م ، ولقد
بدأ له ذلك الصباح عادياً ، لا يختلف كثيراً عن أيام عمله الرتيبة ،
وعلى الرغم من هذا ، فقد قطع الطريق في نشاط جم ، ووقف
ينتظر الأتوبيس ، الذي اعتاد أن يستقله يومياً ، و ...

« سيادتكم الدكتور (محمد) طبيب مكتب الصحة؟! ...! »

أدهشه السؤال ، الذي ألقاه شخص ما بلهجة هادئة مهذبة
للغاية ، والتفت يتطلع لحظة إلى ذلك الشخص ، الذي لم يلتق به
في حياته من قبل ، ثم أجاب في شيء من الحذر :

- نعم .. أنا هو .. أية خدمة ؟

جذبت اللهجة الهادئة المهذبة انتباهه مرة أخرى ، والرجل
يُجيب : لدينا حالة وفاة ، نحتاج إلى شهادة طبية وتصريح دفن .

تضاعفت دهشة الدكتور (محمد) ، وهو يقول : لا بأس .. هذا
جزء من عملي ، ولكن استخراج شهادة الوفاة وتصريح الدفن ،
يحتاج إلى فحص الجثة أولاً ، وإلى الأوراق الرسمية اللازمة ،
وختم النسر ، و ...

وجن جنون الإسرائيليين ، واتهار رئيس مخابراتهم ، وتم
استدعاؤه للمساءلة ، أمام مجلس الوزراء الإسرائيلي ، حيث
اضطر لتقديم استقالته ، والخروج من الخدمة مكللاً بالعار ، في
نفس الوقت الذي كان رجال المخابرات المصرية يتلقون فيه
خالص التهنية ، على نجاحهم المدهش ، في هذه العملية المتقنة ،
التي ألفت الإسرائيليين وجواسيسهم في أعماق الهاوية ..

هاوية الهزيمة ..

والعار .

قاطعته الرجل بلهجته المهذبة ، التي لم تخل من الحزم هذه المرة ، وهو يقوده إلى سيارة بسيطة ، تقف بالقرب من محطة الأتوبيس ، قائلاً :

- لا تقلق .. لقد أحضرنا كل شيء .. تفضل ..

لم يدر الدكتور (محمد) لِمَ لَمْ يعترض ، على الرغم من دهشته الشديدة ، وهو يركب السيارة ، إلى جوار الرجل ، ثم وهو يجد أدواته الطبية ، وأوراقه ، وحتى كاتب مكتب الصحة ، الذي يحتفظ بختم النسر داخلها ، وحتى وهي تتطرق بالجميع إلى جهة يجهلها !!..

لقد لاذ بالصمت بضع دقائق ، وقد امتلأت نفسه بالرغبة ، ثم لم يلبث أن اندفع ، قائلاً في شيء من الحدة ، وبلهجة عصبية واضحة :

- سأدوّن في الشهادة سبب الوفاة الحقيقي .

كان يتوقع رد فعل عنيف ، أو نظرات صارمة ولهجة جافة قاسية ، لذا فقد أدهشه أن أجابه الرجل في سرعة وحسم ، وبنفس اللهجة المهذبة :

- بالطبع يا دكتور (محمد) .. اكتب ما يرضى ضميرك .. ليس لدينا ما نخفيه .. ثم إننا نريد الأمر رسمياً وسليماً تماماً ..

تراجع الدكتور (محمد) ، في مقعده ، وقد تضاعفت دهشته ، وراح يتساءل في حيرة عما يعنيه كل هذا الغموض ، ما دام المطلوب منه هو استخراج شهادة طبية عادية !..

ولم تطل دهشة الطبيب وحيرته ، فما هي إلا دقائق معدودة ، ووصل الجميع إلى فيلا صغيرة من طابقين ، استقبلهم عندها رجل أمن ، وقادهم إلى الطابق الثاني ، حيث حجرة نوم أنيقة ، رقد على فراشها رجل عادي الملامح ، أشار إليه الرجل الذي اصطحبه ، قائلاً :

- مستر (ريتشارد كليفورد) موظف إنجليزي ، مات أثناء نومه ، ونريدك أن تفحصه جيداً ، قبل أن نستخرج شهادة الوفاة .

ثم تنهّد ، مستطرداً : لا نريد مشكلات مع عائلته أو سفارته .

خيلٌ للدكتور (محمد) عندئذ ، أنه قد فهم الأمر كله ، فنفض عن نفسه دهشته وحيرته ، وارتدى طبيعته الطبيعية ، وراح يفحص الرجل بمنتهى الدقة والاهتمام ، قبل أن يقول في حسم :

- إنها نوبة قلبية عادية .. إنه لم يتألم بالتأكيد .

سأله الرجل في اهتمام :

- ألم تجد ما يستوجب استدعاء طبيب شرعي ؟

هزّ الدكتور (محمد) رأسه نفيًا في حزم ، وهو يوقع شهادة الوفاة ، قائلاً :

.. مطلقًا .. الوفاة طبيعية تمامًا .. البقاء لله .

كان يشعر بالارتياح والاطمئنان ، وهو يُسلم شهادة الوفاة للرجل المهذب ، دون أن يدرك أنها لم تكن أول شهادة وفاة لذلك الراقد على الفراش ..

ولم يتصوّر أن خبر الوفاة الأولى له قد ملأ الصفحات الأولى لكل الصحف في حينه ..

هذا لأن مستر (كليفورد) هذا كان في الواقع جاسوسًا ..

أخطر جاسوس إسرائيلي في عصره...

كانت البداية في عام 1954م ، عندما كان جهاز المخابرات العامة المصري في طور التكوين ، وكانت هناك مجموعة من الضباط ، المشهود لهم بالحنكة والكفاءة ، يصلون الليل بالنهار ، في محاولة لإنشاء جهاز مخابرات قوى ، يمكنه منافسة أجهزة المخابرات القائمة بالفعل ، في تلك الفترة ، مثل جهاز المخابرات المركزية الأمريكية ، والمخابرات السوفيتية ، والمكتب السادس البريطاني والموساد ، وغيرها ..

وفي نفس الوقت ، الذي انهمك فيه هؤلاء الضباط في عملهم ، كانت المخابرات الإسرائيلية ترسل عددًا من خيرة رجالها إلى (مصر) ، لتكوين وإدارة شبكة تخريبية من اليهود المصريين ، مهمتها الرئيسية هي تخريب عدد من المؤسسات الأمريكية ، في (القاهرة والإسكندرية) ، وكل ما يمكنهم الوصول إليه ، من منشآت القاعدة البريطانية العسكرية ، في (قناة السويس) ! وذلك لتدمير العلاقات المصرية الإنجلو أمريكية ، والتشكيك في قدرة النظام الجديد على حماية أمنه الداخلي ..

ولقد تكوّنت هذه الشبكة بالفعل ، تحت اسم (الوحدة 136) ، وانقسمت إلى قسمين ، أحدهما في (القاهرة) ، بقيادة الطبيب اليهودي (موسى مرزوق) ، والثاني في (الإسكندرية) ، بقيادة اليهودي (فيكتور ليفي) ، والقسمان تحت إشراف ضابط مخابرات إسرائيلي يحمل اسم (إبراهيم دار) ..

أما أداة الاتصال بين القسمين ، فكانت يهودية حسناء ، اتخذت لنفسها اسم (مارسيل) ، في حين كان اسمها الحقيقي هو (فيكتورين نينو) ..

والعجيب أن المخابرات الإسرائيلية قد ارتكبت خطأ فادحًا ، في هذا الأمر ، فاليهودية الحسنة كانت على الرغم من قلة خبرتها ، تعرف جميع أعضاء الشبكة ، وحتى رئيسها ومقره ..

والأكثر خطورة ، أنها كانت تعرف أيضاً ضابط المخابرات الإسرائيلي (م . ب) ، الذي وصل إلى (مصر) ، عندما اكتمل التنظيم ، واستعد لبدء نشاطه ، ليشرّف على الشبكة بأكملها ، ويقودها بخبرته وبراعته ..

ولقد وصل (م . ب) إلى (مصر) متخفياً تحت شخصية وكيل شركة بريطانية للأطراف الصناعية ، وكان خبيراً محكماً بحق ، ولقد ولد لأب يهودى وأم مسيحية ، فى (كولونا) بألمانيا الغربية ، وهاجر مع أسرته إلى (فلسطين) ، ثم انضم إلى عصابة (الهاجاناة) ، على الرغم من عمله مهندس كهرباء ، ثم لم يلبث الحماس أن جرفه ، فتحوّل من مهندس إلى طيار مقاتل ، بعد حرب عام 1948م ، واستمر فى عمله الجديد هذا ، حتى حصل على رتبة رائد ، ثم انتقل إلى خدمة المخابرات الإسرائيلية ..

ولقد سطع نجم (م . ب) فى هذا المجال ، وأثبت موهبة وتفوقاً ، جذبا إليه الانتباه والاهتمام ، حتى إن البعض أكد أنه كان أهم شخصية فى المخابرات الإسرائيلية ، وأفضلها حتى الآن ..

وبسبب تفوقه هذا ، وملامحه التى تجمع بين الغرب والشرق ، تم إرسال (م . ب) عام 1951م إلى (ألمانيا) ، حيث عمل هناك لبعض الوقت ، ثم انتقل منها إلى (العراق) ، وكيلاً لشركة بترول أجنبية ، ومنها إلى (مصر) ، ليتسلم قيادة الشبكة ..

وتحت قيادته ، بدأت الشبكة التخريبية عملها ، وتفجرت عدة قنابل بدائية الصنع فى أماكن متفرقة ، من (القاهرة) و (الإسكندرية) ، لكن أحد عملاء الشبكة أخطأ حساب توقيته ذات مرة ، فاشتعلت القنبلة فى جيبه ، أمام سينما (ريو) فى (الإسكندرية) ، فأسرع إليه بعض جنود الشرطة ، فى محاولة لإطفاء النيران ، ولكن العميل تصور أن أمره قد انكشف ، فتهار ، واعترف بالعملية كلها ..

وبسرعة مدهشة ، وبراعة تستحق التقدير والإعجاب ، حاصرت المخابرات المصرية الموقف كله ، وأثبتت أن التكوين الجديد نشأ وولد عملاقاً ، على نحو لم يتوقعه الخصوم قط أو يتصورونه ..

ففى خلال ساعتين فحسب ، من هذه الواقعة ، كان ستون من رجال المخابرات ، وكلهم أو معظمهم حديث العهد بالخدمة ، يباغتون كل أعضاء الشبكة بزيارات مفاجئة ، ويصطحبونهم إلى الأماكن المعدة لاستقبالهم ، دون إعداد أو تخطيط مسبق ، فى (القاهرة) و (الإسكندرية) معاً ، ودون أن يشعر المحيطون بهم قط بما يحدث ..

ولم تكذ (فيكتورين نينو) تجد نفسها فى قبضة رجال المخابرات ، حتى أشعلت سيجارتها فى توتر شديد ، وهى تقول :

- ماذا تريدون منى؟! .. سأخبركم بكل شيء ..

وفي طلاقة مدهشة ، وبعد أن امتلأت المنفضة أمامها بأعقاب
السجائر ، على نحو شف عن كل ما تعانيه ، كانت (فيكتورين)
قد أدلت بكل ما لديها بالفعل ، واعترفت دون موارد بأن (م . ب)
هو الرئيس الفعلى المراقب للشبكة ، ثم ألقَتْ قنبلتها الكبرى
مستطردة :

- وهو واحد من كبار الضباط ، فى المخابرات العسكرية
الإسرائيلية ..

ومع هذه المعلومة البالغة الخطورة ، انطلق جهاز المخابرات
المصرية للعمل بكل سرعته وقوته ..

وخلال ساعة واحدة ، كان (م . ب) قد وقع فى قبضة المصريين ..

ومن المؤكد أن المفاجأة كانت صاعقة ، بالنسبة لرجل المخابرات
المحنك (م . ب) ، فهو لم يتصور أبداً أن يكون المصريون بهذه
البراعة ، ولا أن يتحركوا بهذه السرعة والحنكة ، ولقد أعرب
عن هذا فى وضوح ، وهو يجلس فى أحد المباني التابعة لجهاز
المخابرات ، وأضاف فى هدوء مدهش :

- أعتقد أنكم تنتظرون الكثير منى .

تراجع ضابط المخابرات المصرى ، المسئول عن استجوابه ،
فى مقعده بهدوء مماثل ، وهو يقول :

- ماذا كنتم ستفعلون ، لو تبدلت الأدوار ؟

ابتسم (م . ب) فى شىء من المرارة ، وهو يجيب :

- كنا سنبتز أطراف ضابطكم ، لو اقتضى الأمر ، لنعتصر
ما لديه من معلومات ، فكلانا يعلم أن ضابط مخابرات محترف ،
يحمل فى أعماقه طناً من الأسرار ، القدرة على تغيير خريطة
حربنا السرية تماماً ..

سأله الضابط المصرى بنفس الهدوء :

- وما الذى ستضطرنا إليه ، لنحصل على كل ما لديك ؟

تنهَّد (م . ب) فى عمق ، قبل أن يجيب :

- إننا محترقان ، وكلانا يعلم أن هناك ألف وسيلة ووسيلة ،
للحصول على المعلومات من قلب الحجر ، فلماذا نضيع الوقت؟! ..

دعنا نتعاون دون خسائر للطرفين .

كان عرضاً لا يمكن إهماله ، أو التظاهر حتى باللامبالاة إزاءه ، لذا
فقد اعتدل الضابط المصرى فى اهتمام ، وهو يجيب :

- هذا أفضل بالتأكيد .. كلنى آذان مصغية لك يا رجل ..

ولا أحد يدري لماذا قرر (م . ب) الاستسلام بهذه السرعة .

- بل سيعمدون إلى هذا ، لمجرد وجود أحد كبار ضباطهم في قبضتنا .. هذا نفس ما سنفعله نحن ، في ظروف مماثلة .

قال الضابط المسئول في حماس :

- وعلى الرغم من هذا ، فلا يمكننا التفريط في هذا الكم الهائل من المعلومات ، الذي يمكننا الحصول عليه من ضابط مخابرات إسرائيلي مثله .

أشار رئيس الجهاز بيده ، قائلاً :

- المعلومات تصبح عديمة القيمة ، عندما يعرف خصمك أنك قد حصلت عليها .

قال الضابط المسئول :

- لهذا لا ينبغي أن يدرك الإسرائيليون ، أننا قد حصلنا على هذه المعلومات ..

هزّ الضابط الآخر رأسه قائلاً :

- ما دام رجلهم في قبضتنا ، فسيعرفون حتماً .

اعتدل الضابط المسئول ، وهو يقول في حزم :

- لذا فمن الضروري أن يعرفوا أن ضابطهم لم يعد في قبضتنا .

تطلع إليه الجميع في اهتمام وتساؤل ، حوّل الرئيس إلى لغة مسموعة ، وهو يقول :

هل أدرك بالفعل عدم جدوى الخداع والمناورة؟ ..

أم إنه اتخذ قراراً فورياً بالانضمام إلى المعسكر الرابع؟ ..

وأياً كان السبب ، فقد كان ما أدلى به (م . ب) بالغ الأهمية والخطورة ، إلى حد لا يمكن تصوّره ..

ولمّا كان الصيد أكبر مما انتظره الرجال ، فقد اجتمعوا معاً ،

وراح الضابط المسئول يقول في اهتمام كبير :

- الرجل فند الهيكل التنظيمي لجهاز المخابرات الإسرائيلي ، وحدد إداراته ، ونوعيتها ، وأساليب العمل والمتابعة فيها ، وطرق الحصول على الأسرار والمعلومات ، ومنحنا قائمة بأسماء العملاء والضباط ، وصفاتهم ، بل ومنحنا الكثير من المعلومات ، عن سلاح الطيران الإسرائيلي ، وما زال لديه الكثير والكثير ليمنحه .

التقط رئيس الجهاز نفساً عميقاً ، وهو يقول :

- ولكن كل هذه المعلومات قد تغدو عديمة القيمة ، عندما

يكشف الإسرائيليون أنه منحنا إياها ، هذا لو كانت صحيحة بالفعل ،

فسيبدلون قصارى جهدهم ، لتغيير نظمهم وأساليبهم ، وحتى

نوعيات إداراتهم ، والمسئولين عنها .

واندفع ضابط مخابرات آخر ، يقول :

- وكيف السبيل إلى هذا ؟

تتحنح الضابط المسنول عن (م . ب) ، قبل أن يجيب :

- في هذا الشأن ، لدى خطة ، تحتاج إلى المناقشة .

استمعوا إليه جميعاً في اهتمام ، وهو يشرح خطته ، التي بدت عجيبة ومدهشة في البداية ، ثم لم تلبث أن جذبت انتباههم حتى أنهم انهمكوا في مناقشتها وتعديلها ، حتى اتفقوا على شكلها النهائي ، مع مولد فجر اليوم التالي ، الذي انطلق أذانه من المسجد الصغير في ساحة مبنى المخابرات ، فنهضوا إلى صلاة الفجر جماعة ، وقد استقر رأيهم على موضع التنفيذ ..

وفي صباح اليوم التالي ، خرجت الصحف كلها ، وهي تحمل في صدرها صورة (م . ب) ملقى أرضاً ، مع خبير يؤكد انتحاره الليلة السابقة ، وبيان رسمي مقتضب يعلن أمر الشبكة ، وإلقاء القبض عليها ، وانتحار رئيسها ..

ولما كانت الصورة ، التي تنقل وجه (م . ب) بلا مشاعر أو تفاعلات ، واضحة جلية ، والبيان المصاحب لها واضحاً ومباشراً ومقتضياً ، فقد تأكد الإسرائيليون أن ضابطهم كان بطلاً ، وأدرك أنه لا ريب مدل بما لديه من أسرار للمصريين ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فأثر الانتحار على خيانة جهازه ووطنه ..

ولكن هذا لم يمنع تلك الهزة السياسية والعسكرية العنيفة ، التي أصابت الإسرائيليين وقيادتهم ، بسبب الشبكة التي سقطت في قبضة المصريين ، بسبب استهتار وسوء تصرف المخابرات الإسرائيلية ، وبراعة وحنكة المخابرات المصرية ، وتم نشر الوقائع كلها ، تحت اسم (فضيحة لافون) ، نسبة إلى (بنحاس لافون) ، وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الحين ، وصاحب فكرة تكوين (الوحدة 131) والأمر بها ..

ولقد قضت الفضيحة على مستقبل (لافون) قضاءً مبرماً ، وتسببت في تشقق حزب الأغلبية (الماباي) ، وكانت الدافع الأول لعزل (بن جوريون) ، وأرقت الحياة السياسية في (إسرائيل) لعشر سنوات كاملة ..

وطوال كل هذه الفترة ، لم يشك شخص واحد ، في القيادة الإسرائيلية كلها ، وجهاز مخابراتها المتبجح ، في أن (م . ب) مازال حياً يرزق ، في قلب (القاهرة) ..

لم يتصور أحدهم قط ، أن الصورة التي نشرتها الصحف كانت لشخص تحت تأثير مخدر قوى ، وليس لضابط مخابرات منتحر ..

بل ولم يدرك عبقرى واحد ، من عباقرة المخابرات الإسرائيلية ، أن ذلك الشخص المجهول ، الذي عاش طوال السنوات التالية ، في فيلا صغيرة من طابقين ، في (مصر الجديدة) ، تحت حراسة مشددة ، ومحاطاً بأقصى درجات السرية ، والتي تحكم تحركاته واتصالاته ، هو نفسه (م . ب) ، الذي أعلن انتحاره رسمياً ..

أوتار الخطر

غرق مبنى المخابرات العامة المصرية في صمت شبه تام ،
في تلك الليلة ، من ليالى مايو عام 1969م ، على الرغم من
النشاط الجَمِّ ، الذى يحدث خلف الأبواب المغلقة ، وتحرك شاiban
عبر الأروقة في سرعة وخفة ، والحماس يملأ وجهيهما ، ثم
توقفا أمام حجرة في نهاية الممر ، وطرق أحدهما بابها في
هدوء ، وانتظر حتى سمع صوتاً يدعو مع زميله للدخول ، فدفعا
الباب ، ودلفا إلى الحجرة في آن واحد تقريباً ، وتركز بصرهما
على الرجل الجالس خلف مكتب كبير ، والذى استقبلهما بابتسامة
مشجعة ، وهو يقول :

(عاطف) و (حسين) .. أليس كذلك ؟

لم يكن هذان اسميهما المدونين في بطاقتيهما ، ولكنهما
اسمان يستخدمان داخل المبنى ، طبقاً لمقتضيات الأمن ، لذا فقد
أجاب الشابان بلسان واحد :

- بلى .

كانا يشعران بشيء من الانفعال ، وهما يقفان أمام ذلك
الشخص ، الذى يعد واحداً من أبرز رجال المخابرات ، والذى
استدعاهما شخصياً إلى مكتبه لأول مرة ، منذ أنهيأ تدريباتهما

وطوال السنوات التالية ، امتلأ الملف الخاص بالرجل (م . ب)
بكمية هائلة من الرسوم اليدوية للمنشآت المموهة ، وأسراب
الطائرات الإسرائيلية ، والبيانات البالغة السرية ، حول تنظيم
إدارات المخابرات الإسرائيلية ، ونظم العمل ونقل الأوامر ، فى
أفرعها وأقسامها ، ومراتب وشخصيات رؤسائها ..

بل ووسائل تدريب العاملين الجدد ، وعاوين المراسلات السرية
فى (أوروبا) و (أمريكا الجنوبية) و (آسيا) ..

وعلى الرغم من أنه من غير المنطقى ، أن نقول : إن رجلاً واحداً
كان له تأثير واضح ، فى التطور الطبيعى لأجهزة ونظم المخابرات ،
إلا أنه من المنصف أيضاً أن نشير إلى أن المعلومات البالغة الأهمية
والخطورة ، والتي راح (م . ب) يدلى بها ، طوال سنوات اعتقاله ،
كان لها أبلغ الأثر ، فى تكوين وتطوير وسائل التعامل مع العدو ،
واكتساب خبرات مذهشة فى الحرب الخفية معه ..

والفضل فى هذا يعود - بعد الله (سبحانه وتعالى) - إلى تلك
الخطة الرائعة ، التى أنتجتها قريحة الرجال ، فى الأيام الأولى
لمولد جهازهم ..

خطة انتحار الجاسوس ..

الانتحار الزائف .

في القسم (3 ج أ) الخاص بالتعامل والتعايش في المجتمعات الإسرائيلية ، وكان هذا يملؤهما بمزيج من الحماس والانفعال والرغبة ، جعلهما يلوذان بالصمت تمامًا ، والرجل يفحصهما ببصره بعين خبيرة ، وكأنما يقيمهما بسرعة ، قبل أن يقول :

- لقد اجتزتما تدريباتكما بنجاح ، وأظنكما تستطيعان خوض تجربة فعلية .

كان هذا يعنى سفرهما إلى (إسرائيل) نفسها ، في تلك الفترة ، التي بلغت فيها الأمور ذروتها ، وتوترت أوتار الطرفين ، (مصر) و (إسرائيل) ، إلى أقصى حد ، بعد نكسة يونيو ، واستعدادات (مصر) القوية لخوض معركة منتظرة ، ولكن هذا لم يمنع الشباب من القول في حماس :

- نحن رهن إشارة (مصر) يا سيدي ، ولن نتردد لحظة واحدة في التضحية بحياتنا من أجلها ..

ابتسم رجل المخابرات المحنك ، وهو يقول :

- عظيم .. سنرسلكما بالفعل إلى قلب (إسرائيل) ، وبالتحديد إلى (تل أبيب) ، في مهمة عاجلة للغاية ..

سأله أحدهما في فضول ولهفة :

- هل سنحضر بعض المعلومات السرية ، أم ننفذ عميلاً يتعرض للخطر؟! اتسعت ابتسامة الرجل ، وتراجع بمقعده إلى الخلف ، وشبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يجيب بلهجة ملؤها الغموض :

- بل سيكون عليكما إحضار شيء من هناك .

ثم اعتدل ، وتطلع إلى عيونهما ، مستطردًا :

- إنه جيتار .. جيتار عادي جداً .

واتسعت عيونهما في دهشة ، وابتسامته تزداد اتساعًا ، و ... وغموضًا ..

قبل شهر واحد من هذا اللقاء ، وبالتحديد في العشرين من أبريل ، دخل شاب هادي الملامح إلى مكتب الاستعلامات الإسرائيلي (توريسرائيل) ، في المبنى رقم (59) ، في شارع (جيمس) (بلندن) ، وهو يحمل جيتاره الخشبي البسيط في يده ، وجربندية بسيطة على كتفيه ، وبدا مظهره واضح الفقر ، وهو يسأل موظف المكتب ، في لهجة مهذبة ، وبلغة إنجليزية ركيكة ، تشوبها لكنته الفرنسية الواضحة :

- قل لي يا سيدي .. كم يكلفني السفر إلى (إسرائيل) ، والإقامة فيها لبعض الوقت ؟

رمقه الموظف الإسرائيلي بنظرة باردة ، تشف عن الجفاء واللامبالاة ، قبل أن يُجيبه في استهتار ، وهو يلقي نظرة على جواز سفره :

- ليس كثيرًا ، فبوصفك من (فرنسا) ، لن تحتاج إلى تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) ، ويمكنك السفر بحرًا ، بالخط الملاحى الذى يربط (إسرائيل) (بمارسيليا) ، وما دمت قد قضيت أربعين يومًا هنا ، فلن تكون فى حاجة إلى شهادة تطعيم .

قال الفرنسى ، فى لهجة تحمل نبرة خجل :

- هذا عظيم يا سيدي ، ولكن ماذا عن الإقامة هناك ؟

هزّ الموظف كتفيه ، وهو يقول :

- هناك العديد من بيوت الشباب ، وستجد مكتبًا لبحث مشكلات الساتحين ، فى 24 شارع الملك (جورج) .. إنه مكان يُعرف باسم برج (شالوم ماير) فى (أورشليم) ..

بدا الارتياح على وجه الشاب ، وراح يتم إجراءاته فى المكتب ، ثم انصرف وهو يحمل جيتاره البسيط ، ويلقى التحية فى احترام كبير على موظف المكتب ..

وعندما غادر الشاب المكتب الإسرائيلى ، تحرك فى خطوات سريعة

واسعة ، دون أن يلتفت خلفه مرة واحدة ، وسرعان ما ذاب وسط زحام العاصمة البريطانية التى ابتلعه مع جيتاره ، فاختفى وسطها ، وصار من العسير على أن شخص أن يقتفى أثره ، أو يعرف وجهته ..

وقبل أن نمضى فى قصتنا ، يحسن أن نبدأ فى استعراض حقيقة ذلك الشاب الفرنسى ، الذى يحمل جواز سفره الصادر من (باريس) اسم (إميل فرانسوا) ، فالواقع أن (لى) هذا ولد فى (مصر) ، من أب صينى مسلم ، يدعى (لقمان) ، وأم مصرية مثقفة ترتبط أسرتها بروابط مصاهرة قديمة مع الصين ..

والأهم ، أنه يعمل لحساب المخابرات العامة المصرية ..

فمنذ بلغ العشرين من عمره ، انضم (لى تاو) إلى جهاز المخابرات المصرى ، الذى أخضعه لتدريبات طويلة ومكثفة ، ثم أرسله فى رحلة طويلة ، طاف خلالها أرجاء شرق (آسيا) ، وزار (هونج كونج) ، وقضى فيها فترة من الوقت ، ليدرس عادات وتقاليد أهلها ، وطرق التعامل والعيش والمواصلات فيها ، قبل أن تكلفه المخابرات المصرية بالسفر إلى (لندن) ، ليتخذ طريقه إلى قلب (إسرائيل) ، فى مهمة خاصة ، أحيطت بسرية مطلقة ..

وكانت مهمة بالغة الأهمية والخطورة بالفعل ..

ففي ذلك الوقت ، كانت (إسرائيل) تمتلك وسيلة قوية ، من وسائل الدفاع الجوي ، تتمثل في قواعد صواريخ (هوك) ، التي تسعى المخابرات المصرية لجمع كل المعلومات الممكنة عنها ..

ولقد نجحت المخابرات في هذا ، إلى حد كبير ، فقد توصلت ، عن طريق عملاتها ، إلى معرفة قواعد هذه الصواريخ ، ومنشآتها ، ووسائل تمويهها ، ونظم حراستها ، وإعدادها ، كما حصلت على

خريطة توضح مواقع منصات إطلاقها .. (إسرائيل) وما (مصر) ولكن بقي الصاروخ نفسه ..

كانت المعلومات المتوافرة عن الصاروخ نفسه ، لا تتجاوز بيانات معاهد الدراسات الإستراتيجية العالمية ، والمقالات العسكرية ، وبعض الصور المأخوذة لمراحل إطلاقه المختلفة ، ومشاهدات بعض الطيارين المصريين ، الذين تمكنوا من الإفلات من صواريخ (هوك) بطرق خاصة ..

وبات من الضروري أن تبذل المخابرات المصرية قصارى جهدها ، للفوز بتصميمات صواريخ (هوك) ، بأى ثمن ..

وفي السابع من مارس ، عام 1969م ، تلقت المخابرات برقية عاجلة وسرية ، من واحد من أخطر عملاتها في (إسرائيل) ، يُعلنها فيها أنه نجح بوسيلة شديدة التعقيد ، في الحصول على

كراسة خاصة ، تحوى كل تفاصيل وتصميمات ، ونظريات عمل صاروخ (هوك) ، وأنها تتضمن صوراً واضحة ، ورسوماً فنية وحسابات رياضية معقدة ، تشرح طريقة عمل وتشغيل الصاروخ ، وطرق التعامل معه ..

وعلى الفور ، تشكلت لجنة لدراسة هذا التطور المفاجئ ، واتخاذ القرارات المناسبة بشأنه ..

ولم تكن مهمة هذه اللجنة سهلة أو يسيرة ، فالكراسة كبيرة الحجم ، تقع في مائة واثنين وأربعين صفحة ، في الحجم المتوسط ، وتحمل على غلافها شعار الجيش الإسرائيلي ، مع عبارة (سرى للغاية) ، مما يجعل عملية نقلها محفوفة بمخاطر جمّة ، حتى داخل (إسرائيل) نفسها ..

ولقد اقترح أحدهم - على نحو تقليدى - تصوير الكراسة بالميكروفيلم ، وإرساله إلى (القاهرة) ، ولكن الوثيقة كانت نادرة للغاية ، ولم يكن باستطاعة العميل الاحتفاظ بها طويلاً ، نظراً لما يمثله هذا من خطورة بالغة عليه ، واحتمالات لكشف أمره ، كما أنه من المحتمل أن يتعرض الميكروفيلم إلى التلف أو الضياع ، أثناء عملية تهريبه ونقله ، من (إسرائيل) إلى (مصر) ..

وهكذا تم اتخاذ قرار خاص ، ينذر اتخاذه في مثل هذه العمليات ..

لقد تقرر أن يقوم العميل (0.006) بتصوير الكراسية ، ثم يحتفظ بالميكروفيلم ، حتى يأتي من يتسلم الكراسية منه ، وعندئذ يُرسل الميكروفيلم بالوسائل المتعارف عليها إلى (القاهرة) ، بحيث يضمن هذا الأزواج وصول المعلومات بأى من صورتين إلى المخابرات المصرية ، التي أولت هذه العملية اهتماماً بالغاً ، إلى الحد الذى طلبت فيه من العميل (0.006) أن يتوقف تماماً عن أى نشاط سرى ، وأن يُصمت جهاز اللاسلكى الخاص به ، حتى تُخرج الكراسية والفيلم من حوزته ..

وبعد بحث دقيق للغاية ، ودراسة استغرقت عدة ليال بطولها ، وقع الاختيار على (لى تاو) ، للقيام بالمهمة ..
وقد كان ..

وفى الثانى من مايو ، وصل (لى) إلى (إسرائيل) ، وراح يتسكع داخلها دون هدف ، فى انتظار الموعد الذى تم تحديده لبدء مهمته ، فى السادس عشر من الشهر نفسه ..
ولم يكن هذا الانتظار عبثاً ، فقد اتخذت المخابرات المصرية احتياطاتها ، حتى تتفادى أية محاولات مراقبة أو شكوك ، قد تُحيط بالصينى ، قبل بدء عملياته ..

ولم تكن هذه الفترة وريدية بالنسبة للصينى ، فلم يكد يتصل ببيوت

الشباب فى (القدس) فى رقم 22073 ، الذى ما زال مستخدماً حتى الآن ، حتى أعلمه المسئولون هناك أنهم لا يستطيعون قبوله ، لأنه تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ..
وكانت صدمة صغيرة للشباب ، الذى لم يكن يحمل من النقود ما يكفى لحياة البذخ ، لذا فقد أجهد قدميه طويلاً ، حتى عثر على فندق متواضع ، فى أحد الشوارع الخلفية الصغيرة فى (القدس) يناسب إمكانياته البسيطة ..

وفى حماس راح الشاب يسعى للبحث عن عمل ، وهو يحمل جيتاره الصغير ، حتى أمكنه الاتفاق على إحياء عدد من الحفلات ..

وعند بركة القوارب ، التى تقع أمام فندق (هولى لاند) فى (القدس) ، قدم (لى تاو) إحدى حفلاته ، وجرت أصابعه على أوتار جيتاره ، لتعزف ألحاناً عذبة ، راققت كثيراً للحاضرين ، وبالذات لفاتنة إسرائيلية من أصل أسباني ، صفقت له فى حرارة ، عندما انتهى من عزفه ، ثم وثبتت على خشبة المسرح لتقبل وجنتيه ، وتصافحه فى حرارة ، وعندما عادت أدراجها ، كان هو محمر الوجنتين ، وأصابعه تقبض فى قوة على ورقة صغيرة ، لم يكد يعود إلى حجرته حتى رفعها إلى وجهه فى سرعة ، وقرأ عليها :

- (تل أبيب) .. منزل (بروديتسكى) .. الرابعة بعد ظهر الغد ..

وتبعًا لما تلقاه (لى تاو) من معلومات ، أحرق الورقة ، وانتظر حتى تحوّلت بأكملها إلى رماد أسود ، ألقاه فى الحوض ، وترك المياه تحمله بعيدًا ، ثم حمل هو جيتاره ، وسافر فى اليوم التالى مباشرة إلى (تل أبيب) ، وهناك أتجه إلى منزل (بروديتسكى) ..

ويقع منزل (بروديتسكى) هذا فى قلب (تل أبيب) ، فى منطقة تتميز بالهدوء ، وهو عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق ، على شكل زاوية منفرجة ، وصل إليه (لى) فى الثالثة والدقيقة الخمسين ، واتّجه إلى شجرة وحيدة ، على مسافة ستة أمتار منه ، فجلس تحتها صامتًا ، وهو يحمل جيتاره على ركبته .

وفى الرابعة تمامًا ، وصلت الإسرائيلية ، وأشارت إليه ، فلتحق بها فى سيارتها ، التى انطلقت بها إلى منزلها فى شارع (مندل) ..

وطوال الطريق ، لم تتبادل معه الفتنة كلمة واحدة ، والتزم هو الصمت بدوره ، كأي جاسوس ملتزم مُطيع ، حتى صعدا إلى شقتها فى الدور الثانى ، فأخرجت مفتاحها ، ودسته فى ثقب الباب ، ولكنها لم تفتحه مباشرة ، وإنما مررت أصابعها أولاً على الحافة الخشبية للباب ، حتى لامست أصابعها شعرة رأس دقيقة ، فانتزعتها من مكانها فى دقة ، شأن أية جاسوسة مُدربة ، تتبع إجراءات الأمن بمنتهى الدقة ، ثم فتحت الباب ، ودعت الشاب للدخول ..

كانت الشقة بسيطة ، أنيقة الأثاث ، ولقد ألقى الشاب جسده فوق أول مقعد قابله ، ولهث فى قوة ، فابتسمت الفتاة ، وهى تسأله :

- هل تشعر بالإرهاق ؟

هزّ رأسه نفيًا ، قبل أن يجيب :

- بل هو الانفعال ..

أطلقت ضحكة قصيرة ، ثم أشارت إليه ، قائلة :

- سواء أكان الأمر إرهابًا أم انفعالًا ، فسأطالبك بالنهوض من هذا المقعد ..

نهض (لى) فى ارتباك ، وهو يقول :

- آه .. معذرة .. كان ينبغى أن أستاذن أولاً ..

ضحكت مرة أخرى ، وهى تقول :

- أسأت الفهم ثانية .

ثم انحنت نحو المقعد ، وضغطت مسنده ، ثم دفعته جانبًا فى قوة ، ودست يدها فى الفراغ الرقيق ، بينه وبين وسادته الأفقية ، ثم جذبتها وهى تحمل كراسية مواصفات الصاروخ (هوك) ..

وطوال أربع ساعات كاملة ، انهمك الاثنان فى انتزاع شريحة

فى ظهر الجيتار ، ثم دسا الكراسى فى الفجوة الناشئة ، وأعادوا
لصق الشريحة فوقها ..
ولقد واجهتهما صعوبات جمّة ، حتى نجحا فى هذا ، فالكراسى
لم تستقر فى موضعها ، إلا بعد وضعها فى كيس من النايلون ،
ولصقها بإحكام فى باطن الجيتار ..

وبينما استغرق (لى) فى نوم عميق ، نهضت الفتاة إلى
حجرة مكتبها ، وأرسلت رسالة لاسلكية إلى (القاهرة) ، لتعلن
الرجال هناك أن الكراسى قد خرجت من حوزتها ، وأن
الميكروفيلم قد تم إرساله منذ عدة ساعات إلى (القاهرة) ،
ضمن حركة نقل منتظمة ، تمر بعدة أماكن ، عبر عدد من
العملاء ، من جنسيات مختلفة ..

وفى الصباح ، استيقظ (لى تاو) ، وكان من المفروض أن
يسافر إلى (القدس) ، ليستقل منها طائرة إلى (هونج كونج) ،
ومنها إلى (القاهرة) ، ولكنه لم يكن يملك نقوداً كافية ، فطلب
من الفتاة أن تدبر له هذا ، ووعدته الفتاة أن تفعل ، وطلبت منه
أن يقابلها فى مشرب بشارع (قورش) ، ليحصل على النقود ،
ثم يتوجه مباشرة لمكتب شركة (العال) ، ليحجز تذكرة السفر ..

وحمل (لى تاو) جيتاره بحرص أكبر هذه المرة ، وغادر
منزلها ، وراح يتجول بعض الوقت فى شوارع (تل أبيب) ، ثم
أتجه إلى المشرب قبل مواعده بنصف الساعة ، وأخذ مائدة فى
أحد أركانه ، ووضع جيتاره على المقعد المجاور ، وأسند عنقه
على ركبته ، وجلس ينتظر الفتاة ..

ولكن الرياح لا تأتي دائماً بما تشتهي السفن ..

فعلى المائدة المجاورة له ، جلست أسرة يهودية مغربية ، تتبادل
النكات والضحكات بصوت مرتفع ، لم يرق لرواد المائدة المقابلة ،
من اليهود الروس ، فاعترضوا على الأمر بأسلوب فظ ، استفز
المغاربة ، الذين بادروهم بسيل من الشتائم والسباب ، ثم قذف
أحدهم بصلّة ، أصابت وجه أحد الروس ، الذين انقضوا على
المغاربة ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة ..

وهنا ارتكب (لى تاو) أكبر خطأ فى مهنته .. لقد تدخل لفض
النزاع ، وحاول أن يفصل بين المتصارعين ، فلم يكن من أحدهم
إلى أن ضربه بجسم ثقيل على رأسه ، فسقط فاقدًا للوعى ..

وعندما وصلت الإسرائيلية إلى المكان ، كان يكتظ برجال
الشرطة الذين ألقوا القبض على المتشاجرين ، ورجال الإسعاف ،
الذين انهمكوا فى نقل المصابين ، ومن بينهم (لى تاو) ..

وكان الجيتار قد اختفى تماماً ..

وأصيبت الإسرائيلية بالذعر ، فأسرعت عائدة إلى منزلها ، ونقلت
جهاز الإرسال إلى مكان آخر بعيد ، ومن هناك أرسلت إلى (لقاهرة) ،
لتبلغهم أن الجيتار قد اختفى وبداخله كراسة الصاروخ (هوك) ..

أما (لى تاو) فقد أصيب بارتجاج فى المخ ، مع كسر بقاع
الجمجمة ، وقضى فى المستشفى قرابة الشهر ، وعندما غادرها
سلمته الشرطة كل الحاجيات ، التى تم العثور عليها فى المشرب ،
والتي ثبت أنها تخصه ، ولكن أحداً لم يعثر على أنى أثر للجيتار ،
على الرغم من أنه مسجل ضمن ما تم العثور عليه بعد المشاجرة ..

والعجيب أن (لى تاو) عثر وسط متعلقاته على تذكرة سفر
إلى (هونج كونج) ، تحمل اسمه ، مع تاريخ سفر مفتوح ..

وبعد ثلاثة أيام ، وصل (لى) إلى (هونج كونج) ، وسافر فى
صباح اليوم التالى إلى (القاهرة) ، وهناك استقبله اثنان من
الرجال فى ترحاب ، وحمله فوراً إلى مبنى يتبع المخابرات العامة ،
حيث استقبله أحد رجالها بابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- مرحباً بك يا بطل .. حمداً لله على سلامتك ..

خفض (لى تاو) عينيه فى أسف ، وهو يقول :

- ولكننى فشلت فى مهمتى مع الأسف ..

ضحك رجل المخابرات ، وهو يقول :

- لا يمكنك أن تفشل أبداً ، ما دمت تعمل لحساب المخابرات
المصرية ، ثم نهض إلى دولا به ، مستطرداً :

- وبالمناسبة .. عندى شىء يخصك هنا .

ووثب (لى) من مقعده بانفعال عنيف ، عندما أخرج رجل
المخابرات الجيتار من دولا به ، وناوله إياه ..

واختطف (لى تاو) الجيتار فى لهفة ، وضمه إليه فى حنان ،
وهو يهتف :

- إن فأنتم الذين أخذتموه !!!

ابتسم رجل المخابرات ، وهو يقول :

- لقد احتفظنا به لك ، ولكننا استعدنا كراسنا من قاعه بالطبع .

أطلق (لى تاو) ضحكة مرحة ، مفعمة بالارتياح ، وهو يقول :

- كان ينبغى أن أتوقع هذا .. كان ينبغى أن أتوقعه .

تسعت ابتسامة رجل المخابرات ، وهو يربت على كتفه ، قائلاً :

حمداً لله على سلامتك يا بطل .

امتلات نفس (لى تاو) بالارتياح ، وضم جيتاره إليه فى
سعادة ظافرة ، ثم انطلقت أصابعه تداعب تلك الأوتار ، التى
عشقها طويلاً ..

أوتار الخطر .

بئر الخيانة ..

أطل صيف عام 1969م على (القاهرة) حاملاً موجة حارة مبكرة ، لهثت لها الأنفاس المكرورة ، والقلوب المنغمسة في حرب الاستنزاف ، التي بلغت أوجها في تلك الفترة ، والمصريون يعملون بكامل جهدهم ، لإقامة حوائط الصواريخ على الضفة الغربية لقناة (السويس) ، ضمن خطة شاملة لتعزيز الدفاعات الجوية ، والاستعداد للثأر من الإسرائيليين ، الذين احتلوا (سيناء) ، بعد نكسة يونيو 1967م ، وضاعفت الحرارة الزائدة في متاعب الرجال وإرهاقهم على الجبهة ، وهم يقيمون منصة جديدة للصواريخ ، و ...

وفجأة ، ظهرت الطائرات الإسرائيلية في الأفق ..

كانت تحلق على ارتفاع منخفض ، وهي تنقض على موقع المنصة الجديدة مباشرة ، على نحو يَشِفُّ عن تحديدها لهدفها بدقة ، وانطلقت صواريخها تنسف الموقع وتطيح بعدد من العاملين المدنيين فيه ، في حين اندفع العسكريون يمطرونها بنيرانهم ، ونجحوا في إصابة إحدى الطائرات الإسرائيلية ، التي واصلت طريقها هاربة ، لتسقط في قلب (سيناء) ، في حين فرت الطائرات الأخرى ، بعد أن أتمت مهمتها ، ودمرت منصة صواريخ جديدة ..

ولم تمض ساعة واحدة على الحادث ، حتى كانت مائدة الاجتماعات الخاصة ، في مبنى المخابرات العامة المصرية تضم عدداً من أبرع الخبراء في هذا المجال ، ومدير الجهاز يواجههم في حسم واهتمام بالغين ، ويشير بيده ، قائلاً :

- إنها ليست المرة الأولى ، التي يهاجم فيها الإسرائيليون إحدى منصات صواريخنا أثناء تنفيذها ، وهذا يعني وبكل وضوح ، أن للإسرائيليين جاسوساً ، ينقل إليهم تفاصيل ومواقع ورسوم المنصات .
قال أحد الرجال بسرعة :

- لقد درسنا هذا الاحتمال في اجتماعنا السابق وبناء عليه ، قمنا بعدد من التحريات حول العاملين في المواقع ، والمسئولين عن بنائها ، ووضع الرسوم والتصميمات الهندسية الخاصة بها ، وكل من يتصل عمله بالأمر ، على نحو أو آخر ، وراجعنا وسائل الهجوم الجوي على المواقع ، بالاستعانة بعدد من الخبراء العسكريين في الطيران ، وتوصلنا بعد كل هذا إلى نتيجة حاسمة ، تشير في نفسنا الكثير من القلق .

مال مدير المخابرات إلى الأمام ، وهو يسأل في اهتمام مشوب بالقلق :

- وما هي ؟

التقط رجل المخابرات نفساً عميقاً ، قبل أن يجيب في حزم :

- الإسرائيليون ، لا يمكنهم مهاجمة مواقع الصواريخ بهذه الدقة ، إلا لو كانت لديهم الرسوم التفصيلية الكاملة لها .

وفجرت العبارة قنبلة من الصمت في المكان ، فقد كانت تعنى ، وبكل وضوح ، أن الخائن ، الذى يمد الإسرائيليين بالرسوم الهندسية للمواقع ، واحد من كبار المهندسين أو المسئولين ، فى شركة المقاولات الضخمة الشهيرة ، التى أسندت إليها عملية بناء حائط الصواريخ .

ودون أدنى تردد أمر مدير المخابرات رجاله بمواصلة تحرياتهم على أعلى مستوى ، للتوصل إلى الخائن ، وحماية عملية بناء حائط الدفاع الجوى المصرى والعاملين فيه ..

أو بمعنى أدق .. حماية أمن (مصر) كلها ..

ولم يمض أسبوع واحد على هذا الاجتماع ، حتى طلب أحد الرجال مقابلة مدير المخابرات لأمر عاجل ، ولم يكذ يلتقى به ، حتى قال فى انفعال واضح :

- توصلنا إلى الخائن ، فى قضية حائط الصواريخ .

رفع المدير عينيه إليه فى لهفة ، وهو يسأل :

- ومن هو ؟

دفع الرجل ملفاً كبيراً أمام المدير ، وهو يجيب :

- ابن شقيقة رئيس مجلس إدارة شركة المقاولات الشهيرة ، اسمه (بهجت حمدان) ..

وكانت مفاجأة ..

منذ بدايته ، كان (بهجت) فاشلاً ، لم يحقق نجاحاً فى حياته الدراسية أو العملية ، كما أنه نشأ مستهتراً لامبالياً ، تمتلئ نفسه بسخط لا مبرر له ، وبطموح سلبي ، لا يرتبط فى أعماقه بضرورة العمل ، أو حتمية الكفاح لبلوغ المآرب ..

ولأنه ابن شقيقة المهندس (ع . أ . ع) ، فقد حصل بضغط من والدته على شقيقها ، على عمل فى شركة المقاولات الشهيرة ، يتناسب إلى حد ما ، مع ضعف كفاءته ، ومحدودية خبرته وقدرته ..

وعلى الرغم من أن الحصول على مثل هذا العمل ، يُعد فرصة عظيمة نادرة لشاب مستهتر محدود القدرات مثل (بهجت) ، إلا أنه لم يقنع به قط ، وإن لم يبذل أدنى جهد للحصول على عمل أفضل ، وإنما راح يبدى تبرمه باستمرار ، ويصطدم برؤسائه ، ويهمل فى عمله ، اعتماداً على قرابته لرئيس مجلس إدارة الشركة ،

لذا فقد كانت صدمته عنيفة للغاية عندما أصدر المهندس (ع . أ . ع)

شخصياً قراراً بطرده من العمل ..

وثارت الشقيقة وغضبت ، وحزنت واعترضت إلا أن شقيقها لم يتراجع عن قراره قط ، وأعلن في وضوح أن (بهجت) لا يصلح لأى عمل جاد ، وأنه غير مستعد لإعادته إلى العمل ، بعد كل ما سببه له من متاعب ومشكلات لا حصر لها ..

وغضب (بهجت) من خاله ، وقرر أن يثبت له أنه ناجح وكفاء ، فغادر (مصر) كلها إلى (أوروبا) ، واختار (ألمانيا) بالتحديد لبدء نشاطه وإثبات وجوده ..

ولكن الوضع فى (ألمانيا) لم يكن يختلف كثيراً عنه فى (مصر) ، إذ أن العمل ، فى أى مكان فى العالم ، يتطلب النشاط والحماس والكفاءة ، و (بهجت) يفتقر بطبيعة الحال إلى كل هذا ..

وكما يحدث لكل شخص فى مثل وضعه ، تنقل (بهجت) بين عدد من المهن والأعمال ، التى فشل فى تحقيق أى نجاح فيها ، حتى انتهى به الأمر فى وظيفة بسيطة متواضعة ، فى مطبخ أحد فنادق الدرجة الثانية ، تكفى بالكاد لإقامة أوده ، ونفقاته الضرورية للغاية ..

وفى تلك المرحلة بالتحديد ، التقى ب (أدهم) ..

كان هذا فى ليلة من ليالى السبت بعد أن انتهى (بهجت) من عمله ، وانطلق كعادته إلى بار قريب ، ليقضى فيه سهرة متواضعة ،

بجزء كبير من راتبه الأسبوعى ، لم يكن يكفى إلا لتناول كأس من الخمر ، والاكتفاء بمراقبة الفتيات حتى منتصف الليل .. ثم وقع بصره على (أدهم) ..

كان شاباً وسيماً ، يحتل مع رفيقاته مائدة كبيرة ، يراق فوقها الخمر أنهاراً ، بمبلغ يساوى ما يمكن أن يربحه (بهجت) من عمله فى عام كامل ، وينفق فى سخاء واضح ، كما لو أنه يخفى فى جيبه مطبوعة خاصة لطبع الماركات الألمانية ، وسال لعبه ليفرق لهفته كلها ، والحسد يعتصر كل مشاعره بلا رحمة ..

ولكن فجأة التقطت أذناه كلمة عربية ، نطقها الشاب الوسيم بلهجة مصرية خالصة ، وهو يطلق ضحكة عالية مجلجلة ..

وبكل اللهفة فى أعماقه هتف به (بهجت) :

- أنت مصرى ؟!

التفت إليه (أدهم) وهو يقول :

- بالطبع .. مرحباً بك يا رائحة الأحباب ..

ودعاه فى حماس لمشاركته المائدة ، فلم يتردد (بهجت) لحظة واحدة ، وانضم إلى (أدهم) ورفيقاته ، وراح ينهل مما حوله فى نهم ، والشباب يراقبه فى اهتمام ، ويتحدث معه عن (مصر)

وأحوالها ووضعها بعد نكسة يونيو ، ثم لم يلبث الحديث أن تطور إلى حوار حول حرب الاستنزاف ، ومحاولة (مصر) لإعادة بناء جيشها ، وهنا تراجع (بهجت) في مقعده ، ورفع سبابته في حكمة مصطنعة ، قائلاً :

- ولكن هذا يتكلف ثروة طائلة ..

حائط الصواريخ وحده يستنزف الكثير والكثير ، وسيحتاج بناؤه إلى جهد هائل .

ضحك (أدهم) وهو يقول :

- تتحدث وكأنك عليم ببواطن الأمور .

هز (بهجت) كتفيه ، وأجابه في لا مبالاة .

- هذا أمر طبيعي فأنا ابن شقيقة المهندس (ع . أ . ع) ، وكنت أعمل في شركته .

وكانت الخمر قد لعبت برأسه ، حتى إنه لم ينتبه إلى ذلك البريق ، الذي أطل من عيني (أدهم) عند سماعه العبارة ، ولا إلى حركته الحادة ، وهو يميل إلى الأمام ، ويتطلع إليه في اهتمام شديد ، وكأنما يستشف صدق عينيه .

وانتهت السهرة في ساعة مبكرة من الصباح التالي ، ولم يدر

(بهجت) حتى كيف عاد إلى منزله ، ولكنه استيقظ ظهراً ، وهو يعاني من صداع شديد ، ونسى كل ما يتعلق بأدهم وسهرته طوال أسبوع العمل التالي ، إلا أنه لم يكذب يدلف إلى البار في ليلة السبت ، حتى وجد نفسه يهتف في حماس ، وهو يندفع نحو مائدة (أدهم) الحافلة :

- أهلاً .. أهلاً بصديقي العزيز .

وفي هذه المرة ، استقبله (أدهم) في حماس منقطع النظير ، وأغدق عليه في سخاء ، وهو يسأله عن أحواله ، وعمله ، وقرابته للمهندس (ع . أ . ع) ثم لم يلبث أن عرض عليه أن يبحث له عن عمل آخر ، فوافق (بهجت) على الفور ، دون أن يسأل عن طبيعة العمل ونوعه ، وعندما نبهه (أدهم) إلى هذا ، تراجع (بهجت) وهو يحمل كأسه ، وأجاب بلهجة لا تقبل الجدل :

- اسمع يا صديقي .. أنا مستعد للعمل مع الشيطان نفسه ، لو أنه يدفع بسخاء .

والتقط (أدهم) العبارة ، وابتسم وهو يغمغم :

- مبدأ رائع يا صديقي .

ومن المؤكد أن هذا الرد قد تمت دراسته بدقة بالغة ، من قبل الرجال الذين يعمل (أدهم) لحسابهم ، وأنهم أضافوه إلى كل

ما جمعه من معلومات حول (بهجت) وماضيه ، وطبيعته ، وآراء زملاء العمل فيه ، فقد اتخذوا قراراً عجيباً ، أبلغوه إلى (أدهم) الذي اتصل هاتفياً ببهجت في عمله ، وطلب منه مقابلته في بار آخر صغير عند أطراف المدينة ، وعندما التقيا ، قال (أدهم) :

عندى لك عمل جيد ، ستحصل منه على مرتب كبير ومكافآت سخية تفوق كل ما حلمت به طوال عمرك .
أجاب (بهجت) في سرعة ، واللهفة تفوح من كل حرف ينطق به :

- وماذا تنتظر ؟ .. هيا بنا إليه يا رجل .
سأله (أدهم) ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة .
- ألا ترغب في معرفة طبيعة العمل أولاً ؟
هتف (بهجت) :

- وما الذى يعينى فى هذا ؟ .. إنه عمل مربح ، وهذا يكفى .
صمت (أدهم) لحظة ، ثم مال إلى الأمام ، ونفذ ما أمره به رؤساؤه ، وهو يقول :

- ستعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية .

لم تكن هذه المواجهة المباشرة أبداً طبيعية أو مألوفة ، أو حتى منطقية فى عالم المخابرات إلا أنه من الواضح أن دراستهم لشخصية (بهجت) أنبأتهم أنه لا يتورع عن القيام بأى عمل كان ، أو التردد إلى أدنى مستوى ، ما دام سيحصل نظير هذا على المال الوفير ..

ولقد كانوا على حق ، فكل ما فعله (بهجت) هو أن انتفض لحظة ، وتسمر لثوان محدودة ، ثم لم يلبث أن مال نحو (أدهم) ، وسأله فى لهفة ، أوضحت موافقته غير المشروطة :

- وكم سيدفعون ؟

وكانت هذه هى البداية ، فقد تلقى (بهجت) عدداً من التدريبات الخاصة بالتجسس ، على يد بعض خبراء المخابرات الإسرائيلية انتعشت أحواله المالية ، مما يحصل عليه من المال من الإسرائيليين ، حتى إنه تزوج ألمانية جميلة ، وقضى معها بعض الوقت ، قبل أن يصدر إليه الأمر بالعودة إلى (القاهرة) ، لبدء مهمته هناك ..

وعاد (بهجت) إلى (مصر) ، تحت ستار أنه يعمل لحساب شركة ألمانية لتوريد السلاح ، وبدأ اتصالاته ببعض المسئولين للحصول على عقود توريد للشركة المزعومة ، فى نفس الوقت الذى عاد فيه إلى شركة المقاولات الشهيرة بحجة لقاء زملاء العمل السابقين ..

والعجيب أن (بهجت) ، الذي كان يفتقر طيلة عمره إلى النشاط والحيوية ، في كل عمل شريف التحق به ، قد تحول إلى شعلة منهما ، وهو يبذل قصارى جهده في محاولة إغراء بعض العاملين بالشركة للحصول على الرسوم الهندسية لمواقع الصواريخ ، التي تبنيها شركة المقاولات لحساب الدولة ، ليرسلها إلى الإسرائيليين .

ومن خلال محاولاته المستمرة ، ذهب (بهجت) لزيارة خاله المهندس (ع . أ . ع) ليثبت له نجاحه في العمل في (ألمانيا) ، وليبحث في الوقت نفسه عن وسيلة للحصول على الرسوم المطلوبة .

وأخيراً ، عثر (بهجت) على بغيته ..

كان أحد مساعدي خاله ، وقد ألهم (بهجت) طموحه ، وأقنعه بقدرته على إيجاد عمل له في الشركة الألمانية ، فسأل لعاب الرجل ، وراح يمد (بهجت) بالرسوم الهندسية ، طمعاً في هذا العمل الوهمي ..

وعندما بدأ رجال المخابرات العامة تحرياتهم حول الأمر ، لم يكن الحصول على النتائج سهلاً أو هيناً ، مما دفعهم لبذل جهد خرافي ، في وقت محدود للغاية ، حتى لاحظوا اهتمام (بهجت) الشديد بزيارة الشركة ، وتوطيد صلاته بالعاملين فيها ، على الرغم من أنه لم يعد ينتمي للمهنة أو العمل ..

وفي دقة وبراعة ، بدأ رجال المخابرات تحرياتهم حول الشركة ، التي يعمل لحسابها (بهجت) هذا ، ونشط عملاء المخابرات في (ألمانيا) لجمع أكبر قدر من المعلومات عنها .. وجاءت النتيجة مذهشة ..

فالشركة الألمانية لم تكن سوى ساتر للمخابرات الإسرائيلية ، ويرأسها ثلاثة من الألمان يعملون لحساب (الموساد) ، مباشرة .. وهنا تأكد الأمر ، وبدأ الرجال في إعداد خطة إلقاء القبض على الخائن .

وفي تلك الفترة كان (بهجت) يستعد للعودة مع زوجته الألمانية إلى (ألمانيا) ، حاملاً مجموعة من الرسوم الهندسية ، التي تركها لدى والدته ، في منزله في منطقة (غمرة) ، في حين كان يقيم هو في فندق (النيل هليتون) ، لذا فقد أعد رجال المخابرات خطتهم ، بحيث ينقض فريقان من الرجال على المنزل والفندق في آن واحد .. وفجأة ، وبينما كان (بهجت) في نروة إحساسه بالنجاح والتفوق ، على الرغم من غضب زوجته ، التي علمت بما يفعله ، وثارت على خيائته لوطنه ، باغته رجال المخابرات في حجرته ، وأعلنوا هويتهم ، فأتسعت عيناه عن آخرهما ، في مزيد من الذعر والذهول ، قبل أن ينهار على أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

- لست أدري كيف فعلتم هذا ..

لقد كنت حريصًا للغاية ، وقد أكدوا لى أنه لن يمكنكم كشف
أمرى أبدًا .

أجاب ضابط المخابرات المصرى فى هدوء :

- كانوا مخطئين .

زفر (بهجت) فى مرارة ، وهز رأسه فى ألم ، قائلاً :

- نعم .. كانوا مخطئين ..

ورفع عينيه البائستين إلى ضابط المخابرات ، مستطردًا :

- اسمح لى بتحيةة المخابرات المصرية .

بكت زوجته كثيرًا ، وهى تصف لرجال المخابرات رفضها لما
فعله زوجها ، ومحاولاتها الفاشلة فى تقويمه ، وإعادة الروح
الوطنية إليه ، وأقسمت أنه لا شأن لها بكل هذا ، ولقد أكد لها
رجال المخابرات المصرية أنهم يعلمون هذا ، ثم أضافوا بلهجة
مهذبة للغاية أنه يؤسفهم ألا يمكنهم السماح لها بالعودة إلى
(ألمانيا) مؤقتًا ، لأن العملية لم تنته أو تحسم بعد ..

ولم تفهم الزوجة الألمانية ما يعنيه هذا ، إلا عندما قدم الرجال
لزوجها رسالة معينة ، وطلبوا منه نسخها بخطه ، وإرسالها إلى
الشركة الألمانية ..

وكانت الرسالة متقنة للغاية ، حتى إنها دفعت (أدهم) إلى
القدوم إلى (مصر) ، ولم يكذب يضع قدمه على أرضها ، حتى
وقع فى قبضة المخابرات المصرية ..

وهكذا حقق المصريون انتصارهم الساحق ، فى عملية التجسس
على بناء حائط الصواريخ واستنزاف الاقتصاد المصرى ..

ولقد استخدموا (أدهم) فى عملية تبادل ، حصلنا من خلالها
على عدد من جواسيسنا ، الذين سقطوا داخل (إسرائيل) .

أما (بهجت) فقد صدر ضده الحكم بالإعدام ، فى حين حصل
مساعدته فى شركة المقاولات على حكم بالسجن خمسة عشر عامًا ..

وبقى حائط الصواريخ ، ونما ، واكتمل ، وأصبح واحدًا من أقوى
أسلحة الدفاع فى حرب أكتوبر 1973 م .

وعندما التف حبل المشنقة حول عنق (بهجت) لتنفيذ حكم
الإعدام ، أدرك فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى حق نفسه ووطنه ..

وأدرك أن طموحه غير الشريف لبلوغ القمة ، قد أدى به إلى
بئر بلا قرار ..

ثم احترق العميل ..

ارتسمت ابتسامة على شفתי مسنول (الموساد) الإسرائيلي، وهو ينهض لاستقبال صديقه (جاك بيتون) في مكتبه في (تل أبيب) وشدَّ على يده وهو يقوده إلى مقعد وثير، قائلاً:

- مرحباً بك يا عزيزي (بيتون) .. أية رياح طيبة دفعتك لزيارتى هنا؟

رسم (جاك بيتون) الذي أطلق عليه المسلسل التلفزيوني الشهير اسم (رافت الهجان) على شفثيه تلك الابتسامة الهادئة الجذابة عادة، وهو يلوح بكفه، قائلاً:

- يمكنك أن تقول: إنها زيارة عمل.

رفع مسنول (الموساد) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:

- زيارة عمل؟! .. ما الذي يدور في ذهنك بالضبط يا عزيزي (بيتون)؟! .. هل قررت العمل لحسابنا؟

ضحك (بيتون)، وهو يقول:

- ليس إلى هذا الحد.

ثم انعقد حاجباه في جدية شديدة، وهو يستطرد:

- الواقع أنني أتيت للإبلاغ عن جاسوس.

ومرة ثانية، ارتفع حاجبا مسنول المخابرات الإسرائيلية، وهو يقول في دهشة بالغة:

- جاسوس؟! .. ماذا لديك بالضبط يا رجل؟! .. أفصح بسرعة!

- اعتدل (جاك بيتون) في جلسته، وهو يقول:

- الحقيقة أنها مجرد شكوك، ولكنها تقلقني بشدة، وواجبي يحتم على إبلاغكم بها. ثم إن الشخص الذي أتحدث عنه ليس عادياً أبداً .. إنه ضابط وموجه سياسى، فى وحدة (بالماخ)، ويقوم عدداً من الندوات، تحوز إعجاب وتبهار الجميع، والمحرك الأول لكل حماسهم ووطنيتهم، حتى إنه ليدهشنى أن يكون جاسوساً مصرياً.

بدا اهتمام بالغ على وجه مسنول (الموساد)، وهو يسأله:

- من تقصد بالضبط؟

أجابته (جاك) على الفور:

-- (بولين) .. (بولين ألكسندر).

انعقد حاجبا المسنول الإسرائيلي فى شدة، وهو يستمع إلى هذا القول، ولو عرف الحقيقة كاملة، لامتزع حاجباه بعينيه الجاحظتين، وسقط فاقداً للوعى.

ولكنه لم يعرفها - لحسن حظ الجميع - إلا بعد سنوات طوال ..

وعندما عرفها ، كاد بالفعل يفقد رعيه من فرط الدهشة ..
ليس لأن (جاك بيتون) كان أيضًا عميلًا للمخابرات المصرية ،
وإنما لأنه لم يجد جوابًا شافيًا للسؤال :

لماذا أبلغ عميل مصري عن عميل مصري آخر؟! .

لماذا؟

كان (بولين ألكسندر) شابًا هادئًا ملتزمًا ، لا يدخن ولا يشرب
الخمر ، أو يخالط النساء .. بل كان دائمًا يهوديًا متعصبًا ، دائم
التردد على المعابد ، كما اشتهر في كل الأوساط ، بأنه متحدث
جيد مثقف ، يمتلك مقدرة فذة على التأثير في مستمعيه ، ويقطن
منزلًا أنيقًا في (بئر سبع) يطل على طريق ميناء (إيلات)
وشمال صحراء (النقب) ..

ولكنه لم يكن يشعر بالسعادة أو الارتياح .. وبالذات في الآونة
الأخيرة ..

لقد انتابته حالة اكتئاب شديدة في العام الأخير ، بعد أن تساقط
عدد من رفاقه في الحرب ، وشاهد تجار الدعارة والانتهازيين
والأدعياء ينتشرون في المجتمع الإسرائيلي ، ويتاجرون بكل شيء ،
حتى بمعداة ودماء الشباب ، ثم يستطيعون - أو بعضهم على الأقل -
القفز إلى أعلى المناصب في السلطة .

وكمحاولة للتخلص من هذه الحالة ، خرج (بولين) في جولة
سياحية ، في عدد من دول (أوروبا) ، حيث استقر بعد فترة في
فندق متوسط في (زيورخ) واتخذ لنفسه نظامًا دقيقًا محكمًا ،
طوال فترة إقامته هناك ، يطالع أحد كتبه حتى موعد الغداء ،
الذي يتناوله وحده ، في ركن منعزل ، ويعاود القراءة حتى
المساء ، ثم يصعد إلى حجرته ، التي تظل أنوارها مضاءة ، حتى
ما بعد منتصف الليل ..

ولكن حالة الاكتئاب لم تفارقه قط ..

كان من العسير عليه أن يتقبل كل ما يحدث في وطنه ، وهو
يشعر بالعجز والضعف على هذا النحو .

وفجأة ، وفي ليلة عاصفة ممطرة ، فوجئت صاحبة الفندق (ماريا)
بنزيلها (بولين) يرتدى معطفه ، ويندفع لمغادرة الفندق ، فهتفت به :

- إلى أين يا (بولين)؟

أجابها في توتر واقتضاب بالغين :

- لدى أمر عاجل .

قالت في دهشة :

- في مناخ كهذا؟!!

ولكن (بولين) لم يجب تساؤلها ، وهو يرفع ياقة معطفه ، ويغادر الفندق في سرعة ، فاكتفت برفع حاجبيها وخفضهما ، ثم عادت تزاوّل عملها بلا مبالاة ..

أما (بولين) نفسه ، فكان يرتجف من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، لأن ذلك الأمر العاجل ، الذي أراد أن ينجزه بسرعة ، كان أخطر مما ينبغي .. بل كان - في حقيقة الأمر - أخطر منعطف ، في حياته كلها ..

لقد قرر (بولين ألكسندر) أن يحارب فساد دولته بوسيلة خاصة وعجيبة للغاية ..

ينقل أسرارها إلى الخارج ..

وفي البداية ، اتصل (بولين) بضابط في المخابرات السوفيتية ، إلا أن المصريين التقطوا هذا الخيط ، وقرروا تحويل الفائدة إليهم ..

وفي الأيام القليلة التالية ، لاحظت (ماريا) تحولاً واضحاً في نهج (بولين) ، فقد بدا شديد التوتر والاكنتاب ، كثير الاعتزال في حجرته ، كما اتصلت به امرأة مجهولة مرتين ، مرة طلب بعدها سيارة أجرة ، وخرج إليها حاملاً حقيبة صغيرة ، وعاد ليعتزل مرة أخرى في حجرته ، والمرة الثانية أسرع خارجاً ، وهو شديد المرح .

وأيقنت (ماريا) أن الشاب يمر بتجربة حب جديدة ، ولكن أدهشها أن عاد يعتزل تماماً في حجرته ، وفي اليوم التالي زاره رجل ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، استقبله (بولين) في لهفة ، وقضى معه في حجرته ما يقرب من الساعة ، ثم هبط معه إلى البهو ، وودعه ، والتفت بسرعة إلى الهاتف ، وطلب تذكرة سفر إلى (قبرص) ..

ولم يكد (بولين) يصل إلى (قبرص) حتى اختفى تماماً ، وتحول إلى رجل آخر ، يحمل اسم (فريتز) ، وملامح مختلفة جديدة ، ويقيم في فندق (فلوكسونيا) ..

وبعد أسبوع واحد ، سافر (فريتز) بجواز سفر جديد ، على متن واحدة من طائرات شركة (مصر للطيران) ، إلى آخر مكان يمكن أن يتخيله أقرانه ومعجبهوه في (إسرائيل) ..

إلى (القاهرة) ..

في شقة خاصة ، في شارع (فؤاد) في قلب (القاهرة) ، وصل خبير التنكر في المخابرات المصرية ، وبدأ عمله لإزالة تنكر (بولين) ، الذي استعاد ملامحه الحقيقية ، التي لا تشبه أبداً صورته في جواز السفر ، الذي جاء به إلى (القاهرة) ، واتجه مباشرة إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ، حيث التقى بمدير المخابرات

شخصياً ، ودار بينهما حديث سرى للغاية ، انتهى بقول مدير المخابرات :

- والمعلومات التي سترسلها إلينا ، ليست أكثر ، ما يهمنا ، فنحن نريدها لتحول دون نشوب حرب في المنطقة ، وإما ما يهمنا بالفعل هو سلامتك .. حاول أن تحافظ عليها بقدر الإمكان ، ولو كان هذا على حساب المعلومات .

وخرج (بولين) من حجرة مدير المخابرات وهو من أشد المتحمسين للعمل مع المصريين ، الذين منحوه الرعاية والاهتمام الكافيين ، حتى إنه تناول إفطاره في اليوم التالي ، وسط مجموعة من شباب المخابرات ، يتوسطهم ضابط برتبة كبيرة ، ثم اصطحبه بعض هؤلاء الشباب إلى جولة سياحية في (القاهرة) ، انبهر (بولين) خلالها بالآثار المصرية القديمة وتوقف طويلاً أمام الهرم الأكبر ، قبل أن يقول :

- عظماء هم أجدادكم ، الذين أقاموا هذا الصرح الضخم ، ليذكركم دائماً ، بأنكم كنتم يوماً سادة هذا العالم .

وقبل عودته إلى (إسرائيل) تسلم (بولين) جهاز الاتصال اللاسلكي ، وآلة تصوير صغيرة ، وأخباراً سرية ، ثم غادر (القاهرة) إلى (أثينا) ، ومنها إلى (قبرص) ، حيث استعد شخصيته الحقيقية ، وجواز سفره الإسرائيلي ، وعاد إلى بيته في (بئر سبع) .

وكانت مرحلة خصبة للغاية ، في تاريخ المخابرات المصرية ، إذ إن موقع منزل (بولين ألكسندر) ودرأيته الواسعة بالشئون والمعدات العسكرية ، وجانبيته المعروفة ، واتصالاته الواسعة ، كانت كلها عوامل مناسبة ، لمنح (مصر) جاسوساً على أعلى مستوى .

وكانت كل التحركات العسكرية الإسرائيلية تجاه (إيلات) ، تبلغ المخابرات العامة المصرية ، حتى قبل أن تصل القوات إلى مواقعها هناك .

وعلى الرغم من أن (بولين) لم يتلق طوال حياته - سوى عشرين ألف دولار من المخابرات المصرية ، إلا أنه كان يعمل في حماس شديد ، لاقتناعه الشديد بمبدأ السلام ، ومنع اندلاع الحروب ، الذي تحدث فيه مع مدير المخابرات المصرية .

ولكن الأمر لم يستمر بهذه الروعة إلى النهاية ..

لقد ارتكب (بولين ألكسندر) خطأ واحداً ، ولكنه كان أكبر خطأ في حياته كلها ، عندما سعى لتجنيد عريف إسرائيلي يدعى (شالوم) للعمل معه .

وكان هذا (الشالوم) أحد رجال المخابرات الإسرائيلية ..

وفوجئ المصريون ببرقية شفرية من (بولين) ، يخبرهم فيها بعملية التجنيد هذه ، على الرغم من أنهم لم يطلبوا منه القيام بذلك .

والأدهى أن (بولين) صارح (شالوم) بأنه يعمل لحساب المصريين بل وبلغ حدًا في الثقة بالنفس ، جعله يرفض تحذيرات المصريين له ، ويتهمهم بالمبالغة في الشكوك والحذر .

أخيرًا ، أرسلت إليه المخابرات المصرية أحد مندوبيها ، الذي حاول إقناعه بخطأ تصرفه وخطورة موقفه ، وعندما عجز عن هذا ، جذبه إلى نافذة منزله ، وقال في حدة :

- انظر جيدًا إلى نهاية الطريق ، وستجد سيارة واقفة لتراقبك طوال الوقت لقد كشف (الموساد) أمرك يا رجل ، والأفضل أن تبادر بالفرار ، قبل أن يطبقوا عليك .

ولكن (بولين) سخر من هذا ، وقال :

- هذه السيارات تطوف (إسرائيل) كلها ، ووجودها هنا لا يعنى أبدًا أنهم يشكون في أمرى .

ثم أضاف في حزم :

- كما أنني أثق في (شالوم) تمامًا .

وهنا أدركت المخابرات المصرية أن (بولين ألكسندر) لم يعد يصلح للعمل ..

لقد أصبح مجرد ورقة محترقة ، كشف (الموساد) أمرها ، وأصبح من المحتم إخراجها من اللعبة ، في أقرب فرصة .

ولكن فجأة ، سافر (بولين) إلى (اليونان) وأرسل برقية إلى المصريين ، الذين تجاهلوا أمره ظاهريًا ، وتركوا رجال (الموساد) يتتبعونه في كل مكان في (اليونان) ، ثم أرسلوا خلف الجميع اثنين من مندوبيهم ، وهما (محمد حسونة المقرن) و(ماجد حلمي أندراوس) لمراقبتهم طوال الوقت .

ولم يكد (بولين) يفتح الباب حتى دلف إلى الحجرة رجل قوى ناوله ورقة مكتوبة وهو يشير إليه بقراءة الورقة ، التي تقول :

- أنت مراقب .. اتبع التعليمات بمنتهى الدقة ، لتهرب من هنا .

ثم أعطاه (باروكة) شعر ، وملابس جديدة ، أصبح (بولين) بعدها يحمل هيئة جديدة تمامًا ، نجحت في خداع مراقبي الموساد ، وهو يغادر حجرته بالفندق ، ويستقل المصعد ، ويهبط إلى المرقص ، حيث التقى بفتاة وشابين ، استقل معهم سيارة خضراء ، اتخذت طريقها إلى ميدان (أومونيا) ثم إلى شاطئ (أثينا) ، وبعدها انحرفت فجأة إلى شارع جانبي ، ومنه بسرعة إلى فيلا صغيرة ، حيث التقى باثنين من رجال المخابرات المصرية ، واجهه أحدهما قائلاً في حزم يمتزج بنبرة عطف واضحة :

- إننا نراقبك منذ وصولك إلى هنا ، ولكننا لم نتصل بك ، لأن الإسرائيليين كانوا يراقبونك .. ولتعلم أنه ليس أمامك سوى حلين

لا ثالث لهما .. إما أن تسافر إلى (مصر) حيث تحيا معنا هناك حتى آخر عمرك ، ضيفاً معززا مكرماً ، جزاء ما قدمت لنا من خدمات ، وهذا سيسعدنا كثيراً ، أو ترحل إلى حيث تشاء ، بشرط أن تنسى كل صلة لك بنا ، فقد تجاوزت اتفاقنا ، وأصبحت عميلاً محترفاً ، لا يصلح للعمل .

كانت فرصة العمر بالنسبة لرجل مثل (بولين ألكسندر) ولكنه رفضها بعناد عجيب ، وحاول إقناع المصريين مرة أخرى بأنه ما زال صالحاً للعمل ، وبأنهم مبالغون في شكوكهم ، بل وعرض عليهم توسيع شبكة معلوماته في (إسرائيل) وتجنيد عدد أكبر للعمل لحساب المصريين و ...

وأدرك المصريون أنه لم تعد هناك فائدة من هذا العميل قط ، وأن عناده وغباءه سيلقيان به إلى الجحيم حتماً سواء داخل (إسرائيل) أو خارجها ..

خاصة وقد قرر العودة بقدميه ، إلى (إسرائيل) كنوع من التحدي لإثبات صحة نظريته ، وقدرته على توسيع نطاق عمله هناك .

ولأن (بولين) صار ورقة محترقة حتى النهاية ، قرر المصريون الاستفادة منها إلى أقصى حد ، بدلاً من خسارة كل شيء ..

وفي اليوم التالي مباشرة ، كان هناك عميل مصري ، في هيئة

تاجر دراجات فرنسي ، يلتقى بالمصري (رفعت الجمال) ، الذي يقيم في (إسرائيل) منذ سنوات ، باسم (جاك بيتون) ، ويقول له :

- هل تذكر العميل (بولين ألكسندر) ، الذي حدثناك عنه من قبل ؟

وعندما أجابه (بيتون) بالإيجاب ، استطرد الرجل :

- نريدك أن تعد كل الترتيبات ، للإبلاغ عنه ، باعتباره عميلاً للمخابرات الألمانية .

بدت الدهشة على وجه (جاك بيتون) ، وهو يقول :

- هل نبغ عن أحد عملائنا !؟

أجابه الرجل بنبرة حزينة :

- هذا ليس بالأمر المبهج ، ولسنا سعداء باتخاذ مثل هذا الإجراء ،

ولكن (بولين) جعل من نفسه عميلاً محترفاً ، بعناده وإصراره

وغبائه ، واختار أن يلقي بنفسه في الجحيم ، وما دامت لا توجد

وسيلة لإنقاذه ، أو منعه من السقوط في أيدي المخابرات الإسرائيلية ،

فالأفضل أن نستفيد من مثل هذه الفرصة ، لتقوية مركزك ، وإظهار

وطنيتك وإخلاصك ، وتدعيم صلاتك بالمسؤولين .

كان (جاك بيتون) يشعر بالاستهجان تجاه هذا العمل ، إلا أنه

لم يلبث أن استوعب الموقف كله ، وأدرك بحسه الأمني أن إنقاذ

(بولين ألكسندر) صار مستحيلاً ، ومن الأفضل بالفعل الاستفادة من الموقف لصالحه .

وكان له هذا ..
لقد صافحه مسنول (الموساد) في حرارة بالغة ، وهو يودعه خارج مكتبه ، وأثنى كثيراً على وطنيته وحماسه ، ولم يخبره بأنهم يعلمون بأمر (بولين) مسبقاً ، ولكنه ذكر هذا في تقريره السري ، الذي حصلت المخابرات المصرية على صورة واضحة منه فيما بعد ..

وبكل عناد وسذاجة ، استقل (بولين) الطائرة ، عائداً إلى (تل أبيب) حيث استقبله رجال (الموساد) وحملوه مباشرة إلى السجن ..

وطوال محاكمته ، أنكر (بولين) تماماً صلته بأجهزة المخابرات لأية دولة ، ونسى أنه يحاكم بتهمة التجسس ، فحول المحاكمة إلى قاعة ندوات ، راح يلقي فيها محاضراته ومواظمه الطويلة عن العنصرية ، والتفرقة بين طوائف اليهود ، وفساد رجال السلطة والجيش ، ورفض الدفاع عن نفسه تماماً ..

وفي النهاية ، صدر الحكم بسجنه مدى الحياة ، في حين تلقى (جاك بيتون) خطاب شكر طويلاً من المخابرات الإسرائيلية ، لم

يدرك مرسلها أنه إذا كان هناك عميل قد احترق ، فما زال هناك آخر على القمة ، لم يحترق بعد .

ولن يحترق أبداً .
عميل يدعى (بيتون) أو المصري (رفعت الجمال) .

هذا هو العقيد (محمد) ، من إدارة مكافحة الإرهاب .
هو العميل بمصافحة العقيد (محمد) ، ولكن هذا الأخير لم يتبين أنه (موساد) بل كان من (البحر الأحمر) .
بسطت تارنته تحت يده ، لقد كلفه ذلك عفاً .
صعدوا لكي يصل رتبة عقيد ، ولكن لم يستطعوا .
أصل في مكتب مكافحة الإرهاب ، بل في مكان آخر كمن أفضى .
(الكلمة) :
تطلع عليه (البحر الأحمر) في جريدة (البحر الأحمر) .
في جريدة (البحر الأحمر) ، ربحها ربحاً عظيماً .
(الكلمة) :
بالمقارنة مع غيره في نفس الرتبة ، فهو من أفضل من غيره .
تحدثت ككثيراً في جريدة (البحر الأحمر) ، ولكن لم يرد عليه .
الأمور ..

جاسوس الميناء

ازدحم ميناء (الإسكندرية) ، في ذلك الصباح ، السادس من مارس 1975م ، بعدد كبير من عمال الشحن والتفريغ ، الذين اصطفوا أمام واحد من أشهر مكاتب خدمة البواخر والتخليص الجمركي في ذلك الحين والتابع لشركة ملاحية إيطالية والمملوك لرجل أعمال معروف ، يحمل اسم (جلال عبد الغفور) صاحب التوكيل الوحيد باسمها ، في (الإسكندرية) كلها؟؟

وفي أحد الأركان ، مال أحد العمال على أذن زميله ، وهمس :

- سبحان العاطي الوهَّاب .. هل تذكر (جلال عبد الغفور) هذا؟! .. لقد كان زميلاً لنا ، منذ عشر سنوات فحسب .

تتهد زميله ، وهمس بدوره ، وهو يتلفت حوله ، خشية أن يسمعه أحد رجال (جلال) :

- ليته كان كذلك فحسب .. لقد كوَّن ثروته من سرقات الجمارك .

بتر كلاهما حديثه ، مع وصول تلك الرجل الوقور ، الذي اعتاد زيارة (جلال عبد الغفور) ، والذي اعتاد الجميع تسميته بالحاج (محمد) ، وأفسحا له الطريق ، مع مَنْ فَعَلَ من العمال ، حتى وصل إلى داخل المكتب ، وخلفه رجلان آخران ، واتجه إلى السكرتيرة ، قائلاً :

- هل (جلال) بك هنا ؟

نهضت السكرتيرة بسرعة ، تفتح له باب مكتب (جلال) ، وهي تقول في حرارة :

- نعم .. إنه هنا .. تفضل يا حاج (محمد) .

دخل الرجل وزميلاه إلى مكتب (جلال) ، الذي نهض يستقبلهم في حرارة ، على الرغم من وجود أحد العملاء في مكتبه ، وقال وهو يقدم الحاج (محمد) للعميل :

- هذا هو العقيد (محمد) ، من إدارة مكافحة التهريب .

همَّ العميل بمصافحة العقيد (محمد) ، ولكن هذا الأخير لم ينتبه إليه ، وهو يقول في صرامة وحزم عجيبين :

- خطأ يا (جلال) .. صحيح أنني أحمل رتبة عقيد ، ولكنني لست أعمل في مكتب مكافحة التهريب ، بل في مكان آخر أكثر أهمية ..

تطلَّع إليه (جلال) في حيرة وتساؤل ، فأضاف الحاج (محمد) في هدوء حازم :

- أنا عقيد في المخابرات العامة المصرية يا (جلال) .

انتفض العميل في هلع ، وسحب يده في سرعة وذعر ، في حين تجمَّدت مشاعر (جلال) كلها ، وانعقد لساتاه في دهشة بلغت حد الذهول ..

لقد كانت المفاجأة تعنى أن أمره قد انكشف وأنه لم يعد بالنسبة لهم رجل الأعمال وصاحب التوكيلات البحرية المعروف .. لقد عرفوا أنه جاسوس ..

جاسوس لحساب (إسرائيل) ..

كانت البداية أيضًا في الميناء ..

ولم تكن كالتنهاية سليمة أو شريفة ..

صحيح أن (جلال) كان يحمل تصريحًا بدخول الميناء ، والعمل داخله كعامل شحن وتفريغ ، إلا أنه لم يكتف أبدًا بهذا العمل الشريف ، على الرغم مما يدره من دخل معقول ، وإنما لجأ إلى وسيلة بعيدة كل البعد عن الشرف ..

إلى السرقة ..

وبرع (جلال) في وسائل ابتكار السرقات ، وتضاعف دخله من المال الحرام ، فراح ينفقه أيضًا في الحرام ، ويخسر معظمه كل ليلة على موائد القمار ، في القهوة التي اعتاد الجلوس إليها يوميًا ..

وكلما خسر (جلال) أكثر ، صارت حاجته إلى المال الحرام أكثر وأكثر ..

ولم يتوقف (جلال) عن لعب القمار ، إلا بعد أن تزوج ابنة خالته (عزيزة) ، التي سألته في ساعة صفاء :

- أتحبني يا (جلال) ؟

هتف بكل حرارته وحماس :

- أكثر من نفسي يا (عزيزة) .

مالت عليه وقالت في رجاء ، مزجته بكل دلالتها وحنانها :

- أريد أن أحيا بنقود حلال .. لا قمار ولا سرقة ..

ولم يتردد (جلال) بل قال في حسم :

- فليكن .. لا سرقة ولا قمار بعد اليوم وتوقف (جلال) عن لعب القمار ..

ولكنه لم يتوقف عن السرقة ..

لقد حاول ، ولكنه فشل لأن عمله شيال ، لم يكن يكفي متطلباته العديدة ، التي تتجاوز مستواه المعيشي والاجتماعي بكثير ..

ولكن حتى هذا لم يدم ..

لقد وقع (جلال) مرة في أيدي السلطات ، التي كشفت هروبه من التجنيد ، فأرسلته ليقضى فترة التجنيد الإجباري ، في سلاح المشاة ..

ولكن (جلال) لم يحتمل ..
لقد هرب من الجيش ، وعاد يعمل لص ميناء متسللاً ، حتى
ألقت الشرطة العسكرية القبض عليه ، وقضى فترة في السجن
الحربي ، حتى حرب 1967م ..

ومع اندلاع الحرب ، تم الإفراج عن كل المجندين ، في السجن
الحربي ، ليلتحقوا بوحداتهم ، ولكن (جلال) استغل الفرصة
ليهرب مرة ثانية ، ويعود للسرقة في الميناء ..

وفي هذه المرة ، حوكم (جلال) أمام مجلس عسكري ، وقضى
مدة سجنه كاملة ، حتى أفرج عنه ، في أوائل السبعينات ..

وفي هذه المرة ، قرر (جلال) أن يسافر للعمل في (روما) ..
كان يرقد إلى جوار (عزيزة) ، التي انهمكت في إرضاع طفلها ،
عندما قال فجأة :

- لقد قررت السفر إلى (روما) .
بُهِتت (عزيزة) في البداية ، وأرقت الصغير على الفراش ، وسألته :

- ألا يوجد عمل هنا ؟
شرح لها كيف أن كل أبواب العمل قد أغلقت في وجهه ، وأنه
لم يعد أمامه سوى هذا الحل ..

وصدقته (عزيزة) بلا تردد ، بل واستدانت من جاراتها مائة
جنيه ، وأعطتها له ليسافر حتى لا يضطر إلى السرقة ، للحصول
على مصاريف السفر ..
وسافر (جلال) ..

سافر وهو يحلم بالعمل والثراء والرفاهية ، ولكن لم يمض شهر
واحد في (روما) ، حتى تضاعلت أحلامه إلى لقمة العيش فحسب ..
ولم يجدها ..

وضاقت كل السبل أمام (جلال) ، وراحت صاحبة (البنسيون)
تطلبه بأجر الإقامة ، وهو يتهرب منها مرة ، ويقضى ليلته ساهراً
مرة أخرى ..

وفي ذات يوم ، وأثناء هروبه من رجال الشرطة ، في قلب
(روما) ، وجد (جلال) أمامه طابوراً ينتظر ، أمام مبنى من طابقين ،
فانضم إليه ، وتظاهر بانتظار دوره ، حتى يبتعد رجال الشرطة ،
دون أن يدري أنه يقف في طابور ، أمام مكتب العمل ، في
القنصلية الإسرائيلية في (روما) ..

وفوجئت سكرتيرة المكتب بجواز سفره المصري ، وصارحته
بطبيعة المكتب ، ولكنها حاولت تهدئته ، وإقناعه بأنه الآن في
(روما) ، وليس في (مصر) ، ولا ضرر في عمله مع الإسرائيليين ..

وغادر (جلال) المكتب قلقًا ، وعاد من فوره إلى (البنسيون) ،
دون أن يدرك أن دخول الحمام ليس مثل خروجه ، فما بين
الدخول والخروج ، تغيرت أشياء كثيرة ..

أشياء بالنسبة للمخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، وأخرى
بالنسبة لمخابراتنا .. المخابرات المصرية ..

فبالنسبة للإسرائيليين ، أدهشهم موقف (جلال) كثيرًا ، وشك
بعضهم في أنه مدسوس ، من قبل المصريين ، في حين أكد
البعض الآخر أنه من المستحيل أن يلجأ المصريون إلى عمل
ساذج ومفضوح إلى هذا الحد ..

وقرر الإسرائيليون المضي في اللعبة حتى النهاية ..

وفي المساء نفسه ، انضمت إلى نزلاء (البنسيون) فتاة باهرة
الحسن ، مدت فور وصولها جسور الود بينها وبين (جلال) ،
الذي بهر بها ، وذاب في سحر عينيها ، وأسلم قياده لها تمامًا ،
حتى إنه قضى الليل في حجرتها ، ومع الفجر ، كان يقص عليها
قصة ذهبه إلى القنصلية الإسرائيلية ، وعرضهم العمل عليه ، فأجابته
الحسنة في دلال :

- ولم لا؟! .. الإسرائيليون يدفعون جيدًا .

ثم غمزت بعينها ، وأضافت :

- خاصة مع نوع سرى من الأعمال .

وفهمها (جلال) على الفور ..

ولم يعترض ..

وفي الصباح ، قادت الفتاة بنفسها - وحسب الأوامر التي تلقتها -
إلى زملائها في السفارة الإسرائيلية ، واعتبرت بذلك أن دورها
قد انتهى ..

وفي السفارة الإسرائيلية ، سألت السكرتيرة (جلال) في حسم :

- ما العمل الذي تطلبه هنا بالضبط يا (جلال) ؟

أجابها (جلال) في اقتضاب وحزم شديدين :

- جاسوس .

وانتفضت السكرتيرة في مجلسها ..

وانتفض معها جهاز (الموساد) كله ..

كان الأسلوب الذي اتبعه (جلال) مباشرًا إلى حد الإرباك ،
وصريحًا إلى حد الذهول .. ولكن أحدًا لم يرفض هذا العرض ..

كل ما فعلوه هو أن طلبوا منه كتابة كل المعلومات عن نفسه
وحياته ، ثم اتصلوا برجلهم في (الإسكندرية) ، وطلبوا منه
التأكد من كل هذا ..

وجاء الرد بالإيجاب ، معنًا أن كل المعلومات ، التي نكرها (جلال)
حقيقية تمامًا ..

وهنا التقى (جلال) بضابط (الموساد) الإسرائيلي (جان) ، الذي
أعلنه بقبول عمله مع جهاز (الموساد) ، ثم منحه جواز سفر
إسرائيليًا ، باسم (دافيد شالوم) وطلب منه السفر إلى (تل أبيب) ،
للحصول على التدريبات اللازمة ..

أما المخابرات المصرية ، فقد التقط رجالها صورة (جلال) ،
وهو يدخل القنصلية الإسرائيلية ، وراقبوا (جلال) نفسه ، وهو
يذهب إلى السفارة ، وسجلوا حديثه ومقابلته مع (جان) ، ثم
اجتمعوا في الطابق الخامس ، من مبنى المخابرات العامة المصرية ،
لدراسة الأمر ، وفحصه ، وتفنيده ، واتخاذ القرار المناسب فيه ..

وكان العقيد (محمد) ، أو الحاج (محمد) ، هو المسئول عن هذه
العملية ، وهو الذي أصر في البداية على تحذير (جلال) ، بشكل
غير مباشر ، قبل التعامل معه باعتباره جاسوسًا ؛ لأن هدف
المخابرات ليس إلقاء القبض على الجواسيس فحسب ، ولكن منع
سقوطهم في فخ الجاسوسية أيضًا ..

والحق يُقال ، لقد حاول رجال المخابرات المصرية تحذير (جلال)
أكثر من مرة ، خلال فترة عمله مع (الموساد) ، ولكن جشعه

وشراسته للمال أعميا بصره ، ولم ينتبه إلى تلك المحاولات قط ،
وواصل العمل لحساب المخابرات الإسرائيلية حتى النهاية ..

وتلقى (جلال) ثلاثة تدريبات في (تل أبيب) ، كافأه الإسرائيليون
بعدها بمبالغ ضخمة من الدولارات ، وبرتبة رائد في الجيش
الإسرائيلي ، تحت اسمه المستعار (دافيد شالوم) ، ثم ساعده
على الحصول على توكيل شركة ملاحه إيطالية لخدمة بواخرها
في ميناء (الإسكندرية) ..

وبدأ (جلال) مرحلة التجسس الحقيقية ..

وكان جاسوسًا جمّ النشاط ، يُجيد جمع وتصنيف المعلومات ،
وإرسالها إلى (تل أبيب) ، بواسطة الحبر السري ، الذي سلمه
إياه الإسرائيليون ..

وذاع صيت مكتب (جلال عبد الغفور) وفرحت (عزيزة)
لثراء زوجها ، الذي صار واحدًا من رجال الأعمال المعروفين في
الميناء ، وصار له مكتب فخم ، وسكرتيرة حسناء ..
وهذه السكرتيرة بالذات كانت تحتاج وحدها إلى قصة ..

لقد وقع (جلال) في غرام سكرتيرته (سونيا) وهام بها ، حتى
إنه عرض عليها الزواج ، في الوقت نفسه ، الذي اتصل فيه العقيد
(محمد) بالسكرتيرة ، وقدم لها نفسه باسم العقيد (محمد) ، من

مكتب مكافحة التهريب ، وطلب منها العمل لحسابه ، والتجسس على (جلال) ، مدعيًا أنه شك في أن (جلال) يعمل بالتهريب ..

وتجسست (سونيا) على (جلال) ، ونقلت كل تحركاته للعقيد (محمد) ، حتى بعد أن تزوجت (جلال) وحصلت منه على عمارة كاملة ، سجلها باسمها ، في أرقى أحياء (الإسكندرية) ..

ولكن (جلال) كشف أمر العلاقة ، بين (سونيا) والعقيد (محمد) ، وواجه زوجته الثانية بها في ثورة غضب ، فاعترفت (سونيا) له بكل شيء ..

وصعق (جلال) ، وقرر أن يتأكد من أن العقيد (محمد) يعمل بالفعل ، في مكتب مكافحة التهريب ، فطلب من (سونيا) إبلاغ العقيد (محمد) ، عن محاولته تهريب شحنة من الذهب ، في السفينة التالية ..

وأبلغت (سونيا) العقيد (محمد) ، الذي تظاهر بالاهتمام ، وفهم على الفور لعبة (جلال) ، وتعاونت معه إدارة مكافحة التهريب ، وأطبقوا على (جلال) ، وهو يتحدث إلى قبطان السفينة ، ويتسلم منه صندوقًا ، وقدم له العقيد (محمد) نفسه ، بصفته أحد ضباط مكافحة التهريب ، وأبرز بطاقة رسمية تحمل هذه الصفة ، قبل أن يكشف أن الصندوق لا يحوى سوى بعض زجاجات الخمر ..

وكان العقيد (محمد) يتوقع هذا ، ولكنه شعر بالارتياح ، لأن (جلال) يثق الآن في أنه ضابط مكافحة تهريب .. بل يحاول مد جسور الصداقة بينهما ، ورشوته ، ليستغل سلطاته في التهريب فعليًا ..

وارتبط به العقيد (محمد) وساعده بالفعل في تهريب بعض البضائع ، حتى اكتسب ثقته تمامًا ، ولكنه فوجئ بأمر مذهل .. لقد أنهى (الموساد) تعامله مع (جلال) ..

أنهاه قبل أن يحصل هو على دليل إدانة يتيح له محاكمته بتهمة الجاسوسية .. ولكن القدر أبى أن ينجو الجاسوس ..

لقد اندلعت حرب أكتوبر 1973م ، وجن جنون الإسرائيليين ، وأصبحوا في أمس الحاجة لكل رجل من رجالهم في (مصر) ، فعاودوا الاتصال بـ (جلال) ، وطلبوا منه الحضور فورًا إلى (تل أبيب) ، وهناك استقبلوه في حرارة ، ثم قدموا له أكبر مفاجأة في حياته ..

زوجته الثانية (سونيا) .. لقد كانت تعمل لحساب (الموساد) منذ البداية ..

ومع ذهوله ، شرح له الإسرائيليون كيف أنهم دفعوا (سونيا)
فى طريقه ، وجعلوها تتجاوب مع العقيد (محمد) ، وتنقل إليه
أسراره ، حتى تأكدوا من أنه ضابط بمكافحة التهريب ، وليس
ضابطاً للمخابرات العامة ..

وفى هذه المرة ، حصل (جلال) على تدريبات مكثفة ، وعلى
عقد مع شركة إنجليزية استثمارية ، وعلى جهاز إرسال قوى ،
وآلات تجسس وتصوير حديثة ، وكتاب سفرة ، ومهمة جديدة
أكثر خطورة ..

وعرفت (عزيزة) بأمر الزواج الثانى لزوجها (جلال) ، فطلبت
الطلاق ، وانعزلت مع ابنها وابنتها فى منزلهم القديم ، على الرغم
من محاولات (جلال) المستميتة لتوفير مسكن لائق لهم .

أما (جلال) فقد توطدت صلته أكثر وأكثر بالحاج (محمد) ،
وراح يتلقى كل رسائل (الموساد) وتعليماته ، وينفذ أوامره
بمنتهى الدقة ، دون أن يخطر بباله ، ولو للحظة واحدة ، أن
الحاج (محمد) كان يقرأ كل تلك الرسائل ، قبل أن تصل إليه ..

أو بمعنى أدق .. كان يقرأ الرسائل الحقيقية ..

فنظراً لأن الحبر السرى لا يمكن إخفاؤه مرة أخرى ، بعد
إظهاره ، فقد لجأ العقيد (محمد) إلى خطة بالغة الذكاء والتعقيد ،
لقراءة كل ما يصل إلى (جلال) ..

لقد أحضر خبيراً للخطوط ، وأوراقاً من نفس النوع واللون ،
الذى تكتب عليه الخطابات ، ثم راح يفتح الخطابات ، ويطلب من
خبير الخطوط كتابتها بنفس الخط ، ثم يظهر الحبر السرى ،
ويستخدم نفس الحبر ، مع خبير الخطوط ، لكتابة التعليمات نفسها ،
فى الخطاب البديل ..

وهكذا كان (جلال) يتلقى خطابات كتبتها فى الواقع المخابرات
المصرية ، ولكنها تحوى نفس ما كتبه المخابرات الإسرائيلية ،
وفى نفس الوقت كان المصريون يمنحونه ما يريدون من معلومات
ليرسلها إلى (الموساد) ، وهو يتصور أنها ، معلومات حقيقية ..
ولكن (جلال) وقع يوماً على معلومات حقيقية بالغة الخطورة ،
وشديدة السرية ، ووصولها إلى الإسرائيليين يُعد كارثة بكل
المقاييس ، لذا كان من الضرورى منعه من إرسال هذه المعلومات ،
مهما كان الثمن ..

وهذا ما كان ..

حاول (جلال) فى البداية إنكار التهمة ، ولكن العقيد (محمد)
واجهه بكل الأدلة والبراهين ، وقال فى حزم :

- لا فائدة يا (جلال) .. نحن نعرف كل شيء عن (جان) و(سونيا) .. ونعرف أيضاً اسمك ورتبتك في (إسرائيل) ، أيها الرائد (دافيد شالوم) .

وهنا انهار (جلال) واعترف ، وسلم الكربون السرى والشفرة للعقيد (محمد) ، ووقع اعترافاً تفصيلياً بكل ما فعله ..

وحوكم (جلال عبد الغفور) بتهمة التجسس والخيانة ، وقرر قضاؤه إحالة أوراقه إلى المفتى ، الذى أيد الحكم بإعدامه ..

ولكن (جلال) أبى حتى أن يتوب عن جرائمه ، بل أصر على الموت كافرًا خسيسًا .. وانتحر (جلال) فى سجنه ..

انتحر لينهى بانتحاره واحدة من أشهر وأخطر قضايا الجاسوسية فى (مصر) ..

قضية جاسوس الميناء .

* * *

نظراً لأن الخبر السرى لا يمكن اختراعه مرة اخرى ، بعد استخدامه فى المرة الأولى ، فالتحقق من صحته فى كل مرة ما يصل إلى عدة أشهر ، فالتحقق من صحته فى كل مرة ما يصل إلى عدة أشهر ..

زواج .. وحب .. وجاسوسية ..

شعر اليهودى الإسرائيلى (عروف) بسعادة بالغة ، وهو يقضى إجازته السنوية فى العاصمة البرازيلية ، وراح يتحدث مع شقيقه المقيم هناك فى حماس كبير ، ويصف له ما فعله فى مستعمرة (برور حاييم) ، حيث يعيش فى (إسرائيل) ، حتى أمكنه ادخار مبلغ كاف للقيام بمثل هذه الإجازة الممتعة ، وانهمك معه فى حديث طويل ، حتى قاطعهما صوت هادئ يقول :

- هل ترغبان فى الحصول على صورة تذكارية ؟

استدار (عروف) ليواجه رجلاً ضخماً الجثة ، روماتى الأنف أسود العينين ، بيتسم فى هدوء ، وهو يحمل آلة تصوير عتيقة ، تتناسب حالتها مع ثيابه ، التى تبدو - على الرغم من نظافتها - قديمة مزرية ، وقبل أن يفتح (عروف) شفتيه لينطق ، سمع شقيقه يقول مبتسماً :

- لا بأس يا (إسحق) .. التقط لنا صورة .

تهللت أسارير (إسحق) ، والتقط لهما الصورة ، ثم قال فى حماس :

- ساعة واحدة وأحضرها لكما .

ولم يكد (إسحق) بيتعد ، حتى التفت (عروف) إلى شقيقه ،
وسأله :

- من هذا الرجل ؟

ابتسم شقيقه ، وهو يجيب :

- إنه (إسحق بن سالمون) .. يهودى مثلنا ، كان دائم التردد
على المعبد اليهودى فى شارع (عدلى) ، عندما كنا فى (القاهرة) ،
وهو شديد التدين ، يعشق الاستماع إلى المزامير ، ويحفظ أسفار
(موسى) الخمسة عن ظهر قلب .

هتف (عروف) فى إعجاب وانبهار :

- حقاً؟!!

تابع شقيقه ، فى حماس واضح :

- لقد فر من (القاهرة) إلى (ريودى جانيرو) ، وعاتى الأمرين
هناك ، حيث عاش حياة الفقر والعوز ، ثم ابتاع آلة التصوير
القديمة هذه ، ونزح إلى العاصمة ، وها هو ذا يعمل ليسد رمقه .
سأله (عروف) :

- ولماذا لم يسافر إلى (إسرائيل) ؟

قال شقيقه مبتسماً :

- هذا حلمه الأعظم ، ولكنه لا يمتلك المال الكافى للسفر .

صمت (عروف) لحظات مفكراً ، ثم قال فى حزم :

- سادعوه إلى هناك .

ولم تنته إجازة (عروف) حتى كان كان قد وطد صلته مع
(إسحق بن سالمون) ، واصطحبه معه على متن الباخرة (تيبال)
إلى (حيفا) ، ثم دعاه للإقامة فى ضيافته يومين ، فى مستعمرة
(برور حاييم) ، وبعدها تركه يرحل ليتخذ مكانه فى مستعمرة
(تحيا) ، ويتلقى دروس اللغة العبرية ، كإى مهاجر جديد ، وهو
يشعر بالسعادة ، لأنه جلب إلى (إسرائيل) مواطناً مخلصاً ، دون
أن يخطر بباله ، ولو لحظة واحدة ، أن (إسحق بن سالمون)
هذا ليس يهودياً على الإطلاق ..

إنه قبضى يونانى ، من أصل إيطالى ، واسمه الحقيقى ليس
(إسحق) ، بل (ألبرتو) .. (ألبرتو كورين) ، ثم إنه لم ولن
ينتمى أبداً لدولة (إسرائيل) ..

هذا لأنه يعمل من أجل دولة أخرى ..

من أجل (مصر) ..

عاش (ألبرتو كورين) معظم حياته فى (مصر) ، وعلى الرغم من أنه ليس أحد أبنائها ، إلا أنه كان يحمل لها فى أعماقه حباً وانتماءً عجيبين ، جعلاه يشارك الفدائيين المصريين قتالهم فى منطقة القناة ، ويقاوم فى صفوف أبناء (بورسعيد) ، أثناء العدوان الثلاثى عام 1956م ، ببسالة منقطعة النظير ، وفدائية تثير الانتباه والإعجاب ، مستغلاً ملامحه الأجنبية ، وإجادته التامة للإنجليزية والإيطالية واليونانية والعربية ..

وعندما جاءت مرحلة الهدوء النسبى ، بعد العدوان الثلاثى ، شعرت الدماء الحارة فى عروق (ألبرتو) بالتوتر والقلق ، وسرعان ما ملّ حياة الهدوء والبساطة ، فاتجه ذات يوم إلى مبنى المخابرات العامة ، وقال بكل وضوح :

- أريد أن أعمل معكم ، وأعتقد أنه باستطاعتى تقديم خدمات كبيرة لكم ، وعلى الرغم من أن قواعد المخابرات ترفض ضم المغامرين والمتطوعين عادة ، إلا أن ملف (ألبرتو) الضخم هناك جعلهم يستثنونه من هذه القاعدة ، ويجرون معه اتصالاً مباشراً ...

وفى مطعم هادئ فى الهرم ، تبادل (ألبرتو) حديثاً طويلاً مع مندوب المخابرات ، وشرح له ما لديه ، وتحدث بحماس كبير عن مهاراته ، ورغبته فى وضعها كلها فى خدمة (مصر) ، التى يعشقها ويعشق شعبها ، منذ وضع قدميه فيها لأول مرة .

وظلّ (ألبرتو) ينتظر الجواب أياماً فى قلق ، حتى وصله أمر بالسفر إلى (الإسكندرية) والإقامة فى فندق (سيسيل) ، والانتظار حتى يتلقى أوامر أخرى ..

وفى (الإسكندرية) ، قضى (ألبرتو) عشرة أيام فى إجازة إجبارية ، لم يجد ما يفعله خلالها سوى أن يتنزّه ويترىض ، ويتطلع إلى البحر طويلاً ، دون أن يتلقى أية أوامر أخرى ، أو يلتقى بأحد ..

وأخيراً وجد رسالة فى انتظاره ، ولكنه لم يكدها حتى ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، فلم يكن المظروف يحوى سوى تذكرة سينما ..

وأسرع (ألبرتو) إلى السينما ، وقاده العامل إلى مقعده ، ولم تكده الأنوار تختفى ، حتى سمع الجالس إلى يمينه يهمس :

- أنا صديق .. بعد انتهاء العرض ستجندنى داخل سيارة زرقاء ، فى أول حارة إلى يمين السينما .

ولأنه يمتلك موهبة حقيقية فى هذا المجال ، لم ينبس (ألبرتو) ببنت شفة ، ولم يتبادل كلمة واحدة زائدة مع جاره ، حتى انتهى العرض ، فأسرع إلى أول حارة إلى يمين السينما ، وراه يجلس داخل السيارة الزرقاء ، فدخل إلى جواره ، وانطلقت السيارة على الفور .

ولاحظ (ألبرتو) أن السيارة تنطلق خارج (القاهرة) فسأل
الرجل فى قلق :

- وماذا عن حاجياتى ، التى تركتها فى الفندق ؟

أجابه الرجل فى هدوء :

- لا تفكر فى مثل هذه الأمور البسيطة ... أشياءك كلها فى
حقيبة السيارة ، ولقد دفعنا حساب الفندق ، مع بقشيش مناسب .

وعندئذ أدرك (ألبرتو) أنه يعمل مع جهاز لا يستهان به ،
فاسترخى فى مقعده ، وترك السيارة تنطلق به ، حتى وصل إلى
فيلا فى (مصر الجديدة) ، وهناك تلقى تدريبات مدروسة ومكثفة ،
حولت من مجرد هاوٍ موهوب ، إلى محترف ..

لقد ألمَّ بجانب كبيرة من العبرية ، وبكيفية التعامل مع أجهزة
اللاسلكى ، وأدوات التصوير ، وأصبح خبيراً فى فتح الخزائن ،
والتخلص من المطاردات والرقابة ، والتخفى ، و ...

باختصار ... أصبح (ألبرتو كورين) الذكى الموهوب عميلاً
لا يستهان به ، قليل الأخطاء ، سريع الاستيعاب ، قادراً على
تقمص شخصيته الجديدة بمهارة مذهلة تستحق التقدير والإعجاب ..

وفى الأسبوع التالى مباشرة ، قضى (ألبرتو) يومين فى

المستشفى ، حيث أجريت له عملية ختان ، أنهت صلته بماضيه ،
ومنحته جواز سفر إلى عالم آخر ..

عالم اليهود ..

وبعد العملية ، بدأت مرحلة جديدة فى حياة (ألبرتو) ..

مرحلة زرعه فى المجتمع والأوساط اليهودية ..

وعلى نحو هادئ ومنظم ، بحيث لا يثير الشكوك أو القلق ،
راح (ألبرتو) يتردد على المعبد اليهودى فى شارع (عدلى) ،
ويتلقى تعاليم الديانة اليهودية فى خشوع واهتمام ، وقدرته
المدهشة على الاستيعاب تجعله يحفظ الأسفار كاملة ، ويبدو أمام
الطائفة اليهودية كيهودى ملتزم ملتزم مخلص ..

ومنذ ذلك الحين ، حمل (ألبرتو) اسم (إسحق بن سالمون) ، الذى
يعانى من الاضطهاد ، ويحلم بالفرار من (مصر) إلى أى مكان آخر .

ثم سافر (ألبرتو) إلى (ريودى جانيرو) ..

وعلى الرغم من الحياة القاسية المضنية ، التى عاشها (ألبرتو)
فى (ريودى جانيرو) ، إلا أن الرضا كان واضحاً على ملامحه
وأسلوبه ، وكأنما يشعر بالسعادة ، لأنه يتحمل كل هذا من أجل
الوطن الذى عشق كل ذرة فى ترابه ..

من أجل (مصر) ..

والطريف أن اليهود والمهاجرين كانوا كثيرًا ما يشفقون على (ألبرتو) ، الذى ينتقل من مهنة وضيفة إلى أخرى أكثر وضاعة ، تكفى بالكاد لسد رمقه ، ويستمعون إلى روايته ، التى لا يمل ترديدتها أبدًا ، حول فراره من الاضطهاد ، واضطراره إلى السفر ، وحلمه بالذهاب إلى أرض الميعاد (إسرائيل) ، ثم يمنحونه وجبة ساخنة ، أو بعض النقود ، التى يتقبلها شاكرًا ممتنًا ..

وعلى الرغم من حياة التقشف والفاقة التى كان يعيشها ، لم يتوقف (ألبرتو) قط عن أداء الصلوات والعبادات اليهودية ، والذهاب إلى المعبد كل سبت ، وحفظ المزيد من المزامير ، وهو يقيم فى حجرة متواضعة ، فى منزل متهالك قديم ..

ثم انتقل (ألبرتو) إلى العاصمة ، ولم تختلف حياته فيها كثيرًا ، عن تلك التى عاشها فى (ريودى جاتيرو) ، باستثناء أنه ابتاع آلة التصوير العتيقة ، وأصبحت له مهنة شبه ثابتة ، وهى التصوير .

وفى العاصمة ، التقى (ألبرتو) باليهودى الإسرائيلى (عروف) وكان ما كان ...

منذ وضع (ألبرتو) قدميه فى مستعمرة (تحيا) ، انقطعت صلته تمامًا بالمخابرات المصرية ، فلم يتصل به أحدهم ، أو حتى

يحاول هذا ، ولم يعرف بوجوده داخل (إسرائيل) سوى عدد قليل للغاية من ضباط الإدارة ، الذين يتصلون بالموضوع بشكل مباشر .. أما (ألبرتو) نفسه ، فكان فى غاية السعادة والسرور ، لأنه - كما كان يتصور - أول عميل مصرى يتم زرعه فى قلب (إسرائيل) ، وأقبل فى شغف على تعلم اللغة العبرية ، حتى أجادها إلى حد كبير ، واتدمج أكثر وأكثر فى المجتمع الإسرائيلى ..

ووقع فى الحب ..

ولأن الوقوع فى الحب هو أخطر موقف ، يمكن أن يتعرض له جاسوس .. ولأن الفتاة التى وقع فى حبها كانت فاتنة ، فى الثامنة عشرة من عمرها ، متفجرة الأنوثة ، فقد شعر رجال المخابرات بالخطر ، وأصدروا أمرًا لعميلهم (ألبرتو) بالانتقال إلى (تل أبيب) ..

وحزن (ألبرتو) كثيرًا للقرار ، خاصة أنه قد اتفق مع حبيبته (أندرولا) على الزواج ، إلا أنه ، وعلى الرغم من حزنه ، أطاع الأوامر ، وطلب من (أندرولا) أن ترحل معه ، أو تنتظره ، فتشبثت بالبقاء فى مستعمرة (تحيا) ، وسافر هو إلى (تل أبيب) ..

وأثناء قضاء فترة التجنيد ، كانت المخابرات المصرية تتلقى سيلاً من المعلومات من (ألبرتو) الذى التحق بسلاح المدرعات ، عن

طريق الاتصالات اللاسلكية ، والرسائل البريدية الشفوية ، التي ينقلها في معظم الأحيان عملاء آخرون داخل (إسرائيل) ..

وعندما انتهت فترة التجنيد ، استأجر (ألبرتو) منزلاً يطل على ميناء (عسقلان) ، حيث تظاهر بتربية الحمام ، وأخفى تحت أواني الطعام والشراب ، الذي يقدمه للحمام ، كل أدوات التجسس ونقل المعلومات ، وراح يمارس عمله في نشاط وحماس ، وينقل إلى (مصر) كل تفاصيل الحركة في الميناء ، الذي يستخدمه الجيش الإسرائيلي في تفريغ شحنات الأسلحة باعتباره ميناء منعزلاً ، لا يثير الاهتمام ، أو الفضول ...

واستمر ذلك النشاط عدة سنوات ، حتى صدر أمر جديد ، بانتقال (ألبرتو كورين) من (عسقلان) إلى (تل أبيب) ..

وكما يحدث مع كل انتقال جديدة ، وكإجراء أمني وقائي مدروس ، قطعت المخابرات العامة كل اتصالاتها مؤقتاً مع (ألبرتو) ، الذي استأجر حجرة في منزل العجوز (كريستين) ، وأضاف إلى هواية التصوير هواية أخرى جديدة ، ألا وهي الرسم الزيتي ، فملأ الحجرة بلوحاته ، وهو يقول للسيدة (كريستين) في حماس :

- ما رأيك في لوحاتي يا سيدي؟ .. هل يمكنني بيعها بمبلغ معقول؟

وكانت العجوز تشعر بالعطف نحوه ، وتجيبه دائماً في حماس :

- بالطبع يا (إسحق) .. إنها ستجعلك يوماً من الأثرياء .

و (ألبرتو) يشكرها في سعادة ، ويواصل الرسم في المساء ، والتصوير في الصباح ، ويأخذ الصور ، ثم يخفيها بمهارة مدهشة ، خلف لوحاته السريالية ، التي تباع لمندوبي المخابرات الذين يحصلون بدورهم على الصور ..

وعلى الرغم من كل ما فعله ويفعله (ألبرتو) ، ظل قلبه ينبض بالحب ، الذي تركه خلفه في مستعمرة (تحيا) ، حتى إنه لم يلبث أن طلب لقاءً عاجلاً مع مندوب المخابرات ، وقال له في خفوت :

- أريد أن أتزوج ..

سأله الرجل :

- إنها (أندرولا) .. أليس كذلك؟

أجابه (ألبرتو) في حماس :

- إنني أحبها ، ولا يمكنني التخلي عنها ، ثم إن هذا سيوطد صلتى أكثر بالمجتمع الإسرائيلي ، ويتيح لي المزيد من البقاء والاستقرار ، ويدراً عنى الشبهات تماماً .

ولم يكن مطلبه سهل المنال ، إذ إن ارتباطه بإسرائيلية سلاح ذو حدين ، فصحيح أنه سيربطه أكثر بالمجتمع ، ولكنه سيجعل احتمالات سقوطه أكبر ، عند أول خطأ ..

وعلى الرغم من هذا جمعت المخابرات المصرية كل المعلومات الممكنة عن (أندرولا) ، بل وأرسلت إليها سائحة فرنسية ، لدراستها عن قرب ، وتقديم تقرير واف عنها ، خشية أن تكون عميلة لجهاز (الموساد) ، أو تربطها به أية صلات قوية .. وجاءت النتائج كلها فى صالح (أندرولا) ..

إنها مجرد فتاة عادية ، تقوم بتدريس اللغة العبرية للمهاجرين الجدد .. وهكذا حصل (ألبرتو) على موافقة جهاز المخابرات على زواجه من (أندرولا) ، وحصل فى الوقت ذاته على مبلغ كبير من المال ، عن طريق نشاط كبير من مبيعات لوحاته ، حتى لا يثير الشك ..

وتزوج (ألبرتو) حبيبته (أندرولا) ، وساعده هذا بالفعل على الاندماج أكثر وأكثر فى المجتمع الإسرائيلى ، كما ساعده وجود زوجته إلى جواره على كثرة الترحال والتقاط الصور ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

لقد لاحظ أحد عملاء (الموساد) ، عندما رأى (ألبرتو) يلتقط بعض الصور التذكارية لجنود المظلات ، أنه أكثر اهتمامًا بتصوير الأسلحة ، منه بتصوير الجنود أنفسهم ، فأبلغ (الموساد) بشكوكه ، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة (ألبرتو) ..

مرحلة الخطر ..

ولكن (ألبرتو) الموهوب كشف الأمر على الفور ، وأدرك أن الإسرائيليين يراقبونه ، وأن بعضهم تسلل إلى منزله ، وعبث ببعض أشيائه ..

والعجيب أن هذا لم يفزعه ..

لقد تصرف بهدوء يثير الدهشة والإعجاب ، فجمع كل ما لديه من أدوات التجسس والمراقبة ، وتخلص منها كلها ، دون أن يفقد ابتسامته وروحه المرححة ، ودون حتى أن تشعر زوجته (أندرولا) بأى شىء ..

وذات ليلة ، وبينما كان يتناول عشاءً شاعريًا على ضوء الشموع ، مع زوجته الجميلة ، اقتحم رجال (الموساد) منزله ، واعتقلوه ، وراحوا يقلبون المكان رأسًا على عقب ، أمام عيني (أندرولا) الذاهلة ، ودموع السيدة (كريستين) الحارة ..

وكانت دهشتهم عارمة ..

إنهم لم يعثروا على دليل واحد ، لإدانة (ألبرتو كورين) ..

ولكنهم فتحوا ملفه كله ، وراجعوا كل ورقة تقدم بها ، وكل وثيقة يحملها ، حتى أمكنهم إثبات أمر واحد ..

إنه ليس يهوديًا ..

صاعقة الثاني من أكتوبر ..

فجأة ، وعلى عكس كل التوقعات ، حتى توقعات الإسرائيليين أنفسهم ، وقعت نكسة يونيو 1967م ، واجتاحت (إسرائيل) أراضي ثلاث دول عربية في آن واحد ، لتحتل مساحة تقترب من ثلاثة أضعاف مساحتها الرسمية حينذاك ..

كانت القيادة السياسية قد ملأت الدنيا تهديداً ووعيداً ، وتوعدت (إسرائيل) بالهزيمة والعار ، وأكدت أنها ستلقيها في البحر ، وأن قواتها ستبلغ (تل أبيب) ، خلال أيام قليلة ، ولم تكتمف بهذا ، وإنما طالبت برفع قوات الطوارئ الدولية ، من المناطق الحدودية بينها وبين (إسرائيل) ، وعندما اعترض مسئول الأمم المتحدة . آنذاك (يوثانت) على هذا المطلب ، وأعلن أنه لا انسحاب جزئياً لقوات الطوارئ الدولية ، فإما أن تتسحب بأكملها ، أو تبقى بأكملها ، أخذت العزة القيادة السياسية ، وطلبت سحب قوات الطوارئ الدولية في (سيناء) كلها ..

وانسحبت قوات الطوارئ الدولية ..

وهنا شعرت (إسرائيل بالخطر) وبخاصة مع دخول القوات المصرية إلى (شرم الشيخ) ، ومنعها السفن الإسرائيلية من الملاحة ، وأدركت أن هذا يهدد 80% من تجارتها بالتوقف ، وقررت أن تنتقل إلى الخطوة التالية ..

وعندما تمت محاكمة (ألبرتو كورين) في (إسرائيل) ، لم يجد القاضي دليلاً واحداً يكفي لإدانته بتهمة التجسس ، سوى أنه ليس يهودياً ، فصدر ضده حكم بالسجن لفترة قصيرة ، ورجال (الموساد) يجذبون شعورهم ، ويحترقون بنار الغيظ ..

وفي صدر صحيفة (يديعوت أحرنوت) ، أعلنت (إسرائيل) أنها ألقت القبض على جاسوس يعمل لحساب (مصر) ، ولكنها لم تشر إلى ضعف أو انعدام أدلة الإدانة ضده ..

وبعد سنوات قليلة ، خرج (ألبرتو) من سجنه ليجد في انتظاره ثروة ضخمة ، هي مجموع راتبه الكبير ، الذي كان يودع باسمه شهرياً ، منذ التحق بالعمل في إدارة المخابرات العامة المصرية ، في أحد البنوك الكبرى في (القاهرة) ، وأكد له رجال المخابرات المصريون أنهم على أتم استعداد لمعاونته على بدء حياة جديدة ، في أي مكان يختاره في العالم أجمع ..

ولكن (ألبرتو كورين) اليوناني المولد ، الإيطالي الأصل ، اختار البقاء في الدولة التي عشقها منذ نعومة أظفاره ، والتي وضع حياته على كفه دائماً من أجلها ..
في (مصر) .

إلى الحرب ..
وفوجنت القيادة السياسية ، كما فوجئ الشعب المصري كله ،
بأن الجيش ، بكل قواته ، وكل قياداته ، وعلى الرغم من كل
تأكيداتهم ، لم يكن مستعداً فعلياً للحرب ..

ووقعت النكسة ..

وفى حديث صحفى ، تساءل أحد الإسرائيليين : كيف استخدم
وزير الدفاع نفس الخطة ، التى هاجمت بها (إسرائيل) (مصر)
فى عام 1956م ، للهجوم عليها فى عام 1967م !؟
وبمنتهى الصفاقة والسخرية ، أجابه وزير الدفاع الإسرائيلى ،
بأن هذا لم يقلقه قط ، لأن المصريين لا يقرءون ..

وضحك الصحفيون لعبارة وزير الدفاع الإسرائيلى ، ورددتها
الصحف لعدة أيام ، تجاوزت الشهر الكامل ، وأصبحت حكمة تتردد
فى (إسرائيل) كلها ، كلما بلغ الحديث منطقة العرب ، والمصريين ،
وقياداتهم وثقافتهم ..

وعلى الجانب الآخر ، شعر المصريون بالأسى والألم والعار ،
وهم يسمعون عبارة وزير الدفاع الإسرائيلى ، ويقرءونها ، ويتابعون
ترددها ، فى كل وسائل الإعلام العالمية ..

أما هناك ، فى قلب المخابرات العامة المصرية ، فقد كانت
الصورة تختلف تماماً ..

تختلف بحكم طبيعة الرجال ، الذين تعلموا كيف يسيطرون على
مشاعرهم ، وعلى انفعالاتهم ، وكيف ينظرون إلى الصورة كاملة ،
بمنظار رائق شفاف ، لا تشويه أية توترات ، أو عصبية تفسد
المشهد ، أو تضيف إليه ما يخفى حقيقته ..

لقد التقطوا العبارة ، وصنعوا بها ما اعتادوا صنعه ، مع كل
معلومة تقع تحت أيديهم ..

لقد درسوها ، وحللوها ، وفحصوها ، ومحصوها ، ثم توصلوا
فى النهاية إلى نتيجة خاصة ، تعتمد أكثر ما تعتمد ، على
ضرورة تحويل دفة كل موقف إلى صالحهم ، أو بمعنى أدق ،
على نظرية (الاستفادة من الكوارث) ..

القيادة الإسرائيلىة ، سواء السياسية أو العسكرية ، تتصور إذن
أن المصريين لا يقرءون ، ولا يستفيدون من تاريخهم ، أو من
أخطائهم .. فليكن .. دعهم يتصورون هذا ، ويعتقدونه ، بل وينغمسون
فيه حتى النخاع ، وحتى يؤمنوا به تماماً ، ويتقوا فيه كل الثقة ..

هكذا قرر الرجال ، فى قلب المخابرات المصرية ..

ومن هنا كانت نقطة البداية ..

ونقطة الانطلاق ..

ولأن المخابرات - كل المخابرات - تعتمد في الحصول على معلوماتها ، على الوسائل العلنية ، مثلما تعتمد على الوسائل والمصادر السرية ، فقد بدأت المخابرات المصرية مرحلة جديدة ..

مرحلة تعتمد على القراءة ..

كان عليها أن تقرأ كل ما يكتبه العدو ، في صحفه ، ومجلاته ، ودورياته ، وحتى في نشراته العامة والخاصة ..

وفي الوقت ذاته ، عليها أن تدرس كل ما ينشر في صحف الوطن ، ومجلاته ، ودورياته ، ونشراته أيضا ، حتى لا تتسرب أية معلومات إلى العدو ، أو حتى يصل إليه منها إلا ما ترغب هي في توصيله إليه فحسب .

ومع مرور الأيام والشهور ، توسعت الفكرة أكثر وأكثر ، بحيث لم تعد القراءة والمتابعة تقتصر على ما ينشره العدو فحسب ، وإنما امتدت إلى كل ما ينشر في الصحف العالمية أيضا ، مما يمس القضية ، من قريب أو من بعيد ، وبشكل مباشر أو غير مباشر ..

وفي الوقت ذاته ، تطور القسم المسئول عن متابعة النشر الداخلي ، وانضمت إليه بعض العقول المثقفة الواعية ، القادرة على دراسة وتحليل أي خبر قبل نشره ، وتحديد ما إذا كان من الممكن أن يترك لدى العدو الانطباع المطلوب أم لا ..

ووسط كل هذا ظل هناك سؤال مهم ، يطرح نفسه طوال الوقت ، بمنتهى القوة ، ومنتهى الشدة ..

ترى ماذا يفعل العدو الإسرائيلي ، في هذا الوقت !؟

هل أنشأ في أعماقه جهازا مماثلا ، أم أنه مازال يعتمد على أساليبه القديمة ، باعتبار أن العرب لا يقرءون !؟ ..

ثم جاء الجواب ، من حيث لا يتوقع أحد .. جاء مع سقوط (باروخ) ..

و « باروخ » هذا ضابط مخابرات (إسرائيلي) ، سافر إلى اليمن ، متكررا في شخصية تاجر مغربي ، يدعى (أحمد الصباغ) ، لرصد حركة السفن المصرية في باب المندب ، ثم سقط في قبضة رجال الأمن اليمنيين هناك ، والذين أبلغوا المخابرات المصرية ، فأرسلت للتحقق من هويته هناك ، ثم حملته في مغامرة مثيرة مدهشة ، والعودة به إلى القاهرة ، حيث حوكم بتهمة التجسس ، وصدر ضده حكم بالسجن ..

ففي لحظة سقوطه ، أعلنت إحدى الإذاعات المصرية عن سقوط جاسوس إسرائيلي في (اليمن) ، ثم نشرت إحدى الصحف الخبر ، في ركن صفحتها الأولى ، قبل أن يصدر قرار بمنع النشر والإذاعة ..

أيامها ، وضعت المخابرات المصرية يدها على قلبها ، وهي تدرك جيداً أن الإسرائيليين لديهم الاستعداد لشن حرب جديدة ، أو حتى قصف اليمن كلها بالقتال الحارقة ، حتى لا يصل ضابطهم حياً إلى (القاهرة) ..

ولكن الإسرائيليين لم يسمعوا الخبر ..
ولم يقرءوه ..

وكان هذا دليلاً حاسماً ، على أن (إسرائيل) لم تنشئ في مخابراتها قسماً مماثلاً للقراءة والمتابعة .

ووصل (باروخ) إلى (مصر) ..
واطمأن رجال المخابرات العامة ..

ولكن هذا لم يدفعهم إلى الثقة الزائدة ، أو التراخي في أداء العمل ، بل دفعهم إلى مزيد من النشاط والمتابعة ، لضمان التفوق المستمر ، حتى اللحظة الأخيرة ، عندما تحين ساعة الصفر ..

وفي ديسمبر 1972م ، وقبل عشرة أشهر فحسب من ساعة الصفر ، ظهرت إحدى المجلات الأمريكية ، ذات الشهرة الواسعة ، وهي تحوى بين غلافها مقالاً علمياً ، كتبه أحد علماء الملاحة الأمريكيين ، من نوى الأصول اليهودية وليحلل فيه فكرة واحتمال قيام المصريين بمغامرة لعبور قناة (السويس) ، على الرغم من

الساتر الترابي الضخم ، وخط (بارليف) الرهيب ، الذي وصفه المحللون العسكريون بأنه أقوى خط دفاعي عسكري ، منذ خط (ماجنيو) الفرنسي ، وأنه حتى القنابل النووية ، تعجز عن اختراقه .

وفي مقاله ، أكد العالم الأمريكي أن عبور القناة نفسه ليس بالأمر الهين أو الممكن ، نظراً لأن حركة المد والجزر فيها عسيرة ومعقدة وتختلف تماماً عن حركات المد والجزر والتيارات المائية العادية ، نظراً لأنها تصل بين بحرين كبيرين ، لكل منهما تياراته ، وحركات مده وجزره ، وفي نهاية المقال ، وضع جدولاً بالتوقيتات المناسبة لعبور القناة ، وكان على رأسها الأسبوع الأول من أكتوبر 1973م ..

وقرأ رجال المخابرات المصرية المقال ..

ولم يقرأه الإسرائيليون ..

هذا ما أكده جاسوس لنا ، في قلب صفوفهم ، عندما أبرقت إليه المخابرات المصرية شفيرياً ، لتسأله عن ردود الفعل الإسرائيلية ، فأجاب بأنه لا توجد أية ردود أفعال على الإطلاق ..

فالقيادة الإسرائيلية ما زالت تحيا في نشوة النصر ، بعد كل هذا السنوات ، وجنراتها أصابهم الترهل ، مع زهوة الظفر وغروره ، واقتنعوا تماماً بمقولة وزير دفاعهم بأن العرب لا يقرءون . واستكثروا للفكرة ، واسترخوا مع إيمانهم بها ، وتركوا الأمور تجري .

وفى قلب (إسرائيل) نفسها .. نشر أحد المعلقين العسكريين مقالاً ، يحذر فيه من حالة الاسترخاء والبلادة ، التى أصابت المجتمع العسكرى الإسرائيلى ، ويؤكد فيه أن طبيعة المصريين لن تقبل باستمرار حالة احتلال أراضيهم طويلاً ، وأنهم سيهتبون للقتال يوماً ، على حين غرة ، ليستردوا أرضهم وعرضهم .

والعجيب أنه فى مقاله ، قد حدد ثلاثة مواعيد لهذا الهجوم المفترض ، أولها فى الأسبوع الأخير من مارس ، والثانى فى منتصف يوليو والثالث فى الأسبوع الأول من أكتوبر ..

وعلى الرغم من أن الرجال فى (القاهرة) قد قرءوا المقال الإسرائيلى ، وقاموا بدراسته وتحليله ، وإرسال تقرير بمحتواه إلى رئاسة الجمهورية ، إلا أن الإسرائيليين فى (تل أبيب) لم يقرءوه ، ولم يبالوا به ، أو يقوموا بدراسته أو تحليله ..

وفى نهاية مارس 1973م ، نشر المعلق العسكرى مقالاً آخر ، يعلن فيه غضبه من تجاهل مقاله الأول ، واتهم القيادة العسكرية الإسرائيلية بالاستهتار والتراخى ، وعاد يؤكد أن الهجوم المحتم سيأتى فى منتصف يوليو ، أو أوائل أكتوبر 1973م .

ومع نبراته الغاضبة ، أعلن أحد جنرالات (إسرائيل) أن ما يقوله هذا المعلق مجرد أوهام ، وأنه ليس عرافاً أو متنبئاً ، حتى يضع

مثل هذه التوقيينات الدقيقة ، دون أن يدرس العسكرية كما ينبغى ، ثم أكد فى نهاية الرد ، أن المصريين لن يحاربوا أبداً ، وأنه ليست لديهم الشجاعة الكافية ، لاتخاذ قرار ببدء هجوم ضد جيش (إسرائيل) الأسطورى ، الذى لا يقهر ..

أيامها ، كانت كل الأحداث السياسية تؤيد رد الجنرال الإسرائيلى فالرئيس (السادات) لم يعد يتحدث عن الحرب ، ونبرة قيادات الجيش المصرى كلها هادئة ، وحتى صورهم وأخبارهم ، التى تملأ الصحف ، لا توحى سوى بالاسترخاء والاستسلام ، والرضوخ لحالة اللاسلم واللاحرب ، كما أطلق عليها السياسيون حينذاك .

ولكن الشىء ، الذى لم يخطر ببال أحد قط ، هو أن كل الأخبار ، والنبرة الهادئة ، وحتى الصور التى توحى بالاسترخاء والاستسلام ، كانت تتم تحت إشراف المخابرات المصرية ، وبوساطة مجموعة من أفضل الخبراء النفسيين ، ليس فى (مصر) وحدها ، ولكن فى العالم أجمع ..

واقتربت ساعة الصفر أكثر وأكثر ، وتضاعف نشاط الرجال فى (القاهرة) مرة .. ومرة .. ومرات .. وبخطة عبقرية مدهشة ، بدأت مرحلة العبث بالعقول الإسرائيلىة ، ومرحلة الخداع الكبرى لجهاز المخابرات ، الإسرائيلى والأمريكى ، تمهيداً لشن حرب التحرير الحتمية ، المنتظرة ..

ومع قدوم سبتمبر 1973م ، بدأت الأخبار المدروسة تتسلل إلى الصحف رويدًا رويدًا ، وعلى نحو لا يمكن أن يثير شكوك العدو الإسرائيلي أبدًا ، في نفس الوقت الذي راح فيه خبراء المخابرات المصرية يكتفون نشاطاتهم ، لمتابعة كل ما ينشر في (إسرائيل) ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ودول (أوروبا) أيضًا ..

ولم يكن هذا بالعمل السهل ..

لم يكن كذلك أبدًا ، ولكن الرجال قاموا به بمهارة مذهلة ، تستحق كل التقدير والإعجاب ..

وبناء على ما جمعه الرجال ، ودرسوه ، وحلوه ، وفندوه ، أصبحوا على يقين من أن أحدًا لا يتوقع أبدًا أن تهب (مصر) من رقادها ، وأن تضرب ضربتها القوية القاسمة ..

وفي أوائل أكتوبر 1973م ، كانت الساحة قد تهيأت تمامًا للمفاجأة الكبرى ، فصحفنا تحمل أخبار زيارة الأميرة البريطانية لمصر ، في القريب العاجل ، وزيارة وزير دفاع أوروبي ، في السابع من أكتوبر ، مع خبر عن الزيارة المرتقبة ، التي سيقوم بها قائد القوات الجوية لدولة (ليبيا) المجاورة ، وإعلان عن فتح باب عمرة رمضان أمام ضباط وجنود القوات المسلحة .

كل شيء تمت دراسته بمنتهى الدقة ، ووضعته بمنتهى العناية .

ولكن كل شيء أصيب بصاعقة عنيفة ، في الثاني من أكتوبر ..

ففي مقال رئيس ، في صحيفة بريطانية شهيرة ، تحدث أحد القادة الإنجليز عن الصراع العربي الإسرائيلي الطويل ، وعن ضعف احتمالات نشوب حرب ضد جيش (إسرائيل) الذي لا يقهر ، لأن المصريين غير مستعدين لمواجهة هزيمة أخرى ، ولكن لو أن الفكرة راوتهم ، فهذا أنسب موعد لتوجيه ضربة مباشرة إلى الإسرائيليين ، فالطقس مناسب ، وكذلك حركة المد والجزر في قناة السويس ، كما أن المسلمين تزداد حماسهم دومًا في شهر رمضان المعظم ، ثم إن الإسرائيليين يستعدون للاحتفال بعيد (كيبور) أحد أهم وأشهر أعيادهم .

وفي نهاية المقال ، وإجابة على سؤال أخير حول الموضوع ، أكد ذلك القائد الإنجليزي أن أنسب موعد لشن حرب المصريين ، ضد العدو الإسرائيلي ، هو غروب شمس السادس من أكتوبر .. وحبس الرجال أنفاسهم في المخابرات العامة المصرية ، ونشطت اتصالاتهم ، على نحو غير مسبوق ، ونشطت عيونهم في كل مكان في (إسرائيل) ، لرصد ودراسة رد الفعل الرسمي والعسكري ، على هذا المقال ، الذي جاء في وقت شديد الحساسية ، مع اقتراب ساعة الصفر ، وبدء العد التنازلي للمعركة الحاسمة .

ولكن النتائج جاءت كلها سلبية ، على الرغم من خطورة
ما قاله القائد العسكري البريطاني في تحليله للموقف .

وحانت اللحظة ..

وانطلق المارد المصري ، يسحق أسطورة الجيش الإسرائيلي ،
الذى لا يقهر ، ويهدم خط (بارليف) المنيع على رءوس الأعداء ،
ويعبر الهزيمة ، على زوارق من الإرادة الفولاذية ، وجسور من
عزم لا يلين ويزلزل صحراء (سيناء) بذلك الهتاف الذى ارتجت
له قلوب الأعداء ..

الله أكبر ..

وفى هذه المرة ، انخفضت عينا وزير الدفاع الإسرائيلى ،
وانحبت الكلمات فى حلقة ، مع غصة الهزيمة ، فلم يستطع أن
يدلى بتصريح ساخر وإبهام بعد أن أثبتت التجربة والأيام ، أن
الإسرائيليين هم الذين لا يقرعون ..

أثبتت هذا فى يوم النصر .

فى أكتوبر .

مصيصة البحار ..

تصاعد وقع قدمى رئيس المخابرات العامة المصرية ، وهو
يقطع أحد ممرات الإدارة ، فى خطوات واسعة سريعة ، حتى بلغ
إحدى حجرات المكاتب ، التى يحويها الممر الطويل ، ولم يكذب
الرجل الجالس أمام المكتب يراه ، حتى هب واقفاً ، وهو يقول فى
هيبه واحترام :

- صباح الخير يا سيادة المدير .

ربت رئيس المخابرات على كتفه ، ليزيل رهبتة وتوتره ،
ومنحه ابتسامة هادئة ، وهو يسأله :

- هل (عادل) فى الداخل ؟

رفع الرجل يده بالتحية العسكرية ، بعد أن انتبه إلى أنه لم
يفعل هذا فى البداية ، وأجاب فى لهجة رسمية :

- نعم .. سيادته بالداخل يا سيادة المدير .

ابتسم رئيس المخابرات ، وربت على كتفيه مرة أخرى ، ثم
دفع باب المكتب ، وهو يقول :

- صباح الخير يا (عادل) .

هَبَّ رجل المخابرات (عادل حماد) واقفاً في احترام ، وهو يقول :

- صباح الخير يا سيادة المدير .. إنها لمفاجأة حقيقية أن تأتي بنفسك إلى مكتبي .

أشار إليه الرئيس بالجلوس ، وهو يقول :

- الواقع أنني أمتلئ قلقاً ، بسبب العملية التي أسندتها إليك يا (عادل) ، فأنت تدرك أهمية الأمر وخطورته .. لقد غير الإسرائيليون مركز تجسسهم في (أوروبا) ، والمعلومات لدينا تؤكد أنهم يحصلون على معلومات صحيحة وبالغة الخطورة ، عن ميناء (الإسكندرية) ، منذ وصلتنا تلك الغواصات الحديثة .

وكان قلق الرئيس له ما يبرره بالفعل ، فمِنذ وصلت تلك الغواصات إلى (مصر) ، في أوائل الستينات ، ونجح رجال البحرية المصرية في استيعابها ، والتعامل معها ، انتاب (إسرائيل) قلق بلا حدود ، وهي تستعيد نشاطات وقدرات البحرية المصرية ، في المواجهات التي تمت بينهما ، فهي لم تنس بعد كاسحة الألغام المصرية ، التي داهمتهم في رأس السنة ، عام 1948م ، ولا السفينة (دمياط) ، التي حطم قائدها غرورهاهم ، أثناء العدوان الثلاثي عام 1956م ..

ولم يقف الإسرائيليون صامتين ..

لقد نشطوا للحصول على معلومات وأخبار جديدة ، عن الميناء ، وحركات الشحن والتفريغ ، والتحركات العسكرية من حوله .. ونجحوا في هذا إلى حد كبير ..

ولكن كيف ؟ ..

هذا ما أقلق المخابرات العامة المصرية ، وجعلها تنشط بدورها ، للبحث عن نقطة تسرب المعلومات ، ومركز المخابرات الإسرائيلية الجديد في (أوروبا) ..

وفي هدوء ، شرح (عادل) ما توصل إليه ، قائلاً :

- في البداية ، كانت هناك عدة افتراضات منها وجود جاسوس في الميناء ، ينقل إلى الإسرائيليين كل ما يتوصل إليه ، ولكننا لاحظنا أن المعلومات لا تنتقل في كل وقت ، ولكن هناك فترات نشاط ، وفترات سكون ، مما أوحى إلينا بأن الجاسوس الذي ينقل المعلومات ، هو أحد العاملين على السفن التجارية الأجنبية ، التي تدخل وتخرج من الميناء ، على فترات شبه منتظمة ، وأن فترات السكون هذه ، ترتبط بعدم وجود سفينة

الجاسوس في الميناء .. ولما كان هذا الافتراض أكثر منطقية ،
رحنا نرصد السفن ، التي يتزامن تواجدها في الميناء ، مع فترات
النشاط ، وضائق دائرة البحث ، حتى اتحصرت في سفينة واحدة .

رفع مدير المخابرات حاجبه ، وقال :

- عظيم .. هذا يجعل المهمة أقرب إلى النجاح .

واقفه (عادل) بإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا صحيح يا سيدى ، ولقد أجرينا بعض التحريات حول
العاملين على السفينة ، واتحصرت شبهاتنا في خمسة منهم ..
ثلاثة من البحارة ، وكبير المهندسين ، وضابط اللاسلكى ..
البحارة الثلاثة ثبت أنهم يتاجرون في البضائع المهربة ، ومن
الممكن أن يبرئهم هذا من تهمة الجاسوسية ، أو يكون ستاراً
مناسباً لها ، أما كبير المهندسين ، فهو همجى ، ضخم الجثة ،
غليظ القول والفعل ، لا يشرب في المعتاد إلا أردأ أنواع الخمر ،
و(تونى) ضابط اللاسلكى ، شاب وسيم ، أنيق ، لبق ، يجيد
دستة من اللغات ، من بينها العربية ، ولكن ..

كان المدير يتوقع القفز إلى استنتاج مباشر ، إلا أنه فوجئ
بتلميذه يستطرد :

- ولكننى أعتقد - بصفة شخصية - أن الجاسوس ليس واحداً
منهم .

سأله المدير فى حيرة :

- من هو إذن ؟

فرز رجل المخابرات المصرى الصور التى أمامه فى سرعة ،
وهو يقول :

- إنه شخص آخر ، تقول كل التحريات التى أجريت حوله ،
أنه مثالى تماماً ، بلا أية أخطاء أو هفوات .

والتقط من بين الصور صورة واحدة ، وهو يستطرد :

- وهذا الطراز ، الذى يتحاشى الأخطاء تماماً ، هو ما يثير القدر
الأكبر من شكوكى فى المعتاد .

قلها ، وهو يضع أمام رئيسه صورة لرجل وسيم ، رمادى الشعر ،
له ابتسامة هادئة ، وعينان جميلتان ، ويرتدى زياً يميزه عن كل
أفراد الطاقم ..

(أنطوان كايس) .. قبطان أعالى البحار الوسيم ، بدأت علاقته
بالبحر وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره ، عندما غادر
(لشبونة) ، وألقى نفسه فى سفينة تجارية ، لم يهتم كثيراً بالعلم

الذى ترفعه ، بقدر اهتمامه بأنها ستحملة بعيدًا ، عبر ذلك الجزء
من العالم ، الذى يعشقه كل العشق ..

البحر ..

وطوال ربع القرن التالى ، لم يفارق (أنطوان) البحر إلا عامًا
واحدًا ، فهو يتنقل من رحلة إلى أخرى ومن شاطئء إلى آخر ،
ومن بحر إلى بحر ، إلى محيط عميق ..

لم يكن يتوقَّف إلا ليلتقط أنفاسه ، وينفض عن ثيابه ملح
البحر ، ويستعد للانطلاق فى رحلة جديدة ، وإلى بحر آخر ..

وعبر حياته الحافلة ، لم يقع (أنطوان) فى الحب سوى مرة
واحدة ، عندما عشق (كارمن) ، ومنحها الكثير من وقته وعواطفه ،
ثم عاد ذات مرة من رحلة طويلة ، وهرع إليها ملهوفًا ، ليجدها
قد تزوجت ، وهاجرت مع شاب آخر ..

ومنذ ذلك الحين ، أغلق (أنطوان) قلبه بالضربة والمفتاح ، وقرر
أنه لن يقع فى حب امرأة أخرى أبدًا ..

ولكن الرياح لا تأتى دائمًا بما تشتهي السفن ..

ففى واحدة من رحلاته ، هبط فى (مارسيليا) ، وفكر فى قضاء
ليلته فى إحدى ملاهيها ، عندما وجد أمامه فجأة (ماري لويز) ..

وبسرعة مذهشة ، طوته (ماري) تحت جناحها ، وجذبت كل
عواطفه إليها ، فذاب قلبه بين يديها ، وخفق بحبها ، ولم يعد
يشغله سواها ، فى العالم كله ، على الرغم من أنه لم يكن يعلم
عنها ، سوى ما أخبرته هى به ..

لم يكن يعلم أن (الإنتربول) الدولى يسعى خلفها ، وأنها ظلت
هاربة مطاردة لعدة سنوات ، حتى استقر بها المقام أخيرًا فى
(مارسيليا) ، وهى تطوى فى أعماقها سرها الدفين ، الذى لو
باح به أحدهم ، لكان مصيرها هو السجن ..

بل ولم يكن يعلم أن لقاءها به لم يكن مصادفة ..

لقد دفعها (إيزاك) فى طريقه ، وأوصاها بتوطيد علاقتها به ،
دون أن يخبرها - كالمعتاد - بالهدف من هذا ..

و(ماري) لا تملك سوى طاعة (إيزاك) ، فهو يعرف سرها ،
ويبسط عليها حمايته ، ويخفى أمرها ، مقابل بعض الخدمات
البسيطة ..

وعلاقتها بالقبطان ، كانت إحدى هذه الخدمات ..

ولأن (ماري) محترفة ، وخبيرة ، وتجيد دورها تمامًا ، فقد
عشقها (أنطوان) حتى النخاع ، وصار يتمنى لو منحها العالم
كله ، دليلًا على حبه وهواه ..

ولم يكن هذا سهلاً، فعلى الرغم من هبة ورهبة منصبه، إلا أن دخله لم يكن يكفي لمنح (مارى لويز) ما يتمنى منحها إياه، من عطور ومجوهرات وخلافه ..

حتى ظهر (جوزيف) ..

(جوزيف) هذا واحد من فئران الميناء، الذى يتكسبون رزقهم من بيع البضائع لبحارة السفن الصغيرة، بالنقد والتقسيط، ويشترتون منهم بعض البضائع المطلوبة، فى المجتمع الذى ينتمون إليه ..

وفى المرة الأولى، همس (جوزيف) فى أنن (أنطوان)، بأنه يحمل بعض العطور النادرة، التى يصعب الحصول عليها، وأنه ليس من الضروري أن يتقاضى ثمنها مباشرة، بل يمكنه الدفع فى مرات قادمة ..

ورفض (أنطوان) المبدأ، إلا أن مقاومته لم تلبث أن ضعفت، وهو يتخيل ابتسامة (مارى) وسعلتها، وهو يمنحها هذا العطر النادر ..

وفى المرة الثانية ابتاع (أنطوان) زجاجة العطر ..

وكانت فرحة (مارى لويز) عارمة، ومنقنة ومدروسة بعناية ..

وبعدها لم تعد مهمة (جوزيف) صعبة ..

أصبح (أنطوان) من كبار مستهلكى بضائع (جوزيف) ..

ومن كبار المدنيين له أيضاً ..
وذات مرة، وعندما أصبح (أنطوان) عاجزاً عن سداد مديونياته تماماً، عرض عليه (جوزيف) أول صفقاته ..

بعض المعلومات عن ميناء (الإسكندرية)، مقابل إلغاء المديونيات، والحصول على مكافأة سخية أيضاً ..

ورفض (أنطوان) فى إباء، ولكنه لم يكذب يصل إلى (الإسكندرية)، حتى وجد نفسه يبحث فى لهفة عن المعلومات، ويختزنها فى ذاكرته، ويهرع بها فور عودته إلى (مارسيليا) إلى (جوزيف)، الذى سجل كل المعلومات، ثم ابتسم وهو يقول:

- أنت رجل ذكى أيها القبطان .. ها هى ذى إيصالات المديونية، وبعض الدولارات مكافأة أيضاً .. وبالمناسبة .. زجاجة العطر هذه هدية لفتاتك ..

ولم يصدق (أنطوان) نفسه ..

لقد حصل على نقود، وهدية لصديقه، وأنهى كل مديونياته، مقابل بضع معلومات بسيطة، يراها كل من يقف على الميناء ..

وأدمن (أنطوان) اللعبة، وأصبح يحمل إلى جوار مهنته لقباً آخر، لا يعلم به سواه .. لقب (جاسوس) ..

وبعد فترة من العمل ، التقى (أنطوان) فى (مارسيليا) بضابط
المخابرات الإسرائيلى ، الذى يدير العملية كلها فى الواقع ، والذى
يحمل اسم (موريس) ..

وأصبح (أنطوان) على علم تام بما يفعله ، وبالجهة التى يعمل
لحسابها ..

المخابرات الإسرائيلىة ..

جمع (أنطوان كاييس) كالمعتاد ، كل المعلومات التى حصل عليها
من (الإسكندرية) وأقلعت به سفينته إلى (مارسيليا) ، دون أن
يدرك أنها تحمل فى هذه المرة راكبًا ، يختلف عن كل الركاب ،
الذين حملتهم من قبل ..

رجل هادئ ، له شارب صغير ، ويرتدى منظارًا طبيًا ، يتناسب
مع عمله أستاذًا للتاريخ القديم ، فى جامعة (القاهرة) ..

ولم يكن هذا الأستاذ ، الذى يغرق مع كتبه فى معظم الوقت ،
سوى ضابط المخابرات المصرى (عادل حماد) ، الذى قطع الرحلة
كلها ، من (الإسكندرية) إلى (مارسيليا) ، وهو يراقب كل المشتبه
فيهم بمنتهى الدقة ، وعلى رأسهم القبطان (أنطوان) نفسه ..

وعندما وصل (عادل) إلى (مارسيليا) ، كان قد حصر شبهاته
واتهاماته فى رجل واحد ..

القبطان (أنطوان) ..

كان هذا الأمر يقلق (عادل) بشدة ، حتى إنه صرح به رئيسه ،
قائلًا :

- هذا الرجل هو الجاسوس لا ريب ، ولكنه من طراز خاص ،
فهو لا يسجل كلمة واحدة ، أو يلتقط صورة واحدة للميناء .. كل
ما يفعله هو أن يرى ، ويسجل فى ذهنه كل ما يراه ، بخبرته
وذكائه ، ثم ينقل كل هذا إلى الإسرائيليين .

عقد رئيسه حاجبيه مفكرًا فى عمق ، قبل أن يقول :

- إنها مشكلة مزعجة بالفعل يا (عادل) ، فنحن نعرف من هو
الجاسوس ، الذى ينقل أسرارنا وأخبارنا للعدو ، ولكننا عاجزون عن
إلقاء القبض عليه ، لأننا لا نملك دليلاً واحدًا يدينه .

وبقيت تلك المشكلة تؤرق (عادل) ورئيسه ، وهما يتابعان
تحركات (أنطوان) ، ويحيطان كل العمليات التى تتم على الميناء ،
بالسرية البالغة ، فى محاولة للتعمية ، وإخفاء المعلومات الحيوية عنه ..

حتى كانت المفاجأة ..

كان (عادل) يجلس فى مكتبه ذات يوم ، منهمكًا فى البحث
عن وسيلة للإيقاع بالقبطان فى مصيدة محكمة ، عندما دلف أحد
زملائه إلى مكتبه ، وقال فى حماس :

- (عادل) .. هناك شخص في حجرة الانتظار ، في الطابق السفلى ، جاء يطلب مقابلة أحد المسؤولين هنا ، وعندما عرفنا شخصيته ، وجدنا أن أفضل من يقابله هو أنت .

سأله (عادل) في اهتمام :

- من هو ؟

مال زميله نحوه ، وقال :

- (مرسى) .. (مرسى الشتيوى)

وانتفضت كل خلية في جسد (عادل) ، إذ إن (مرسى الشتيوى) هذا هو أحد المرشدين في الميناء ، ممن تربطهم صلة ود وصداقة وثيقة مع القبطان (أنطوان) ، حتى إنه أصبح بدوره موضع شبهات قوية ، أجرى رجال المخابرات حولها تحريات واسعة ، حتى ثبت لهم أن العلاقة تقتصر على الصداقة فحسب ، دون الدخول إلى عالم الجاسوسية ..

ووجود (مرسى الشتيوى) في مبنى المخابرات العامة المصرية ، وإلحاحه في طلب مقابلة أحد المسؤولين ، يعنى أن (أنطوان) قد تلقى أمراً من (موريس) بمحاولة تجنيد أحد العاملين في الميناء ، وأن اختيار (أنطوان) قد وقع على صديقه (مرسى) ..

ويعنى أيضاً أن (مرسى) لم يكن الشخص المناسب لمثل هذا العمل ، لأنه لن يخون وطنه أبداً ، بدليل هروعه إلى المخابرات العامة ، للبوخ بما لديه ، وإعلان استعداده للتعاون .. وكانت فرصة نادرة ، لا يمكن إضاعتها ..

وكان (مرسى) متجاوباً للغاية ، حتى إنه عاد في اليوم نفسه إلى (الإسكندرية) ، ومنح (أنطوان) كمية لا بأس بها من المعلومات ، التى يسيل لها اللعاب ..

وانبهر (موريس) فى (مارسيليا) بالمعلومات ، وأغرق (أنطوان) بالحوافز والمكافآت ..

وطوال الفترة التى عمل فيها (مرسى) لحساب المخابرات العامة المصرية ، كان (عادل) يزوده بالمعلومات اللازمة التى جعلت الإسرائيليين يثقون به تماماً ، ويطالبون بالمزيد ..

ولكن العملية كانت قد استوت تماماً ، ونضجت ، وحانت لحظة القطف ..

وذات مساء ، فى أحد مطاعم (الإسكندرية) الشهيرة ، جلس (مرسى الشتيوى) يتهامس مع (أنطوان كاييس) ، حول مائدة منفردة ، وقد بدا المطعم خالياً إلى حد ما ، فلم يكن به سوى شاب وحيد ، يتطلع إلى البحر ، ويتناول فى بطء زجاجة من المياه الغازية ، وكأنه يسترجع ذكريات حب قديم ، وشابان اتهمكا فى حديث طويل حول مائدة بعيدة ..

عملية الأوراق الخضراء

ارتفع صوت المؤذن ، يشق سكون الليل ، فى تلك المنطقة الهادئة ، فى (حدائق القبة) ، معلناً حلول موعد صلاة الفجر ، فى أحد أيام بدايات ربيع 1988م ، فاعتدل رجل المخابرات المصرى (ن . ط) ، وتوقف عن مراجعة الملف الضخم ، الموضوع أمامه على المكتب ، وتمطع فى إرهاق ، وهوى يسأل رفيق حجرته فى دهشة :

- هل حان موعد صلاة الفجر بهذه السرعة؟!!

ابتسم رفيقه فى هدوء ، وهو يقول :

- لقد انهمكت فى العمل ، ونسيت كل ما حولك كالمعتاد .. قل لى يا رجل ، ألا تعود إلى بيتك أبداً؟!!

مط (ن . ط) شفثيه ، وتطلع إلى الملف لحظة ، ثم نهض من مقعده ، وهو يقول فى حزم :

- أنت تعلم كم تبلغ أهمية الأمر وخطورته!

وعندما شعر (مرسى) أن الوقت أصبح مناسباً ، أخرج من جيبه المظروف الذى يحوى التقرير والمعلومات ، وناولته للقبطان ، الذى أخرج بدوره مظروفاً آخر ، يحوى المكافأة المتفق عليها ، ومد يده به لصديقه (مرسى) ..

وفجأة ، وجد (أنطوان) أن الشاب الوحيد لم يعد يجلس على مائدة أمام زجاجة المياه الغازية ، وإنما صار يجلس بينه وبين (مرسى) مباشرة ، وهو يلتقط المظروفين بحركة أنيقة ، ويبتسم قائلاً :

- معذرة .. سأأخذهما أنا ..

ودون أن يعلن (عادل) عن هويته ، أدرك (أنطوان) الموقف كله ، وفهم على الفور ، وشحب وجهه بشدة ، وهو يحدق فى الشابين اللذين غادرا مائدتهما بدورهما ، واتجها إليه فى صرامة ..

ولم يقاوم (أنطوان) أبداً ..

كل ما فعله هو أن ارتجف ، عندما قال له أحد الشابين فى حزم :

- أنا وكيل نيابة الجمرك بالإسكندرية .

وفى استسلام تام ، وندم بلا حدود ، اعترف (أنطوان كايس) بكل شيء ، بعد أن أدرك أنه وقع فى المصيدة ، التى أعدتها له المخابرات المصرية فى مهارة وحنكة ..

مصيدة البحار .

انفجرت شفتا رفيقه (م) ، وهم بقول شيء ما ، لولا أن أشار إليه (ن . ط) بيده في حزم ، مستطرذا :

- دعنا نصلى الفجر أولاً ، ثم نناقش الأمر .

كان ذلك الأمر ، الذي يتحدثان عنه ، شديد الحساسية بالفعل ، فمنذ ما يقرب من عام كامل ، ظهرت في (مصر) أوراق مالية مزيفة ، من فئة مائة الدولار ، على نحو لم يسبق له مثيل ، سواء من الناحية الكمية ، أو من ناحية الكيف ، فالأمر لم يقتصر على انتشار تلك الأوراق على نطاق واسع ، من (الإسكندرية) إلى (أسوان) ، وإنما كانت مزيفة بدرجة مدهشة من الإتقان ، على نحو يوحي بأن صانعيها يجيدون عملهم إلى أقصى حد ..

وأنهم من كبار المحترفين ، في هذا المضمار ..

وفي الظروف العادية ، كان قسم التزييف والتزوير ، في وزارة الداخلية ، هو الذي يتولى مثل هذه الأمور ، فيبحث ويتقصى ، ويتتبع تلك النقود المزيفة ، حتى يصل إلى مصدرها ، ويحدد المسئولين عن انتشارها ، ويتعامل معهم على النحو المناسب .

ولكن الأمر كان يختلف هذه المرة ..

يختلف كثيراً ..

فمع ذلك الكم الضخم ، والإتقان المدهش ، كان من الطبيعي أن يثير الأمر اهتمام جهات أمنية أكبر ، باعتبار أن الأمر قد لا يقتصر على عملية كبرى ، لتنظيم عصابى إجرامى ، يسعى لتحقيق ربح ما ، من الاتجار فى الدولارات المزيفة ، وإنما قد يمتد إلى ما هو أكثر أهمية وخطورة ..

إلى وجود مؤامرة منظمة ، لتدمير الاقتصاد المصرى ، ودفعه إلى الانهيار ..

وكان لهذا ما يؤيده ، فقد كانت (مصر) تخطو ، فى تلك الأيام ، خطواتها الواسعة ، نحو التحسن الاقتصادى ، وظهرت فيها بوادر النمو والتقدم ، التى لا تروق - فى المعتاد - لكل أعدائها وخصومها ..

ومن الطبيعى - والحال هكذا - أن يبذل هؤلاء الأعداء والخصوم قصارى جهدهم ، لاعتراض هذا التقدم ، ومحاربة ، وإعاقة العملاق المصرى عن بناء حصنه الاقتصادى الدائم المنيع ..

ومنذ انتقل الاهتمام بالأمر إلى المخابرات العامة المصرية ، تشغل (ن . ط) بدراسته ، على نحو لم يسبق له مثيل ، منذ بدأ عمله بالجهاز ..

ربما لأن هذا الأمر يتفق مع ميوله واهتماماته ..

ومع دراسته أيضاً ..

فعلى الرغم من أن (ن . ط) ضابط محترف ، تخرج فى الكلية الحربية ، والتحق لبعض الوقت بقوات الصاعقة ، ثم انتقل منها إلى المظلات ، حيث كان أحد الذين هبطوا فى منطقة الممرات ، إبان حرب أكتوبر 1973م ، لمنع العدو الإسرائيلى من إرسال الإمدادات إلى جنوده فى خط (بارليف) ، وظل يقاتل باستماتة هناك ، حتى تلقى مع رجاله الأمر بالعودة إلى الخطوط المصرية ، بعد أن حققت عملياتهم نجاحًا منقطع النظير ، وأدت الغرض منها بالضبط ، وبعدها تم نقله إلى المخابرات الحربية والاستطلاع ، ومنها إلى المخابرات العامة ، إلا أن اهتماماته كانت تتركز فى معظمها ، فى متابعة الأخبار الاقتصادية ، ودراسة النظريات المالية العالمية ، حتى إنه تقدم بالفعل لنيل شهادة الماجستير ، فى إحدى كليات التجارة ، تتويجًا لهذه الاهتمامات .

ولقد حصل (ن . ط) على تلك الشهادة بالفعل ، أثناء عمله بالمخابرات ، وتحولت اهتماماته الاقتصادية إلى جانب عملى ، حيث أسندت إليه مهمة دراسة الآثار الاقتصادية ، المترتبة على أية تحركات غير مدروسة ، والتي يمكن أن تؤثر سلبياً ، على خطة النمو الاقتصادى ..

وعند أول اجتماع فى الجهاز ، لدراسة موقف تلك الأوراق المالية المزيفة ، قال أحد الرجال وهو يمسك إحدى تلك الأوراق :

- لا ريب فى أن تلك الدولارات مزيفة بغاية وإتقان مدهشين ، فلقد بذل خبراء التزييف والتزوير لدينا جهدًا حقيقيًا ، للتيقن من هذا ، وأكبر أدلة هذا الإتقان هو اختيار نوع الورق المناسب ، واستخدام أرقام متسلسلة مختلفة ، وليست ثابتة ، مثلما يحدث فى معظم حالات التزوير ..

أشار إليه آخر ، قائلاً :

- ليس هذا فحسب ، ولكن التكنولوجيا المستخدمة فى طباعتها راقية للغاية أيضًا ، وهذا يحتاج إلى تمويل مالى ضخم ، لا يمكن لعصابة عادية توفيره .

سأل ثالث ، فى اهتمام بالغ :

- ماذا لو أننا نواجه تنظيمًا إجراميًا ضخماً بالفعل ، مثل منظمة (المافيا)؟! ..

إنهم يمتلكون أموالاً طائلة ، وخاصة بعد عمليات غسل الأموال المتقنة ، التى لجأوا إليها لسنوات طوال .. ألا يحتمل أن تكون هذه الدولارات المزيفة وسيلة جديدة لغسل أموالهم؟! ..

قال مدير الجهاز فى ببطء :

- اطرح فكرتك كاملة .

اعتدل رجل المخابرات في مجلسه ، متابعًا في اهتمام أكثر ،
وهو يشير بيديه لتوضيح فكرته :

- عندما يرسلون هذه الدولارات المزيفة إلى عدد كبير من
دول العالم ، مع بعض من ينتحلون صفة السائح العاديين ، سيقوم
هؤلاء باستبدال تلك الدولارات بعملات محلية ، وسيبدو هذا طبيعيًا
للمغاية ، ولن يتساءل أحد عن كم الدولارات ، التي يقوم السائح
باستبدالها ، خاصة لو تم هذا عن طريق عدة أماكن أو بنوك
مختلفة ، وبعد أن يقضى السائح بضعة أيام هنا ، يعود لاستبدال
تلك العملات المحلية بدولارات سليمة ، تدخل خزانة (المافيا) .

ارتفع صوت (ن . ط) يقول فجأة :

- هناك وسيلة لحسم هذا الأمر .

التفت إليه الجميع في اهتمام ، وخاصة مع ما يعرفونه عنه
من تبحر واسع ، في الأمور الاقتصادية ، فتابع بهدونه المعهود :

- إننا نتساءل عما إذا كان مصدر تلك الدولارات المزيفة منظمة
إجرامية كبرى ، أم جهاز مخابرات معاد ، يسعى لتدمير اقتصادنا
المصرى ، وفي رأبي إنه توجد نقطة بعينها ، يمكنها أن تحسم الأمر
في أحد اتجاهين ، فلو أن الأمر يخص منظمة إجرامية ، فكل
ما سيعنيها هو أن تتخلص من الدولارات المزيفة ، وتستبدلها

بدولارات حقيقية ، لذا فستسعى لإتقان عملها إلى أقصى حد ،
بحيث تبدو الدولارات المزيفة كالحقيقية تمامًا ، أما لو كان الأمر
يتبع أحد أجهزة المخابرات فسيضع جهاز المخابرات هذا ، أية
كانت هويته ، اعتبارًا خاصًا ، وهو يصنع تلك الدولارات المزيفة ،
وهو ألا ترتد إليه دون أن يدري ، فتفسد اقتصاده هو أيضًا .

سأله أحد الرجال في لهفة :

- وما الذي يمكنه فعله ، لتحقيق هذا ؟!

أشار (ن . ط) بسبابته ، مجيبًا في سرعة :

- يترك ثغرة ما في عمله .

أطل استنكار واضح من العيون فتابع قائلاً :

- ثغرة بالغة الدقة أيضًا ، في جزء صغير للمغاية في الدولارات
المزيفة ، لا تبدو واضحة للفاحص المدقق ، إلا إذا كان يعرف
طبيعتها وموضعها بالضبط .

استوعب الجميع فكرته على الفور ، وتبادلوا نظرة متوترة ،
جعلت المدير يقول :

- فكرة معقولة للمغاية ، فكل ما عليهم عندئذ ، هو أن يفحصوا
نقطة بعينها ، في كل دولار يدخل بلادهم ، لتحديد ما إذا كان

مزيفاً أم لا ، وبسرعة كبيرة .
هتف (ن . ط) في حماس .. بالضبط .

وهذا أمر لا يمكن أن تتقنه سوى أجهزة المخبرات ، وليس المنظمات الإجرامية ، مهما بلغت قوتها .

تبادل الرجال نظرة أخرى ، قبل أن يقول المدير لرجل المخبرات (ن . ط) في حزم :
- فليكن .. تولّ أنت هذا الأمر بنفسك ، وأبلغنا بالنتائج ، فور توصلك إليها .

ومنذ تلك اللحظة ، تم إسناد المهمة إليه رسمياً .

وطوال الأيام الثلاثة ، التي استغرقتها عملية فحص الدولارات المزيفة ، بواسطة اثنين من أشهر مكافحي التزييف والتزوير في (مصر) ، راح (ن . ط) يدرس كل ملف ، من الملفات الخاصة بحالات التزييف ، التي تم كشفها ، خلال الأشهر العشرة الماضية ..

وقبل أن ينتهي من دراسته هذه ، وصله تقرير الفحص .. وكانت فكرته صائبة إلى حد مدهش .

لقد كشف الخبيران ، بعد تكبير صورة دقيقة لورقة زائفة ، من فئة مائة الدولار ، ثلاثين مرة ، أن جزءاً لا يتجاوز ربع المليمتر ،

وفي ذلك اليوم ، عندما انتهى (ن . ط) ورفيقه (م) من أداء صلاة الفجر ، كان عليهما أن يعودا إلى ملف العملية ، وأن يواصلوا دراسته لثلاث ساعات أخرى ، على الرغم من الإرهاق الشديد ، الذي يشعر به كل منهما ، والذي لم تتجح أقذاح القهوة المتتالية في إخماد الشعور به ..

وفي الثامنة إلا الربع تقريبًا ، لوح (م) بذراعه ، هاتفًا :

- هذا يكفي .. لم يعد باستطاعتي حتى فهم ما أقرؤه .. إنني أحتاج إلى النوم ، قالها ، ونهض يلقي جسده على أريكة مجاورة ، ويستغرق في نوم عميق بسرعة مذهشة ..

أما (ن . ط) ، فعلى الرغم من حاجته أيضًا للنوم ، إلا أنه ظل يقاوم في بسالة لنصف ساعة أخرى ، حتى يتم مراجعة ، آخر نقطة في الملف . و ...

وفجأة ، ارتفع رنين الهاتف على مكتبه ، والذي خصصه لتلقى بلاغات التزييف الجديدة وحدها ، فاخطف سماعته في لهفة ، وتساءل عن محدثه ، فأتاه صوت زميله (و) في (بور سعيد) وهو يقول في لهجة تحمل حماسًا واضحًا :

- صباح الخير يا (ن . ط) .. أتعثم أن تكون قد نمت جيدًا ليلة أمس ، فما سأخبرك به يستلزم أعصابًا هادئة للغاية .

أشعلت العبارة الحماس ، في كل خلية من خلايا (ن . ط) ، وهو يسأل زميله (و) في لهفة :

- ماذا لديك يا رجل !؟

أجابه (و) في سرعة :

- لقد أمسكنا طرف خيط ، في عملية الأوراق الخضراء .

لم يكن (ن . ط) بحاجة لسماع المزيد ، وكان يدرك جيدًا أيضًا أنه من المستحيل أن ينقل إليه زميله (و) التفاصيل عبر أسلاك الهاتف ، مهما بلغت ثقته فيها ، لذا فقد أنهى المحادثة في سرعة وأبلغ رؤسائه بالأمر ، ثم قفز في واحدة من السيارات التابعة للجهاز ، وطلب من سائقها الانطلاق به إلى (بور سعيد) بأقصى سرعة ..

وكانت لرحلة السفر هذه فائدة مزدوجة ، فقد استغرق (ن . ط) خلالها في نوم عميق أعاد إليه بعض نشاطه وحيويته ، ثم التقى في نهايتها بزميله (و) الذي استقبله في ترحاب ، ثم قال على الفور :

- صباح أمس ، أبلغ مدير فندق (البدر) هنا المباحث العامة ، عن سائحة إسرائيلية ، تحمل جواز السفر الإسرائيلي رقم (4095316) ، وتبلغ من العمر 21 عامًا ، قدمت له ثلاث ورقات من فئة مائة الدولار لاستبدالها بعملة محلية ، وبعد أن أتم عملية الاستبدال ، كشف بالمصادفة أن الأوراق زائفة .

تراجع (ن . ط) ، قائلاً في استنكار :

- هل أحضرتني ، من (القاهرة) إلى هنا من أجل هذا فحسب !؟

هزَّ (و) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- كلا بالطبع ، فبلى هنا لا يتجاوز الأمر بلاغات التزيف المعتادة ، ولكن أحد رجالنا اشتبه في الفتاة نفسها ، بعد أربع ساعات فحسب من واقعة فندق (البدر) ، لأنها تحمل آلة تصوير حديثة ، وتقوم بتصوير الأماكن المهمة شديدة الحساسية في (بور سعيد) .

سأله (ن . ط) في لهفة :

- وهل أقيمت القبض عليها ؟!

هزاً (و) رأسه نفيًا ، وأجاب :

- كلا بالطبع ، ولكننا نراقبها مراقبة دقيقة للغاية ، ونتابع تحركاتها في المدينة طوال الوقت .

ثم مال نحوه ، مستطرذاً في حزم :

- ومن الواضح ، مع تقارير المراقبة أننا قد وقعنا على صيد ثمين بحق .

لم يكن (و) بحاجة إلى شرح هذا الأمر فعلاً ، فلقد استوعبه (ن . ط) من اللحظة الأولى تماماً ..

إسرائيلية تسعى لالتقاط الصور للأماكن ذات الحساسية ، وتعمل على ترويج الدولارات الزائفة في الوقت ذاته ..

من يطلب أفضل من هذا ؟! ..

وبالتنسيق مع المباحث العامة ، تمت عملية مراقبة السائحة الإسرائيلية ، وبدأ الجانب الإيجابي من العملية ..
عملية الأوراق الخضراء ..

أما السائحة الإسرائيلية ، التي سنطلق عليها هنا اسم (راشيل) ، فقد واصلت التقاط صور الأماكن المهمة ذات الحساسية في (بور سعيد) وواصلت استبدال الأوراق المالية الزائفة ، فئة مائة الدولار ، متصورة أن المصريين نائمون ، وأنهم كما أخبروها في (تل أبيب) ، لن يمكنهم كشف عملية شديدة الإتقان كهذه ..

وعندما انتهى عملها ، واستعدت لمغادرة البلاد ، وأعدت حقائبها التي خلت من كل ما كانت تحويه من الدولارات الزائفة ، وهي تطلق ضحكاتها الساخرة ، وتحتفل بنجاح مهمتها فوجئت بمن يطرق باب حجرتها ، ثم يقدم لها نفسه ، قائلاً في اختصار صارم :

- (ن . ط) .. من المخابرات العامة المصرية ..

ولثوان ، حدثت الإسرائيلية في وجهه بذهول ، ثم لم تلبث أن تراجعت في عنف ، كمن أصابتها صاعقة ، وهي تهتف :

- لا .. لا .. مستحيل .. أنا لم أفعل شيئاً ، لم أفعل شيئاً ..
دلف (ن . ط) ورجاله ، ووكيل نيابة أمن الدولة إلى الحجره وقال الأول بنفس هدوئه المعهود :

- هل تفضلين أن نطرح أوراقنا كلها!؟

قالها ، وهو يضع أمامها عددًا من الصور ، التي تم التقاطها لها ، وهي منهمكة في تصوير تلك الأماكن العامة ذات الحساسية ..

وارتجفت كل خلية في جسد الإسرائيلية ، و(ن . ط) يواجهها في صرامة ، قائلاً :

- لاحظي أن أوراقنا كلها حقيقية ، وليست زائفة كدولاراتك ، ومع عبارته الأخيرة ، ألقى أمامها كل الدولارات المزيفة ، التي استبدلتها في عمليتها هذه ..

وكان من الطبيعي أن تنهار الإسرائيلية تمامًا ..

وأن تنساب الاعترافات من بين شفتيها كالسيل ، ثم تنتقل إلى أصابعها التي دونت كل تلك الاعترافات ، ثم ذيلتها بتوقيعها في النهاية ..

ومن الاعترافات وما تحويه من معلومات ، انطلق (ن . ط) يضع اللمسات الأخيرة لعملية الأوراق الخضراء ..

وسقط كل أعضاء شبكة الدولارات الزائفة ، وتم ضبط ما يزيد عن ثلاثمائة ألف دولار أمريكي زائف ، مع عدد من الإسرائيليين والأجانب ، ينتمي بعضهم لأحد المراكز الثقافية الأجنبية ..

وترنح الإسرائيليون مع قوة الصفحة ، وحاولوا التوصل من الأمر كله ، ولكن اعترافات رجالهم كانت واضحة قوية .. ومسجلة ..

ولم يعد هناك مفر من الاعتراف بأن المصريين قد انتصروا هذه المرة أيضًا ، وأنهم قد نجحوا في إنقاذ اقتصادهم ، ومواصلة خطة النمو ، على الرغم من كل ما فعله المتربصون ..

وأطلق الإسرائيليون على عمليتهم الفاشلة هذه اسم (عملية الأوراق المحترقة) ، ودفنوها في أحد ملفات الخسائر ، ولكنها ظلت تحمل في قسم العمليات الناجحة ، في المخابرات العامة المصرية نفس الاسم الذي بدأت وانتهت به ..

عملية الأوراق .. الخضراء ..

من يضحك أخيراً

« ألقى الإسرائيليون القبض على (جودت) بك .. »

نطق رجل المخابرات المصري هذه العبارة في انفعال واضح ، وهو يلوح بصحيفة حديثة مطبوعة بحروف عبرية واضحة ، فالتقى حاجبا رئيسه المباشر في توتر واضح وتعلق بصره بالخبر المنشور في الجريدة ، وقرأه في سرعة ، أعانته عليها إجادته التامة للعبرية ، قبل أن يرفع عينيه إلى رجل المخابرات قائلاً :

- وكيف حدث هذا ؟.. المفروض أن يحصل (جودت) بك على تغطية جيدة .. إنه واحد من أفضل عملائنا داخل (إسرائيل) !

لوح رجل المخابرات بالصحيفة في حنق وهو يقول :

- لم نحصل على معلومات كافية بعد .. لقد فاجأنا الخبر المنشور في صحيفة (العال) .

ازداد انعقاد حاجبي رئيسه ، وهو يغمغم :

- يا للخسارة !

نطقها ، وهو يعنى كل حرف منها بالفعل ، فالعميل المعروف باسم (جودت) بك ، لم يكن أبداً عميلاً عادياً ، وإنما كانت له دائماً أهمية كبيرة ، بين قائمة عملاء المخابرات المصرية ، الذين يعملون في قلب إسرائيل ..

والواقع أن (جودت) بك - وهذا اسمه الحركي - كان ضابطاً سابقاً في الجيش التركي - أصيبت ذراعه إصابة بالغة ، نتيجة لانفجار قنبلة ، أثناء مناورة تدريبية ، وتم علاجه لبعض الوقت في المستشفيات التركية ، ثم قرر أن يستكمل علاجه في (القاهرة) ..

وأثناء حصوله على تأشيرة دخول إلى (مصر) ، التقى (جودت) بك بمترجم شاب ، يعمل في المكتب الصحفي للسفارة المصرية ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما ، وعرف المترجم الشاب أن (جودت) بك كان يعمل لحساب المخابرات التركية في (كوريا) ، قبل أن يترك العمل في الجيش - بعد إصابته - ويتجه إلى الأعمال الحرة التجارية ..

والتقطت المخابرات المصرية طرف الخيط ، وشجعت المترجم الشاب على توطيد علاقته بالضابط التركي السابق وأكثر وأكثر ، وخاصة بعد أن علمت أن (جودت) بك له بعض العلاقات التجارية مع (إسرائيل) ..

ولم تمض أسابيع قليلة ، حتى كان (جودت) بك يعمل لحساب المخابرات المصرية في قلب (إسرائيل) ، التي تعددت زيارته

لها ، وتضاعفت عملياته التجارية معها ، وربطته مع العديد من مسئولياتها صلات و صداقات وطيدة ..

وطوال عدة سنوات ، راح (جودت) بك يمد المخابرات المصرية بعشرات المعلومات الثمينة ، عن أدق الأسرار الإسرائيلية ، وتطوّرت علاقاته أكثر وأكثر ، و ...

وفجأة ، سقط (جودت) بك في أيدي الإسرائيليين ..

« ولكن كيف؟! ..! »

هتف رجل المخابرات المصري بالسؤال في سخط ، ولكن رئيسه بدا هائلاً ، مستغرقاً في تفكير عميق ، وهو يشير إليه بسبابته ، قائلًا :

- كل شيء في عالمنا له أسبابه المنطقية ، ولو أننا درسنا الموقف جيدًا ، دون إهمال أية تفاصيل ، فسننتوصل بإذن الله إلى الثغرة ، التي كشفت أمر (جودت) بك ، وأوقعته في قبضة الإسرائيليين ..

ولم تكن عبارته هذه مجرد وسيلة لتهذنة رجل المخابرات ، وإنما كانت تحديدًا لمنهج البحث ، الذي ينبغي اتخاذه ، لتحديد الموقف بالضبط ..

وعبر عشر ساعات كاملة ، راح الفريق المسئول عن العميل (جودت) بك ، يراجع كل حرف يحويه ملفه ، وكل العمليات التي

أسندت إليه ، والمعلومات التي حصل عليها ..

وفجأة ، هتف أحد الرجال :

- الأطلس ..

ولم يكن بحاجة إلى إضافة حرف واحد ، فقد فهم الجميع على الفور ما يعنيه بهتافه ، فقد نما إلى علم إدارة المخابرات أن إحدى المكتبات الجديدة في تل أبيب تعرض أطلسًا جيولوجيًا خاصًا ، يحوى خرائط توزيع الثروة المعدنية في (إسرائيل) ، ولما كانت هذه المعلومات تعد من المعارف الأساسية ، التي ينبغي الحصول عليها من العدو ، فقد طلبت المخابرات من عميلها (جودت) بك إحضار نسخة من الأطلس ، أثناء زيارته التالية إلى (إسرائيل) ، وكان المطلب بسيطًا ، فلم يدر بخلد أحد في البداية ، أن هذا هو الفخ ، الذي أوقع بالعميل التركي ..

ولكن الصورة اتضحت الآن ، وقال أحد رجال المخابرات في ضيق :

- كان فخًا أوقعنا فيه الإسرائيليون ، فمن المؤكد أنهم شعروا بوجود ثغرة خطيرة ، تتسرب منها المعلومات ، فوضعوا هذه الخطة ، وأنشئوا مكتبة وهمية نسبوا إليها وجود مثل هذا الأطلس ، بحيث يضمنون أن تصل هذه المعلومة إلى مخابراتنا وحدها ، وعندما يتقدم شخص ما إلى هذه المكتبة الزائفة ، لطلب ذلك الأطلس

بالتحديد ، سيكون موفداً من قبلنا حتماً .

ران صمت ثقيل على المكان بعد أن شرح رجل المخابرات وجهة نظره المقنعة ، ثم لم يلبث زميل له أن قطع حاجز الصمت هذا ، وهو يقول في مرارة :

- أكاد أسمع الآن صدى ضحكات رجال المخابرات الإسرائيلية ، وهم يُراجعون خطتهم ويسخرون منا ، بعد أن أوقعوا بعملنا (جودت) بك .

ارتفع صوت رئيسه ، وهو يقول في مزيج من الدهشة والحيرة ، فتابع في صوت قوى :

ربما يتصور الإسرائيليون أنهم نجحوا في هزيمتنا بلعبتهم هذه .. فلندعهم يتصورون هذا إذن ، ولنلتقط نحن طرف الخيط ، ونرد لهم الصاع صاعين ..

بدا التساؤل في عيونهم ، فتابع في حسم :

- هيا يا رجال .. سنقلب المائدة على رءوسهم ، وننتزع النصر من بين فكي الهزيمة .. دعونا نتيقن أولاً من صحة نظريتنا ، وبعدها سنستغل خدعة الإسرائيليين ، ونريهم ما يمكننا أن نفعله معهم .

ولم يضيّع الرجال لحظة واحدة ، بل أرسلوا مندوباً آخر إلى المكتبة الوهمية نفسها ، في (تل أبيب) ، وطلبوا منه أن يشتري بعض الخرائط السياحية فحسب ، دون أن يُشير من قريب أو بعيد

إلى ذلك الأطلس ، أو يبدى أية رغبة في رؤيته ..

ومنذ اللحظة الأولى ، التي وضع فيها المندوب قدميه في تلك المكتبة ، أدرك على الفور حقيقتها ، ولكنه لم يبد اهتماماً ، واكتفى بشراء بعض الخرائط السياحية كسائح عادي ، وغادرها وهو على يقين من أنها تتبع المخابرات الإسرائيلية ..

وفي (القاهرة) ، راح الرجال يبنون خطتهم ، انطلاقاً من هذه النقطة ، فراجعوا كل ما لديهم عن ذلك الأطلس ، وكيفية معرفتهم بوجوده ، ولخص أحدهم الموقف لرئيسه ، قائلاً :

- المعلومات عن الأطلس وصلتنا من الملحق العسكري المصري في (باريس) ، عن طريق أحد مندوبيه ، وهو عربي فلسطيني ، أو إنه يدعى كونه كذلك ، فقد أجرينا بعض التحريات الدقيقة عنه ، وكشفنا أنه إسرائيلي ، يعمل لحساب (الموساد) ونحن في انتظار أوامرك .. هل نستدرجه ، ونلقى القبض عليه ؟

هزّ رئيسه رأسه نفيًا ، وقال بابتسامة هادئة :

- كلاً .. دعنا نتظاهر بالغباء ، وبأننا لم نكشف أمره ، ولم ننتبه إلى خدعة الأطلس هذه ، ولنلعب اللعبة هذه المرة بأسلوبنا نحن .

وقد كان

لقد جمع رجال المخابرات المصرية قدرًا هائلًا من المعلومات ، عن ذلك العميل الإسرائيلي دون أن يشعر بهذا ، وأصبحوا يعرفون

كل شيء عنه تقريباً ، من محل إقامته في (باريس) ، وحتى الأماكن التي يفضل السهر فيها .

و ذات ليلة ، كان ذلك المندوب الإسرائيلي ، الذي يطلق على نفسه اسم (عمر) يقضى إحدى سهراته في ملهى ليلي في (باريس) ، عندما لاحظ وجود شاب عربي ، مصري الجنسية ، يقضى سهرته في الملهى نفسه ، ويبدو شديد اللهفة على الشرب والنساء ، ومقبلاً على المذات ، التي اشتهرت بها أماكن اللهو في (باريس) ..

وكان من الطبيعي أن يجذب هذا الشاب المصري انتباه (عمر) ، الذي راح يراقبه في إمعان واهتمام ، ثم لم يلبث أن قرر الاقتراب منه أكثر ، فانتهاز الفرصة ذات ليلة ، عندما فوجئ الشاب المصري بأن فاتورة الملهى تفوق ما يحمله من نقود ، فارتبك ، واضطرب ، وتوتر ، ولكنه وجد (عمر) أمامه ، يقول :

- اطمئن .. أنا سأدفع الفاتورة هذه الليلة .

اعترض الشاب المصري في تخاؤل ثم اضطرب ؛ فاتضم إليه (عمر) على مائدته ، وقال :

- أنت مصري .. أليس كذلك ؟ .. لقد عرفتك من لهجتك .

أجابه الشاب المصري :

بلى .. اسمي (عاصم) ، وأنا طالب مصري ، أقضى إجازتي هنا في (باريس) .

واتصل الحديث بينهما فترة طويلة ، عرف (عمر) خلالها أن (عاصم) هذا له شقيق يعمل في رئاسة العمليات في الجيش المصري ، وأن هذا الشقيق كثيراً ما يحمل بعض الأوراق المهمة من مقر عمله ، ليكمل المطلوب منها في المنزل ..

وعندما افترقا ، مع نسمات الصباح الأولى ، هرع (عمر) إلى رئيسه ، وطرح أمامه الأمر كله ،

واستمع إليه رئيسه الإسرائيلي في اهتمام بالغ ، ثم أعلن شكوكه في الموقف كله ، وقرر إجراء بعض التحريات أولاً ، للتأكد من صحة المعلومات ، التي حصل عليها (عمر) ..

وجاءت نتائج التحريات مرضية للغاية ، فقد ثبت وجود ضابط في رئاسة العمليات في الجيش المصري ، يحمل الاسم نفسه ، وله شقيق يقضى إجازته في (باريس) ، يحمل اسم (عاصم) ، ويميل إلى اللهو والعبث ..

وأعطى رجل المخابرات الإسرائيلي الضوء الأخضر لعملية (عمر) ، الذي بدأ يغدق الأموال على (عاصم) ، خلال سهراتهما معاً ، ثم لم يلبث أن ألقى عرضه ، قائلاً :

- قل لي يا (عاصم) لماذا لا تحصل على عمل بأجر مجز ، يتيح لك الإنفاق على مثل هذه السهرات ؟

وعلى يد الضابط الإسرائيلي ، تم تدريب (عاصم) على استخدام
الحبر السري ، وطريقة الكتابة به ، بين سطور خطابات عادية ،
وعلى كيفية الحصول على المعلومات ، واستخلاصها من الأوراق
المهمة ، التي يحضرها شقيقه معه إلى المنزل ..

وبعد عودة (عاصم) إلى (القاهرة) ، بدأت المعلومات تنهال منه
على الإسرائيليين ، الذين تأكدوا من صحتها ، مما جعلهم يولون
(عاصم) ثقتهم كلها ، ويعتبرونه مندوباً على درجة عالية من الأهمية
بالنسبة لهم ..

ولأن معظم المعلومات كانت سرية ومهمة بالفعل ، فقد سأل لعاب
الإسرائيليين ، حتى كادوا يغرقون فيه ، وأرسلوا لمندوبهم في
(القاهرة) (عاصم) ، يسألونه :

- مادامت أوراق شقيقك تحوى كل هذه الأسرار ، فلم لا تقوم
بتصويرها ، وإرسال الصور إلينا ، بدلاً من إرسال ملخصات عنها ؟

ولم يكذب عليهم هذا يصل إلى (عاصم) ، حتى أرسل إليهم قائلًا :

- ربما كان التصوير أفضل من التلخيص ، ولكنى أجهل كل
شئ عن قواعد التصوير ، ولست أدري كيف أفعل هذا ؟

وهنا أعلنه الإسرائيليون باستعدادهم لإرسال أحد مدربيهم إلى
(مصر) ، لتدريبه على هذا النوع من التصوير ، وعلى ممارسته

ضحك (عاصم) ، وقال :
- ومن أين لى بمثل هذا العمل ؟

مال (عمر) نحوه ، وقال فى لهجة خاصة :

- ما رأيك بالعمل لحساب حلف الأطلنطى ؟.. إنهم يدفعون مكافآت
مجزية ، نظير بعض المعلومات .

بدت الحيرة على وجه (عاصم) ، وهو يقول :

- ومن أين لى بمثل هذه المعلومات ؟

تراجع (عمر) ، وتطلع طويلاً إلى عيني (عاصم) الحائرتين
المتسائلتين ، قبل أن يقول :

- وماذا عن الأوراق ، التي يحملها شقيقك معه إلى المنزل ؟

أبدى (عاصم) ذعره من مجرد الفكرة ، ورفضها بشدة فى
البداية ، ولكن (عمر) ظلّ يشرح له الأمر ، ويهون عليه
مخاطره ، ويلوِّح بالمكافآت والنقود ، حتى خضع (عاصم) تماماً
وأعلن استعدادَه التَّام للتعاون ..

وهنا انتهى دور (عمر) ، الذى رتب اجتماعاً للطالب (عاصم)
مع ضابط المخابرات الإسرائيلي ، باعتباره أحد المسئولين فى
حلف الأطلنطى ..

في الظروف المختلفة ، تحت الإضاءة العادية ، وبسرعة مناسبة ، وأخبروه أنهم سيمدونهم بكل الأجهزة المطلوبة لأداء هذا ، وأنهم سيشترون بعض هذه الأدوات من (القاهرة) ..

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى وصل رجل المخابرات الإسرائيلي إلى (القاهرة) ..

وكانت مفاجأة كبيرة ..

فالمندوب الإسرائيلي ، الذي سيقوم بتدريب (عاصم) ، كان هو نفسه الرئيس المباشر للعميل الإسرائيلي (عمر) ، والذي قدّم نفسه من قبل ، باعتباره مسئول حلف الأطلنطي في (باريس) ..

واستقبل (عاصم) الضابط الإسرائيلي في (القاهرة) وتسلم منه أجهزة التصوير ، وخضع لتدريبات مكثفة على تصوير المستندات ، وفي النهاية قال له الضابط الإسرائيلي :

- الآن أصبحت خبيراً في التصوير يا (عاصم) ، والمطلوب منك أن تقوم بتصوير كل ورقة من الأوراق التي يحضرها شقيقك معه إلى المنزل ..

سأله (عاصم) :

- ولكن كيف يمكنني إرسال الصور إليك ؟

ابتسم الضابط الإسرائيلي وهو يقول :
- لا تقلق نفسك بهذا الأمر .. سأعطيك رقم صندوق بريد في (القاهرة) ..

كل المطلوب منك هو أن ترسل إليه الأفلام بعد تصويرها .
ثم ألقى إليه برقم صندوق البريد وهو يستطرد في حزم :

- احفظه عن ظهر قلب ، وحذار أن تدوته في أية ورقة ، مهما كانت الأسباب أو الظروف .. هل تفهم جيداً ؟

ابتسم (عاصم) ، وهو يقول :
- اطمئن .. لن أحتاج إلى تدوينه ..

يكفيننا أننا عرفناه .
تراجع الضابط الإسرائيلي في حدة ، وهو يقول :

يكفيننا؟! .. ما الذي تعنيه بصيغة الجمع هذه؟! ..

لم يكذب يتم سؤاله ، حتى أتاه الجواب بأعنف وسيلة يمكنه تخيلها ..

لقد افتحتم المكان بقعة عدد من الرجال ، أحاطوا بالضابط الإسرائيلي ، الذي انتابه انفعال عنيف ، وهو يهتف :

- ما هذا بالضبط؟

تبادل (عاصم) نظرة ساخرة مع ضابط المخابرات المصري ،
الذي أجاب :

- نسينا أن نخبرك أن (عاصم) هذا ، الذي يجلس أمامك ،
وحيد أبويه ، ولا أشقاء له .

هتف الإسرائيلي :

- مستحيل !.. لقد أجرينا تحرياتنا ، و ...

قاطع ضابط المخابرات المصري :

- ووجدتم أنه يوجد بالفعل ضابط من ضباط رياسة العمليات ،
له شقيق يحمل اسم (عاصم) ، ويقضى إجازته في (أوربا) ..
هذا صحيح .. ولكنه ليس (عاصم) هذا الذي يقف أمامك ، فهذا
يعمل لحسابنا .. لحساب المخابرات المصرية .

ولم تمض ثلاثة أيام فحسب على هذا الموقف ، حتى كان ضابط
المخابرات المصري يقف أمام رئيسه ، ويقول في حماس :

- تصور ما أسفرت عنه التحقيقات يا سيدي .. إننا لم نقع على
صيد عادى ، وإنما حققنا ضربة مزدوجة رائعة ، فذلك الإسرائيلي

في (فرنسا) ، هو المسئول الأول عن الإيقاع بالشباب العربى
في (أوربا) وتجنيدده للعمل لحساب (الموساد) ، أما بالنسبة لصندوق
البريد ، فهو يخص سيدة أجنبية ، تعمل في إحدى المستشفيات
في (القاهرة) ، وترأس شبكة الاتصالات الداخلية لحساب العدو ،
ولقد ألقينا القبض عليها أيضاً ، وكشفنا الشبكة كلها .

ارتسمت على شفתי رئيسه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- هل أدركت الآن ما كنت أقصده ، عندما قلت لك : «دعهم
يضحكون» ؟.. العبرة دائماً ليست بمن يضحك في البداية يا رجل ..
المهم من يضحك أخيراً .

قالها وانطلق يضحك بملء فيه ، وبكل ما يملأ كيانه من شعور
بالارتياح .. وبالظفر .

نار ودخان

بدأ ذلك المساء ، فى الثالث والعشرين من يوليو عام 1954م .
هادنا منعشًا ، بالنسبة لليوزباشى (نقيب) (حسن زكى المنادى)
معاون مباحث قسم (العطارين) بالإسكندرية ، على الرغم من
حرارة الجو الواضحة ، والهواء الرطب الذى يتنفسه ، إذ لم
يواجه أية أحداث عنيفة منذ الصباح ، واقتصر عمله على تفقد
المخبرين السريين المنتشرين فى مناطق التجمعات السكنية ،
على نحو روتينى ، وامتد به العمل حتى الساعة مساءً ، وهو
ينهى جولته بالقرب من سينما (ريو) حيث استوقف أحد
المخبرين ، وسأله :

- أكل شىء يسير على ما يُرام ؟

أجابه المخبر فى آلية واحترام ، وهو يؤدى التحية
العسكرية الرسمية ، وكأنما نسى أنه فى عمل تفترض فيه
السرية :

- كل شىء على ما يُرام ، والأمن مستتب .

أوماً (حسن) برأسه متفهمًا ، على نحو روتينى ، وغمغم
وهو يُشير إلى سائقه بمواصلة السير :

- أبلغنا فورًا ، لو حدث أى شىء .

وبدأ السائق تحركه بالفعل ، فى نفس اللحظة التى انبعثت فيها
فرقعة مباغتة ، من مدخل سينما (ريو) ، واندفع منه إلى
الشارع شاب اشتعلت النار فى سرواله ، مع دخان كثيف ،
ورائحة نفاذة ، وهرع إليه الناس يُحاولون إنقاذه ، فهتف
(حسن) فى سائقه :

- انتظر .. هذا الشاب يحترق .

وبدون تردد ، قفز خارج السيارة ، وأسرع إلى الشاب ، وألقاه
أرضًا ، وألقى نفسه فوقه ، وراح يلف جسده فى قوة ، حتى
انطفأت النيران تمامًا ، وهنا نهض واقفًا وهو يلهث ، ومد يده
للشاب ليعاونه على النهوض ، قائلاً :

- لقد نجوت بأعجوبة ، ولكن سروالك احترق عند الفخذ .

نهض الشاب متوترًا فى شدة ، وهو يقول مرتبكًا :

- إنها أعواد الثقاب اللعينة .. لقد اشتعلت داخل جيبي ، من

شدة الحرارة ، عقد النقيب (حسن) حاجبيه فى شك ، وهو يستمع

إلى هذا التبرير المضحك ، الذي لا يستند مطلقاً إلى أى سند علمي ، وهمّ الشاب بالانصراف بسرعة ، ولكنه استوقفه ، وأصر على اصطحابه إلى المستشفى العام لإسعافه ، وهو يسترجع في ذهنه بعض ما سمعه ، عن سلسلة من الحرائق ، شغلت زملاءه في (الإسكندرية) و (القاهرة) ، منذ ما يقل قليلاً عن الشهر ، ففي الثاني من يوليو ، احترق مكتب البريد الرئيس في (الإسكندرية) ، وعثر الصاغ (ممدوح سالم) (وزير الداخلية فيما بعد ، في عهد الرئيس أنور السادات) ، على جراب منظار طبي ، احترق جزء كبير منه ، وتبقى ما يكفي لمعرفة أنه يخص محلات (مارون إياك) الشهيرة ، للمناظير الطبية والشمسية في (الإسكندرية) ..

وفي التاسعة من مساء الرابع عشر من يوليو ، احترقت - في وقت واحد تقريباً - مكتبة المركز الثقافي الأمريكي في (القاهرة) ..

واليوم تشتعل النيران في جيب شاب ، في مدخل سينما (ريو) ..

وراح الشك يتصاعد ويتصاعد ، في أعماق الضابط الشاب ، حتى وصل إلى المستشفى العام ، وهناك لاحظ الأطباء أن منطقة الاحتراق في جسد الشاب ملوثة بمادة فضية لامعة ، أشبه بمسحوق الألومنيوم ، وأن ما أصابه كان نتيجة لتفاعل كيميائي ، حدث قبل الأوان المحدد له ، و ...

وعثروا في جيبه على جراب منظار طبي ، يحوى المسحوق نفسه ، ويحمل اسم (مارون إياك) ..

وبلا تردد ، ألقى الضابط القبض على الشاب ، واصطحبه إلى مبنى المباحث العامة في (الإسكندرية) ، حيث تسلمه المقدم (محمد سمير درويش) ، وبعد ساعة واحدة ، كان قد أدلى بالكثير .. والكثير جداً ..

اسمه (فيليب هيرمان ناتسون) .. يهودي ، في الحادي والعشرين من عمره ، ويعمل في مكتب سمسار يهودي في بورصة القطن ، ويُقيم مع والدته في فيلا صغيرة في حي (بولكلي) .

وقبل مرور ساعة أخرى ، كانت قوات الأمن تقتحم فيلا (فيليب ناتسون) ، وتفتش كل شبر فيها ، وبالذات حجرة خاصة مستقلة في الحديقة ، كان يستخدمها لتحميض الصور ، كما أخبر والديه ، ولكن الرجال عثروا فيها على مساحيق أخرى ، لا تستخدم إطلاقاً في عالم التصوير ، مثل كلورات البوتاسيوم ، والزنك المعدني ، وأكسيد الحديد ، وغيرها ..

وعندما تمت مواجهة (فيليب) بكل هذا ، خفض عينيه ، مغمضاً :

- نعم .. أنا فعلت كل هذا وحدي .

ابتسم المحقق ، وهو يقول :

- أحقًا فعلته وحدك يا (فيليب) ؟

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

- أم شارك بعض الأصدقاء مثل (فيكتور ليفي) و(روبير داسا)
مثلًا؟ انتفض (فيليب) ، عند سماعه الاسميين ، وحاول أن ينكر
في البداية ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك عدم جدوى هذا ، فاعترف
بأن صديقيه قد شاركاه أفعاله ، ثم سأل في حيرة :

- ولكن كيف عرفتهم بوجودهما ؟

وضع المحقق أمامه صورة له مع صديقيه ، تحمل عبارة بخطه
هو ، تقول :

- « (فيليب ناتسون) ، فيكتور ليفي ، و(روبير داسا) .. أصدقاء
إلى الأبد » .

وقال المحقق مبتسمًا :

- لقد عثرنا عليها في حجرتك الخاصة ، وكان من السهل استنتاج
الباقى .

ولم تكن الخطوات التالية عسيرة ..

لقد ألقى رجال الشرطة القبض على (فيكتور) في منزله ، في
حين سقط (روبير) في قبضتهم أثناء عودته من (القاهرة) ، بعد

أن تسبب في حدوث حريق بمخزن أماتات المحطة هناك ، بقتبلة
أخرى من تلك الموضوعات في جراب منظار طبي ..

ولم يستغرق الشبان الثلاثة وقتًا طويلًا ، للاعتراف بكل
ما فعلوه ، وقالوا إنهم يحبون (مصر) التي تربوا وترعرعوا
فيها ، وهذا ما دفعهم لفعل ما فعلوا ، ليثبتوا للبريطانيين
والأمريكيين أن بقاءهم في (مصر) غير مرغوب فيه ..

وهنا ابتسم المحقق في سخرية ، وقال :

- وماذا عن حريق مكتب البريد ومخزن أماتات المحطة؟! أكانا
رسالة للمصريين ، تعنى أن بقاءهم في وطنهم غير مرغوب فيه
أيضًا ؟

ونكس الثلاثة رءوسهم وبدأ المحقق يفتتح بأن الأمر كله
لايتجاوز مجرد العبث الطفولي ، وحماس الشباب الزائد ، و...
وفجأة ، انقلبت الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد جاء تقرير المعمل الجنائى ، ليشير إلى أن الباحثين عثروا
في منزل (فيليب) ، عند تفتيشه للمرة الثانية ، على سبع شرائح ،
من (الميكروفيلم) ، خلف إطار زجاجى قديم ، وبتكبيرها ، اتضح
أنها تحوى سبع وثائق بالغة الخطورة ، حول تركيب القنابل الحارقة ،
واستعمالها ، وشفرة اللاسلكى ، وطرق إرسالها ، وكيفية الاتصال

بالآخرين ، وصنع دائرة اللاسلكى ، وأسلوب وعنوان إرسال الخطابات إلى (باريس) ..

واتسعت عينا المحقق ، وهو يُطالع هذا التقرير البالغ الخطورة ..

إنه إذن ليس أمام عمل فردى ، أو عبث صبياني سخيف ..

إنه يواجه واحدة فى أكبر القضايا فى حياته ..

قضية جاسوسية من الطراز الأول ..

وفى اللحظة التى تلقى فيها المحقق هذا التقرير ، مصحوباً بشرائح (الميكروفيلم) ، كان يواصل تحقيقاته مع (فيكتور ليفى) ، الذى أدرك - دون تبادل كلمة واحدة - خطورة الموقف ، وتحفرت خلاياه كلها ، عندما بدأ المحقق يجرى مكالمة هاتفية مهمة ..

ولم تستغرق المحادثة أكثر من دقيقتين ، ولكن عندما انتهى منها المحقق ، واستدار ليواجه (فيكتور) مرة ثانية ، كانت أمامه مفاجأة مذهلة ..

لقد اختفت شرائح الميكروفيلم ..

صحيح أن التقرير كان فى نفس موضعه ، ولكن الشرائح الموضوعه فوقه اختفت تماماً ، دون أدنى أثر ..

وهتف المحقق فى (فيكتور) :

- أين الشرائح ؟

أجابه فى برود عجيب :

- أية شرائح ؟ .. لم أر سوى هذه الأوراق .

وتفجّر الغضب فى أعماق المحقق ، ممتزجاً بالكثير من الإحباط والمرارة ، فتلك الشرائح كانت الدليل الوحيد - تقريباً - الذى يحول القضية من جناية عادية ، إلى جاسوسية وتخبر مع دولة أجنبية ، وبدونه ينهار هذا الشق تماماً ، ويخسر الرجال طرف الخيط ، الذى ربّما يقود إلى ما هو أكثر أهمية وخطورة ..

ولكن أحذاً لم يستسلم لما حدث ..

لقد قلبوا الدنيا كلها على رأس (فيكتور ليفى) ، حتى عثروا على الشرائح أخيراً ، فى ثنية سرواله ، فاعتدل المحقق ، وقال بصوت صارم مُخيف :

- والآن دعنا نعود إلى أسئلتنا يا (ليفى) .

وفى هذه المرة اتهار (فيكتور ليفى) ، وراحت الاعترافات تسيل من شفثيه ، كشلال منهمر ، ينافس فى تدفقه شلالات (نياجرا) الشهيرة ..

وراحت عشرات الأسماء الجديدة تتوالى ، وعشرات الرعوس
اليانعة تتساقط ..

(صمويل باخور عازار) ، الرسام والمدرس المهندس ..

(ماير صمويل ميوحاس) ، الوسيط التجارى ..

(موسى ليتو مرزوق) ، الطبيب بالمستشفى الإسرائيلى ..

(فيكتورين نينو) ، أو (مارسيل) ، الموظفة بشركة الفابريقات
الإنجليزية ..

(ماكس بنيت) ، الموظف بشركة (أنجلو اجيشيان) ..

(إيلى جاكوب نعيم) ، الموظف بشركة (شوارتس) ..

(يوسف زعفران) ، المهندس المعمارى ..

(سيزار يوسف كوهين) ، الموظف ببنك (زلخا) ..

وانطلق الرجال لحصد الرعوس ، وألقوا القبض على كل السابق
ذكرهم ، فى حين نجح اثنان من أقوى أفراد الشبكة فى الفرار
من (مصر) ، قبل أن تصل إليهم أصابع الرجال ..

(إبرام دار) ، أو (جون دارلنج) ، وهو ضابط بالجيش
الإسرائيلى ، والمسئول عن إقامة كل هذه الشبكة ..

(بول فرانك) المشرف على التنظيم ..

ومع سيل الاعترافات ، راحت الحقيقة تتضح كلها ، والبدايات
تتكشف واحدة بعد الأخرى ، إلى حد أصاب الجميع بالدهشة
والقلق ، وحتم نقل التفاصيل كلها إلى أهم شخصية فى البلاد ،
فى ذلك الحين ..

إلى (جمال عبد الناصر) ..

.. وفى هدوء ، راح (جمال) يستمع إلى المسئول ، الذى شرح
الأمر قائلاً :

- إنها ليست منظمة جديدة ، بل يعود تاريخها إلى ثلاث سنوات
مضت ، فقد أنشأها (جون دارلنج) عام 1951م ، وأطلق الإسرائيليون
عليها اسماً كودياً ، وهو (الوحدة - 131) ، وهى تتبع وحدة العمليات
الخاصة التى أنشئوها عام 1948م ، للقيام بأنشطة متنوعة فى
الأراضى العربية ، ولقد نشطت هذه المنظمة فى الوقت الحالى ،
وأشعلت الحرائق فى المنشآت ، فى محاولة لإفساد أية اتفاقات
أو محاولات تقارب ، بين (مصر) والغرب ، ولدفع (بريطانيا)
للبقاء فى (مصر) ، وعدم الجلاء عنها ، كما أن (إسرائيل)
تتصور أن علاقة (مصر) بالغرب ، تفسد علاقتها هى به ، وأن
أفضل ما تفعله ، هو تدمير هذه العلاقة فى بدايتها ..

وكان المسئول مُحَقَّقًا في هذا إلى حد كبير ، ففي تلك الفترة بالذات ، كانت العلاقة بين (مصر) والغرب على خير ما يرام .. الوفود تأتي وتذهب من وإلى (واشنطن) ، والبعثات العسكرية والمدنية يتم تبادلها ، والكثير من المعونات الاقتصادية ، واتفاقيات السلاح ، واتصالات لا حصر لها ، كما أن (واشنطن) كانت تمارس نوعًا من الضغط على (بريطانيا) لتتم الجلاء عن (مصر) ..

ولقد استمع (عبد الناصر) إلى المسئول في اهتمام كامل ، دون أن يُقاطعه مرة واحدة كعادته ، ثم سأل :

- ومن المسئول عن كل هذا ، من الناحية الرسمية ؟

سأله المسئول في اهتمام أكثر :

- هنا أم هناك ؟

لوح (جمال) بكفه ، وقال :

- هناك بالطبع .

- هزَّ المسئول رأسه ، وقال :

- لا يمكن الجزم بالضبط ، حتى هذه اللحظة ، فالعمل يبدو أشبه

بما يقوم به (الموسلا) ، ولكن (إبرام دار) ، أو (جون دارلنج) ، ضابط في الجيش الإسرائيلي ، والأرجح أنه يعمل لحساب المخابرات

العسكرية (الموديعين) ، وهناك صراع سرّي عنيف ، يدور بين الجهازين ، فكل منهما يرغب في إثبات تفوقه ، وسيطرته على هذا العالم .

اعتدل (جمال عبد الناصر) ، وهو يسأل في اهتمام أكثر :

- ولكن هل يعلم رئيس الحكومة الإسرائيلي (موسى شاريت) بهذا ؟

هزَّ المسئول كتفيه ، وقال :

- ربّما نعم ، وربّما لا .. ليس بإمكاننا التيقن الآن .

ابتسم (عبد الناصر) ، وقال :

- هناك وسيلة مؤكّدة لنعلم الجواب .

وقبل أن يسأله المسئول عما يعنيه ، أضاف في حزم :

- سنعلن التفاصيل كلها للعالم ..

وفي اليوم التالي وقف (زكريا محيي الدين) ، رئيس جهاز المخابرات السري (وهو ما كان يطلق على المخابرات العامة في البداية) ، يُعلن نبأ القضاء على شبكة التجسس الصهيونية ، في مؤتمر صحفي عالمي ..

وأصيب الرأي العام الإسرائيلي بالذهول ..

بل وبالانهيار ..

فكانت فضيحة كبرى ، على أعلى مستوى ، وخاصة عندما اتضح أن (موشى شاريت) ، رئيس الحكومة الإسرائيلية ، قد فوجئ بما حدث ، وكأنه كرجل الشارع العادى ..

وارتفعت الأصوات الغاضبة فى (إسرائيل) ، وصرخت الصحف محتجة ومستنكرة ، مما دفع (شاريت) إلى الادعاء بأن كل ما حدث من تدبير حكومة (جمال عبد الناصر) ، لإحراج (إسرائيل) على المستوى العالمى ..

ولكنها كانت كذبة سانجة ، ومحاولة مفضوحة للغاية .. ولم يكن هناك بدٌ من إلقاء الاتهام والمسئولية على أحد كبار رجال الدولة ..

وكان كبش الفداء هو (بنحاس لافون) ، وزير الدفاع .. وفى عصبية ، راح (بنحاس لافون) ، البولندى الأصل ، الصهيونى النزعة ، يتبادل الاتهامات مع مدير المخابرات العسكرية (بينامين جيفلى) ، وكل منهما يدعى أن الآخر هو الذى أعطى التصريح بالقيام بتلك الأعمال التخريبية ..

ومع الاختلاف ، اتكشف الأشرار .. وكانت فضيحة جديدة ..

وفى هذه المرة حملت الفضيحة اسم وزير الدفاع الإسرائيلى ، وأصبحت على المستوى الإعلامى ، تعرف باسم (فضيحة لافون) .. وأعلن (لافون) أنه لم يكن يعلم شيئاً عما حدث ولكن أحداً لم يصدقه ، بل وتضاعف السخط الشعبى ضده ، وخاصة بعد صدور الأحكام فى القضية ..

لقد صدر الحكم فى السابع والعشرين من يناير عام 1952م ، بإعدام كل من (ليتو مرزوق) و(صمويل عازار) ، والأشغال الشاقة المؤبدة (لفيكتور ليفى) ، و(فيليب ناتاتسون) ، والأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً (لروبير داسا) و(فيكتورين نينو) ، والأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات (لماير زعفران) و(ماير ميوحاس) ، وبراءة (إيلى نعيم) و(سيزار كوهين) ..

وبعد أربعة أيام فقط وفى 31 يناير 1955م ، تم إعدام (موسى مرزوق) و(صمويل عازار) شنقاً ، فى سجن الاستئناف بباب الخلق فى (القاهرة) ..

ولم يعد الأمر يحتمل فى (إسرائيل) .. وفى الثانى من فبراير عام 1955م ، تقدم (بنحاس لافون) باستقالته ، من وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وانسحب مع مستقبله كله من خريطة السياسة ..

والواقع أن هذه المنظمة كانت واحدة من أفضل وأقوى الشبكات التي أرهقت الإسرائيليين وأثارت جنونهم ، فقد انضم إليها عدد كبير من المتطوعين من مختلف المهن والنوعيات ، ومن كل مكان في الأرض المحتلة ، وكان منهم المدرس ، والمهندس ، والطبيب ، والإسكافي ، والخباز ، وغيرهم ، وغيرهم وكان يقودهم ويوجههم واحد من أفضل قيادات المخابرات في ذلك الحين ، وقد نجح نجاحًا يستحق الإعجاب والتقدير ، في تدريبهم وإعدادهم ، وتحديد واجباتهم وأهدافهم ، وما زال الباقون منهم على قيد الحياة يتذكرون كلماته الحماسية التي ألقاها على مسامعهم ، في لقلته الأول معهم ، في سبتمبر من عام 1967م وهو يقول :

المفروض أن تنتشروا في كل المناطق التي يحتلها العدو ، وأن تحيلوا حياته إلى جحيم متصل لا ينتهي .. تسفوا الطرق والجسور والمواصلات الهاتفية والرقمية .. أشعلوا الحرائق في المستودعات وقطارات السكك الحديدية .. طاردوا العدو بلا كلل أو هوادة ، واجعلوه لا يطيق البقاء في شبر واحد من الأرض المحتلة ..

ولم يكتف الرجال بسماع الحديث ، بل حوّلوا هذه الكلمات إلى واقع ، وإلى حرب طاحنة ، بلغ من قسوتها أن العدو الإسرائيلي راح يتكتم أبناء النجاحات المتوالية لها ، خشية أن تحطم مغنويات شعبه وجيشه ..

ولكن فجأة ، ومع حلول عام 1969م بدأت سلسلة من النكبات الغامضة ، فقد سقط بعض رجال المنظمة في قبضة الإسرائيليين ، وداهمت الشرطة بيوت العديدين ، واقتادتهم إلى التحقيقات ، التي استخدم فيها العدو أساليب التعذيب القاسية ، التي أدت إلى موت البعض ، وتدمير البعض الآخر ، ثم نصبت دورية إسرائيلية كمينًا لمجموعة من رجال المنظمة ، في طريق عودتهم ، بعد غارة ناجحة على أحد مطارات العدو الحربية ، وتم إعدامهم في الصحراء رميًا بالرصاص ، دون تحقيق أو محاكمة ..

وكان من الواضح أن هذا الأمر يتجاوز حدود المصادفات أو حتى البراعة الإسرائيلية المزعومة ..

لا بد من وجود خائن ، ينقل أسرار المنظمة إلى العدو ..

ولكن من هذا الخائن !؟

هذا هو السؤال ..

وفي مبادرة شجاعة مدهشة ، كلفت المخابرات المصرية اثنين من ضباطها مهمة السفر إلى قلب (سيناء) المحتلة لإجراء تحقيق شامل في هذا الأمر ..

وفي (سيناء) قرر الضابطان أن أقصر الطرق لبلوغ الهدف ، هو الاتصال مباشرة بأحد أعضاء المنظمة المقبوض عليهم ، والذي ظلوا على قيد الحياة في السجن ..

ووقع الاختيار على (محمد سليمان البنديري) ..

وإلقاء القبض على (البنديري) في حد ذاته ، كان مثيراً للحيرة ، فقد كان يخفى في منزله مدفعين رشاشين قصيرين ، ويضعهما في مخبأ يصعب العثور عليه ، وعلى الرغم من هذا فقد داهمت الشرطة الإسرائيلية منزله ذات ليلة ، واتجه الرجال إلى المخبأ مباشرة ، وكانهم يعرفون هدفهم جيداً ، واقتادوه مع الرشاشين إلى السجن ..

وكان على الضابطين العثور على وسيلة مضمونة ، لتحرير المطلوب إلى (البنديري) وعلى الرغم من أن الرسالة لم تكن تجاوز في حجمها حجم خطاب بريد عادي ، إلا أن المخابرات المصرية دفعت مبلغاً ضخماً لأحد حراس السجن الإسرائيليين ، وهو رجل جشع من أصل تونسي ، لينقل الرسالة إلى السجين ، ويعود بالرد ..

ووصلت الرسالة بالفعل إلى (البنديري) ولكنه لم يستطع إرسال الرد ، فقد شاعت الأقذار أن يسقط الحارس ، أثناء صعوده سلم السجن ، وتصاب ساقه بكسر ، أجبره على البقاء في منزله ، فلم يمكنه العودة بالرد ..

ولكن (البنديري) وجد وسيلة مبتكرة لإرسال الجواب إلى أحد ضباط المخابرات ، الذي يربط خارج السجن معظم الوقت ، فقد وقف في النافذة ، في ذلك اليوم الرمادي ، وأخذ يغنى ..

ومن بين كلمات الأغاني والأدعية والصلوات ، أرسل (البنديري) اسم الخائن ..

(على الموجي) ..

وعلى الفور ، نشط جهاز المخابرات لجمع المعلومات عن الخائن .. كان رجلاً في الأربعينات من عمره ، سكير ، يدخن المخدرات ، ويميل إلى مصاحبة الساقطات ، وهو صديق حميم لضابط مخابرات إسرائيلي في (العريش) يحمل اسم (حاييم أبيب) ولقد نزع إلى (سيناء) عام 1957م ، للعمل مع قوات الطوارئ الدولية ، ولكن سوء سلوكه دفع زوجته للعودة إلى (القاهرة) فتزوج بأخرى من (العريش) واتخذ لنفسه عشيقاً ، واستولى على محتويات منزل محافظ (سيناء) تحت حراسة جنود الاحتلال .. بل والأخطر أن التحريات أثبتت أن لديه تصريحاً لدخول المعسكرات الإسرائيلية ، مما يدعم ويؤكد خيائته ..

وعندما وضعت كل هذه المعلومات أمام مدير المخابرات ، صمت بضع دقائق ، وهو يُطالع الملف ، ثم ذيله بالحبر الأحمر بكلمتين محددتين :

أحضروه حياً ..

وبعد دقائق معدودة ، كان رجال المخابرات يدرسون الأمر ، ويراجعون معلوماتهم عن الخائن .. مسكنه ، عاداته ، الأماكن التي يتردد عليها ، ونقاط الضعف في شخصيته ..

كان (على الموجي) يُقيم في مسكن مجاور لمبنى تعمیر الصحارى بالقرب من الشاطيء ويستخدم دراجة آلية في تنقلاته ، وهو دائماً مسلح بمدفع آلي ، ولا يبقى في مكان واحد لفترة طويلة ..

واستغرقت دراسة الأمر الليل كله ، قبل أن يستقر الرأي على أن الوسيلة المثلى لإحضار ، ذلك الخائن إلى (القاهرة) هي أن تقوم غواصة مصرية بنقل ثلاثة من الضباط إلى نقطة قريبة من شاطيء العريش ، حيث يُهاجمون الخائن ، ويجبرونه على مصاببتهم تحت تهديد السلاح إلى الغواصة ، التي تعود بهم إلى (القاهرة) ..

وكانت الخطة بالغة الجرأة ..
وبالغة الخطورة ..
ولكن الرجال الذين قُدت قلوبهم من فولاذ ، لم يترددوا لحظة في الإعداد لتنفيذها ، والاستعداد لخوض غمار خطورتها ..
وقبل أن تنتقل الخطة إلى حيز التنفيذ ، وقع أمر لم يكن في الحسبان ..

لقد أقدمت المقاومة الفلسطينية على اختطاف (فاطمة) عشيقه (على الموجي) التي كانت تعمل بدورها لحساب الإسرائيليين ، وقتلوا ، وأخفوا جثتها في قلب الصحراء ..

وشعر الإسرائيليون بالخطر على رجلهم (على الموجي) فنقلت المخابرات الإسرائيلية مسكنه إلى داخل المدينة ، إلى جوار مكتب البريد ..

وكان هذا الإجراء يقلب الأمور كلها رأساً على عقب فالمسافة من مكتب البريد إلى شاطيء البحر كبيرة ، وسيكتنف الخطر العملية كلها ، وتتضاعف الصعوبات مع اختراق ثلاثة من ضباط المخابرات المصريين للمدينة ، وبصحبتهم خائن ، كما أنه ليس من الحكمة استبقاء الغواصة لوقت طويل ، بالقرب من الشاطيء ..

وهكذا كان من الضروري أن يتم تعديل الخطة ، فاستقر الرأي على أن تقتصر مهمة الغواصة على نقل الرجال في رحلة الذهاب فحسب ، على أن يتولوا مهمة أسر الخائن ، والعودة به عبر الصحراء المكتظة بالدوريات الإسرائيلية سيراً على الأقدام ..

وكان هذا يُضاعف الصعوبات ..
ويُضاعف الخطر ..

وفي ليلة شديدة البرودة أُلقت غواصة مصرية صغيرة رجال المخابرات المصريين الثلاثة ، من فتحات الطوربين ، أمام شاطيء (العريش) ، وتركتهم يواجهون مصيرهم هناك ..

وفي نفس الوقت ، كان أحد عملاء المنظمة يستدرج الخائن إلى

فخ متقن ، يسيل له لعابه .. فقد أقتعه بأن المنظمة تخفى جزءاً كبيراً من أسلحتها في المقابر ، وأنها أوكلت إليه مهمة حراسة هذه الترساتة ..

ولأن الخائن يرغب في الحصول على مكافأة ضخمة من رؤسائه الإسرائيليين ، فقد طلب من عميل المنظمة أن يُطلعه على المخبأ بنفسه ، حتى يتأكد من وجوده ، قبل أن يبلغ الرؤساء بهذا ..

واصطحبه عميل منظمة (سيناء) إلى ذلك المخبأ المزعوم ..

وأثناء الطريق شعر (على الموجي) بالشك والقلق ، عندما انتبه إلى أن ثلاثة من الرجال يتبعونه ، إلا أنه لم يلبث أن ألقى شكوكه جانباً ، وطرحها خلف ظهره ، عندما لاحظ أن الرجال الثلاثة يقطعون شارع (على بن أبي طالب) في هدوء ، وهم يرتدون الزي الرسمي لجيش الدفاع الإسرائيلي ..

وعلى مشارف المدينة ، وبعد أن ابتعد الجميع عن العمران ، فوجئ (على الموجي) بالرجال الثلاثة ينقضون عليه ويلقون القبض عليه مع عميل المنظمة ، ثم يكشفون له الموقف كله ، ويعلمونه بأنهم سيحملونه معهم إلى (القاهرة) ثم حذروه من مغبة المقاومة ، وأقتعوه بأن لديهم أوامر صريحة بالقضاء عليه في قلب الصحراء ، لو حاول الفرار ..

وأعلن الخائن استسلامه ، وسار مع الرجال في إذعان ، حتى رأى رئيس المجموعة أن الوقت قد حان للحصول على قسط من الراحة قبل مواصلة الرحلة عبر الصحراء ..

ومع الجلوس والراحة ، أشعل رجال المخابرات النار في كومة من القش الجاف ، واستخدموا علبه فارغة من علب الطعام المحفوظة مع قدر من ماء الزمزية لصنع بعض الشاي ..

وفجأة ، رفع الخائن العلبه ، وركل القش المستعمل في وجوه الرجال الثلاثة ، ثم انطلق محاولاً الفرار .. وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه ..

لقد جرى بأقصى سرعته ، تدفعه الرغبة في النجاة ، محاولاً الابتعاد عن الرجال الثلاثة ، متصوراً أن الحروق التي أصابتهم ستمنعهم من مطاردته ، ولكنه لم يكد يقطع عشرين متراً لا غير حتى سمع صوتاً من خلفه ، يهتف في صرامة :

- آخر الخط أيها الحقير ..

وفي اللحظة التالية ، كانت نراغان قويتان تطوقانه ككلابتين من فولاذ ، وعندما حاول مقاومتها في استماتة ، هوت قبضة قوية على فكه ، وانفجرت أخرى في معدته ثم ارتج كياته كله بثلاثة على مؤخرة عنقه ..

وسقط الخائن أرضاً ، وهو يصرخ : *الخداع والخيبة*
- كفى .. كفى .. أنا أستسلم ..

وأصابه الهلع ، وهو يبصق اثنتين من أسنانه ، مع الدم الذى
ملأ فمه ، وراح يعتذر للرجال ، ويتوسل إليهم أن يغفروا له زلته ،
وأن يُغفوه من العقاب ..

ولم يكن الرجال فى حاجة إلى توسلاته ، فى الواقع ، فطبيعتهم
الشخصية ، والتدريبات التى تلقوها ، علمتهم أنه لا وجود
للائتقانات الشخصية فى عملهم ، وأن المصلحة العامة تجب
دائماً رغبات الثأر الفردية ..

ولكن من الضرورى أيضاً ألا يمر الأمر دون عقاب ، ولهذا فقد
تخذ الرجال قرارهم بحرمان الخائن من الطعام والراحة ، طوال الفترة
المتبقية ..

ولابد من الاعتراف هنا بأن الخائن قد عانى عذاباً رهيباً ، طوال
رحلته نحو الغرب ، بعد أن فعل ما فعله ، فلم يكف عن الاعتذار
والتوسل طوال الطريق ، إلا أن أحداً لم يلتفت إليه ، أو يهتم
بإجابة طلباته حتى نهاية اليوم الأول ..

وكانت الرحلة رهيبة بحق ، فالدوريات الإسرائيلية تنتشر فى
كل مكان ، وحالة التوتر تبدو واضحة ، وخاصة بعد أن كشف

الإسرائيليون اختفاء عميلهم ، وأدركوا أن هذا الاختفاء ليس
طبيعياً ، وأنه ينطوى على عمل من أعمال المخابرات المصرية ..

وكان على الرجال الأربعة أن يتفادوا كل الدوريات الإسرائيلية ،
وأن يتخفوا جيداً ، ويمنعوا الخائن من كشف أمرهم ، أو توجيه
أية إشارة ، يمكنها أن تلفت انتباه الإسرائيليين ..
ولم يكن هذا سهلاً ..

لقد استنزف الكثير من قوة الرجال وجهدهم ، وألهب أعصابهم
بشدة ، حتى أن ذلك بدا واضحاً على وجوههم ، وهم يجلسون داخل
كهف رطب ، على مسيرة يوم واحد من شاطئ خليج السويس ،
وقد بلغ منهم الإرهاق والتوتر مبلغهما ، ورمق أصغرهم سناً الخائن
بنظرة محنقة ، قبل أن يقول فى حدة :

- لماذا نحتفظ بهذا الخنزير ؟

تطلع إليه الجميع فى تساؤل وشجب وجه (على الموجى) عندما
سمعه يستطرد : إنه يرهقنا ويجبرنا على السير فى بطن ، ويعرضنا
للخطر ، مع كل هذا العدد من الدوريات الإسرائيلية التى تحيط بنا .

سأله قائد المجموعة :

- ما الذى تريد أن تقترحه بالضبط ؟

رمق الضابط الصغير ذلك الخائن بنظرة قاسية قبل أن يجيب :

- دعونا نتخلص منه هنا .

انهار (على الموجى) تمامًا ، عند سماعه هذه العبارة ، وجثا على ركبتيه ، هاتفاً فى ضراعة ورعب : يا ربنا يا ربنا

- لا .. لا .. اتركونى حياً وسأفعل كل ما تشيرون به .. لن أنطق بكلمة واحدة ، وسأسير بسرعة .. أرجوكم .

كان اقتراح الضابط الصغير يلقى قبولا من الجميع نظراً لاحتقارهم لذلك الخائن ، ولما فعله معهم إلا أن الأوامر لديهم كانت صريحة واضحة ..

(احضروا الخائن حياً) ..

ولهذا رفض قائد المجموعة الاقتراح ، وأعلن فى وضوح أنه لن يسمح بقتل الخائن ، وأنه سيطيع الأوامر حتى النهاية ، وسيعود بالخائن إلى (القاهرة) حياً مهما كان الثمن ..

وواصل الرجال رحلتهم الرهيبة ..

وفى النهاية وصلت القافلة الصغيرة إلى شاطيء (خليج السويس) ، وسط ظلام الليل ، وخوفاً من أن يُطلق الخائن صيحة استغاثة ، قد تثير وحدات الحراسة الإسرائيلية والمنتشرة على الشاطيء ، تم تكميم فمه وتقييد معصميه وكاحليه ، ثم تبادل قائد المجموعة إشارة ضوئية سريعة مع آخر على الشاطيء الغربى ، وبعدها

تسلل قارب مطاطى صغير ، عبر مياه الخليج الباردة ، ولم يمض نصف الساعة حتى كان القارب يعود بالرجال مع أسيرهم ..

وفى (القاهرة) أدلى (على الموجى) باعترافات مثيرة ، أدت إلى رسم صورة دقيقة لأساليب المخابرات الإسرائيلية وعملاتهم ، وساعدت على عودة منظمة (سيناء) إلى العمل من جديد ، فى السابع من فبراير عام 1970م ، حيث قام رجالها بعشرات العمليات الناجحة ، ودمروا مئات الأطنان من الذخائر ، وآلاف الكيلو مترات من الطرق ، وألقوا آلاف القنابل اليدوية على دوريات العدو ، وأطلقوا آلاف الصواريخ المضادة للدبابات ، وأبادوا كتائب كاملة من جيوش العدو ، وعادوا يثيرون جنون وذعر قوات الاحتلال ، ورجال المخابرات الإسرائيلية .

الأكثر أهمية من كل هذا ، أن سقوط (على الموجى) فى قبضة المصريين ، بهذا الأسلوب الرائع ، جعل كل العملاء ، الذين يعملون فى خدمة المخابرات الإسرائيلية ، يُدركون أن ذراع (القاهرة) ليست بعيدة عنهم حتى ولو كانوا فى أحضان العدو .. إنها ستبلغهم حتماً ، وستقبض بشراسة وقسوة على أعناق الخونة ، مهما كانت مواقعهم ليدفعوا ثمن الخيانة ..

وثنم السقوط ..

نقطة الضعف

تعالى وقع خطوات ثقيلة ، عبر ممرات جهاز المخابرات الإسرائيلي ، في ذلك المساء ، السادس من يناير ، عام 1961م ، وتوقف صاحبها لحظات ، ليطلب الإنن بمقابلة رئيس الجهاز ، الذي استقبله في اهتمام واضح وهو يسأله :

- ماذا حدث يا (جولدمان) ؟ .. لماذا طلبت مقابلتى على هذا النحو العاجل ؟ ..
أجابه رجل المخابرات الإسرائيلي وكل خلية من خلاياه تصرخ انفعالا ومرارة :

- المصريون أوقفوا (توماس) وشبكته ..

تلقى رئيس المخابرات الإسرائيلية الخبر كصاعقة قائلاً :
- مستحيل ! .. لقد كنا نعتمد عليه كثيراً .. كيف فعلها المصريون !؟

راح (جولدمان) يروى له ما حدث ، طبقاً لمعلوماته المحدودة عن الواقعة ، التى تمت منذ ساعات فحسب ، ونجح خلالها جهاز المخابرات العامة المصرية ، فى الإيقاع بالجاسوس الأرمينى (جاك ليمون توماس) ، مع معظم أفراد شبكته ، بعد أن نجحت زوجته (كاثى) فى الفرار فى اللحظة الأخيرة ، واستمع إليه رئيس

المخابرات الإسرائيلية فى مرارة لا حصر لها ، قبل أن يدفن وجهه بين راحتيه لحظات ، ويلتقط نفساً عميقاً ، محاولاً إطفاء نيران الهزيمة فى أعماقه ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى (جولدمان) ، قائلاً :

- سنعقد اجتماعاً عاجلاً .. الآن ..

لم تمض نصف الساعة على هذا القول ، حتى كان هناك اجتماع على أعلى مستوى ، داخل مقر قيادة المخابرات الإسرائيلية ، وألقى رئيسها الخبر على المجتمعين ، الذى تلقوه فيما يشبه الصدمة ، ولكن رئيسهم لم يمنحهم الفرصة لتذوق مرارة الهزيمة ، وهو يواصل :

- المشكلة ليست فى الإيقاع بشبكة (توماس) ، ولكن فى خسارتنا لأحد الأهداف الرئيسية ، لقيام مثل هذه الشبكة ، فأنتم تعلمون جميعاً أن الجنرال (عيزرا وايزمان) ، قائد سلاح الطيران ، يصر ويضغط علينا بشدة ، لنبذل قصارى جهدنا ، من أجل الحصول على إحدى طائرات (الميج) ، السوفيتية الصنع ، التى يستخدمها المصريون ، ويتدرب عليها طياروهم ، ولقد أسندنا هذه المهمة لشبكة (توماس) التى بذلت جهوداً جادة ، لإقناع أحد الطيارين المصريين بالفرار بطائرته إلى (إسرائيل) ، مقابل مليون دولار ، ولكن الإيقاع بالشبكة أفسد المهمة كلها ، وصار علينا أن نبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق ما يطلبه قائد الطيران .

وهنا انتقلت المناقشة إلى البحث عن وسيلة أخرى ، للحصول على الطائرة السوفيتية ، واقترح أحدهم زرع عميل فى سلاح الطيران ، ودفعه للقيام بالعمل ، ولكن الآخرين اعترضوا على الفكرة ، لأنها تحتاج إلى وقت طويل ، وغير مضمونة النتائج ، وهنا انبرى أحدهم قائلاً :

- ولم لا نواصل ما بدأته شبكة (توماس) ؟

أجابه رئيسه :

- شبكة (توماس) لم تحقق نجاحاً فى هذا المجال ، فعلى الرغم من ضخامة المبلغ ، إلا أنه لم يغر طياراً مصرياً واحداً بالفرار بطائرته إلى (إسرائيل) ..

هزّ صاحب الاقتراح كتفيه :

- هذا أمر طبيعى ، فأية قوات مسلحة عربية تمنح طيارها حياة رغبة ، تفقد المال أهميته ، باعتباره نقطة ضعف مثالية ، يمكن العبور إلى أى شخص من خلالها .. المشكلة أيها السادة هى نقطة الضعف التى تناسب الشخص .. انتخبوا طياراً له نقطة ضعف وستجدون فيه غايتكم ..

كان الاقتراح مناسباً بالفعل ، ولقد اجتمعت عليه الآراء فى نهاية الأمر ، وصدر القرار بوضعه مباشرة موضع التنفيذ ، فنشطت

أجهزة المخابرات الإسرائيلية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الطيارين ، وعاداتهم ، واهتماماتهم ، وحياتهم الاجتماعية .
ووقع الاختيار على النقيب (عباس حلمى) ، من سلاح الطيران المصرى ..

هذا لأن النقيب (عباس حلمى) كانت له نقطة ضعف بالغة الخطورة ، وتصلح تماماً للقيام بالعمل المنشود ..

ففى واحدة من سهراته ، التقى (عباس) بالشقراء (ريبكا) ..

ومنذ اللحظة الأولى ، جذبت (ريبكا) أنظار الجميع فى (الكازينو) ، بأناقته الواضحة ، وأنوثتها المفرطة ، وتلك الضحكات الرنانة ، المفعمة بالدلال والعبث .

ولأن (عباس حلمى) ضعيف غاية الضعف أمام النساء ، فقد تعلقت عيناه بتلك الفتنة طوال السهرة ، وحاول أن يُبادلها الابتسام مرة أو مرتين ، إلا أنها رمته بنظرة لا مبالية ، وعادت إلى ضحكتها مع من تجالسهم ..

واشتعلت أعصاب الشباب ، وتوترت كثيراً ، وهو يواصل مراقبة الفتنة الشقراء ، ويحلم كمعظم الجالسين بالاقتراب منها ومجالستها ، ويأسف لأنها لا تعيره اهتماماً ..

ولكن (ربيكا) غادرت المائدة ، بعد ثلاث ساعات ، بحجة تعديل زينتها ، وفي طريقها إلى الحجرة المخصصة لهذا ، توقفت عند مائدة (عباس حلمي) ومنحته ابتسامة عذبة ، وهي تقول :
- انتظرني .. سأعود إليك .

لم يصدق (عباس) نفسه ، وراح قلبه يخفق في عنف ، عندما عادت إليه (ربيكا) بالفعل ، متجاهلة هؤلاء الذين كانت تجالسهم من قبل ، وأكملت سهرتها على مائدته وتربعت في أعماق قلبه ، الذي نبض في قوة ، حتى إن نبضاته علت على صوت العقل ، وأخرسته تمامًا داخل جمجمته ، وسلبته الفاتنة الشقراء رصانته وتفكيره ..

وفي حنكة وخبرة ، راحت العميلة الإسرائيلية تنسج شباكها حول الطيار الشاب ، وتتغلغل في حياته ، حتى صارت جزءًا منه ، من العسير أن يتخلى عنه ، أو يفترقه ..

وعندما أيقنت (ربيكا) من إحكام سيطرتها عليه تمامًا ، انتقلت مباشرة إلى الخطوة التالية ، واختارت لها أفضل لحظتهما ، وأكثرها رومانسية ، لتقول :

- (عباس) .. يبدو أننا لن نستطيع الاستمرار معًا .

- ماذا تقولين؟! .. مستحيل! ..

تظاهرت بالحزن والبكاء ، وهي تقول :

- ولكن هذا محتم مع الأسف يا (عباس) ، فلا أحد سيسمح لك بالزواج من فتاة مثلي ، ثم إنه من الضروري أن أعود إلى موطني ، الذي أخفيته عنك طوال الوقت ..

- ولماذا أخفيت عن موطنك يا (ربيكا)؟! .. ما موطنك بالضبط؟

أسبلت جفنيها على نحو مدروس ، وتركت صوتها يتهدج في براعة ، وهي تجيب في حزم تمثيلي :

- إسرائيل .

كانت مفاجأة مذهلة للطيار الشاب ، وهي تنسج له قصة زائفة ، حول منشئها الألماني ، وهجرة أسرتها إلى (إسرائيل) ، واستعدادها للحاق بهم ، ثم انتهت القصة بفيض من دموع التماسيح ، وهي ترتدى بين ذراعيه ، وتسكب دموعها على صدره ، وتقول إنها كانت تتمنى لو استطاعا السفر معًا إلى (إسرائيل) ، والحياة فيها إلى الأبد ، مؤكدة استحالة بقائها في (مصر) ، وحتمية سفرها ..

وفي توتر شديد ، قال (عباس) :

- ولكن سفرنا معًا إلى (إسرائيل) مستحيل! .. أنا طيار مصري ، وأنت تعلمين أن (مصر) و (إسرائيل) في حالة حرب ..

يقود طائرة مصرية إلى أرض العدو الإسرائيلي ، الذي تعلم دائماً
أن يقاتله بلا هوادة ..

ولكن ، ومع استمرار العزف على نقطة ضعفه الكبرى ، انهارت
مقاومة (عباس حلمي) ، واتخذ أسوأ قرار في حياته كلها ..
قرار خيانة الوطن ..

وسافرت (ربيكا) إلى (إسرائيل) ، وهي تهمس له بأنها ستكون
في انتظاره هناك ، على أحر من الجمر ، عندما يصل بالطائرة
المصرية السوفيتية الصنع ..

وذات صباح ، وبعد رحيل (ربيكا) بأسبوعين أو ثلاثة ، نفذ
(عباس حلمي) مهمته القذرة ، وانطلق بطائرته إلى (إسرائيل) ..
وهناك ، أصيب الإسرائيليون بصدمة كبيرة ، وشعروا بخيبة
أمل عنيفة ، وهم يستقبلونه في أحد مطاراتهم الحربية ..

لقد هرب إليهم (عباس حلمي) بطائرة تدريب سوفيتية الصنع ،
من طراز (ياك) وليس بالطائرة (الميج) ، التي قاتلوا طوال الوقت
للحصول عليها ..

أما (عباس) نفسه ، فقد كانت في استقباله صدمة أكثر عنفاً ..
فمنذ اللحظة الأولى ، راح يسأل في لهفة وإلحاح عن (ربيكا) ،
ويطلب مقابلتها ، ويؤكد لكل من يلتقى به أنه لم يخن وطنه إلا من
أجلها ، والجميع يماطلونه ، ويتذرعون بشتى الأعذار ..

قالت في دلال وحزن مدروسين :

- لا مفر من الفراق إذن .

هتف بسرعة :

- لا .. إلا الفراق ..

ارتسمت داخلها ابتسامة ظافرة وثيقة ، لم تجد طريقها إلى شفقتها ،
اللتين احتفظتا برسم الأسف والأسى ، وهي تقول له في عذوبة :
- اترك الأمر لي إذن .. سأجد حلاً ..

وحتى تواصل العملية الإسرائيلية الضغط على مشاعره ، واستغلال
نقطة ضعفه أكثر وأكثر ، غرقت في حبه في الأيام التالية ، بحجة
أنها تنهل منه قدر استطاعتها ، قبل أن يفرقهما رحيلها إلى
(إسرائيل) ..

وهكذا نسي (عباس حلمي) وطنه وانتماءه ، وأصبح شغله
الشاغل هو العثور على وسيلة للسفر مع (ربيكا) إلى (إسرائيل) ،
والعيش معها ..

وفي غمرة توتره وحيرته وقلقه ، خرجت عليه الإسرائيلية
بالفكرة ، التي وضعت من أجلها الخطة كلها ..

وفزع (عباس) من الفكرة في البداية ، ولم يتصور نفسه أبداً

ثم لم يلبث مسئول المخابرات الإسرائيلية أن صارحه بالموقف ..

وهنا فهم (عباس) الموقف في وضوح ..

وعلى الرغم من حزنه ومرارته ، أدرك (عباس حلمي) جيداً أنه قد وقع في الفخ ، وخان وطنه بلا طائل ، وفي الوقت ذاته ، وعلى الرغم من خيبة أملهم الواضحة ، أحسن الإسرائيليون استقبال الطيار المصري الشاب ، وحصلت منه المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) على بعض المعلومات الخاصة بسلاح الطيران ، واستخدمه المسئولون الإسرائيليون لأغراض إعلامية دعائية ، حيث أدان تدخل (مصر) في (اليمن) ، وهاجم نظام حكم الرئيس (جمال عبدالناصر) ..

ولكن إحساس الخسارة والهزيمة لم يفارق (عباس حلمي) قط ، على الرغم من حصوله على مساعدة مالية من الإسرائيليين ، ووظيفة جيدة في (تل أبيب) ، فقد أدرك ، بعد فوات الأوان ، أنه كان ضحية خدعة حقيرة ، حوكته من طيار محترم ، يتمتع بكيان اجتماعي متميز في وطنه ، إلى خائن هارب ، يحتقره جيرانه الإسرائيليون قبل أبناء وطنه في (مصر) ، فقرر الهجرة إلى (أمريكا الجنوبية) ، وأعلن قراره هذا ، وأصرّ عليه في شدة ، على الرغم من تحذيرات المتعاملين معه في (تل أبيب) ، فلم يكن أمام الإسرائيليين سوى الموافقة على طلبه ، ومنحه معونة مالية ، ووثائق هوية جديدة ..

ومع رحيله إلى (الأرجنتين) ، تخلص (عباس حلمي) من شعوره الدائم بالخوف والخطر ..

مطّ ضابط المخابرات المصري (ص) شفّتيه في شيء من الضيق ، وهو يراجع ملف (عباس حلمي) للمرة الخامسة ، قبل أن يطلق من أعماق صدره زفرة حارة ، جعلت زميله (م) يسأله :
- ماذا حدث بالضبط ؟

اعتدل (ص) في مقعده ، وهو يشير إلى الملف ، قائلاً :

- قضية (عباس حلمي) .. المسئولون ما زالوا يوجهون لنا اللوم بشأنها ، على الرغم من أن خيانتته كانت مفاجأة حقيقية ، فكل التقارير الواردة من المخابرات الحربية بشأنه كانت تشير إلى أنه طيار ملتزم ، ولم تكن هناك إشارة واحدة إلى احتمال خيانتته للوطن ..

لوح (م) بكفه ، قائلاً :

- هذا يحدث في أي مكان في العالم ..

أوماً (ص) برأسه موافقاً ، وهو يقول :

- أعلم هذا بالطبع ، ولكن يضايقني أن يفلت بفعلته هذه ..

- وأعتقد أن هذا جزاء عادل ..

لم يكن (عباس حلمى) يستقر فى (بيونس أيرس) ، حتى عاد إلى عاداته القديمة فى السهر ، وفى مغازلته الجميلات ، وأضاف إليها إقبالا زائداً على احتساء الخمر ، وكأنما يحاول قتل شعوره الدائم بالعار والهزيمة منذ فارقته (ريبكا) التى لم يقع بصره عليها بعد رحيلها من (مصر) وذات ليلة وبعد شهرين من إقامته فى (الأرجنتين) وقع بصره على فاتنة شقراء أخرى ..

ولكنها لم تكن عابثة مستهترّة مثل (ريبكا) ، ولكنها كانت تشبهها إلى حد كبير ، فى طريقة تصفيف الشعر ، وفى ابتسامتها الجذابة الأنيقة ..

ولأنها كانت تجلس وحدها ، فى تلك الليلة ، فقد قرر (عباس حلمى) التقرب منها ، وهو يسألها بالإنجليزية :

- أسمح لي بمشاركتك المائدة ؟

رفعت عينيها إليه فى هدوء ، وسألته بإنجليزية ثقيلة تغلب عليها اللكنة الألمانية :

- بأية مناسبة ؟

ابتسم (م) وهو يجيب :

- اطمئن لن يفلت بإذن الله .

فتنهده (ص) ، وغمغم :

- لا أحد يفلت إلى الأبد ..

لم يكذب يتم عبارته ، حتى سمع دقات على باب مكتبه ، ودخل أحد رجال المخابرات التابعين له ، يسلمه تقريراً مختصراً ، لم يكذب يطالعه ، حتى هبّ من مقعده وهو يلوح بالتقرير فى وجه (م) ، هاتفاً :

- (عباس حلمى) وقع فى الخطأ الذى كنا ننتظره .. لقد أرسل إلى والدته بطاقة من (بيونس أيرس) فى (الأرجنتين) .. لقد كشف نفسه ، وعلينا الآن أن نسعى خلفه ..

سأله (م) فى اهتمام شديد :

- أديك خطة محددة للإيقاع به ؟

ابتسم (ص) ، وهو يقول :

- ولماذا نرهق أنفسنا فى البحث عن خطة .. سنستخدم نقطة الضعف نفسها ، والتى استخدمها معه الإسرائيليون ..

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

جذب مقعدًا ليجلس بالفعل ، وهو يجيب :

- من الواضح أن كلينا غريب هنا ، وهذا في رأيي سبب كلف .

أطلقت الشقراء ضحكة وقالت :

- على أية حال ، لم يعد السبب بهم ، فقد جلست بالفعل .

اتصل بينهما الحديث في سرعة ، وأخبرته الشقراء الجديدة أنها ألمانية الأصل ، تقضى إجازاتها في (بيونس أيرس) ، وطالت جلستهما إلى ما بعد منتصف الليل ، وعندئذ دعت الشقراء لإكمال السهرة في منزلها الخاص ، في ضواحي المدينة ، فوافق (عباس) على الفور ، واستقل معها سيارتها إلى منزلها ، وطلب من أحد موظفي (الكازينو) قيادة سيارته إلى منزله ، وعندما وصل مع الشقراء إلى منزلها ، كان يطلق ضحكة مرحة ، مفعمة بالزهو والظفر ، إلا أنها أغلقت الباب خلفهما في إحكام ، ثم التفتت إليه ، قائلة :

- لا أهلاً ولا سهلاً بك هنا يا (عباس حلمي) .

نطقها بالعربية ، وفي صرامة عجيبة ، امتزجت بلهجتها المصرية الخالصة ، فانتفض جسده كله في ارتياح ، وتراجع صارخاً :

- من أنت؟! .. من أنت بالضبط!؟

ومع آخر حروف كلماته ، انقض عليه رجال المخابرات المصرية ، وتغلبوا عليه بعد معركة قصيرة ، انتهت بحقنه بعقار خاص ، أسقطه في سبات صناعي طويل ..

وبسرعة ودقة ، تم وضع (عباس حلمي) داخل صندوق شحن بحري ، انتقل بسرعة إلى سيارة كبيرة ، تنتظر خلف المنزل ، حيث انتقلت مباشرة إلى السفارة المصرية ، ومنها إلى باخرة شحن تنتظر في الميناء ، لتحمل صندوقاً له صبغة دبلوماسية ، وترحل به مباشرة إلى (الإسكندرية) ..

وفي (القاهرة) ، انهار (عباس حلمي) تماماً .

وعندما صدر الحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ، تهازل أكثر وأكثر ..

لقد خسر سمعته ، ووظيفته ، واحترامه ، وانتماءه ..

بل وحياته كلها ..

خسر كل هذا من أجل نقطة واحدة ..

نقطة ضعف .

وسقطت كل الرءوس! ..

التهبت القلوب العربية كلها بالحماس ، فى تلك الفترة فى صيف عام 1956م . بعد أن رحل آخر جندى بريطانى عن أرض (مصر) ، معلناً استقلالها ، بعد ما يزيد على سبعين عاماً من الاحتلال ، وتابع الجميع فى لهفة أخبار مشروع السد العالى ، ولهتت الأنفاس مع الأخبار المتتالية ، والمواقف المتقلبة للأمريكيين ، وراح الجميع يتساءلون فى لهفة وحذر وترقب ، عن الخطوة التالية للرئيس (جمال عبد الناصر) فى مواجهة كل القوى التى تسعى للقضاء على شعبيته الجارفة ، وتحطيم عناده الشهير ..

أما (عبد الناصر) نفسه ، فعلى الرغم من دقة الموقف ، وإعداده الحذر لخطوة تأميم قناة السويس ، ودراسته لكل ما يمكن أن يترتب عليها من ردود أفعال وانفعالات ، كان يطالع فى اهتمام بالغ أحد الملفات ، التى أرسلتها إليه إدارة المخابرات العامة ، وهو ينقر بسبابته على جبهته ، ثم لم يلبث أن تمتم :

- لم تعد هذه العملية تحتل الاستمرار .

والتقط قلمه ، ووضع تأشيرة صريحة على الملف ..

تأشيرة تأمر بإنهاء العملية على الفور ..

وبإعلان الأمر رسمياً .

وخفقت قلوب رجال المخابرات المصرية فى ارتياح ، عندما وقعت أبصارهم على تأشيرة الرئيس ، التى تعلن انتهاء آخر جولة فى صراع طويل مع المخابرات البريطانية ، استغرق ثلاث سنوات كاملة ..

وتعلن أيضاً أن الوقت قد حان لإسقاط الرءوس ..

كل الرءوس ..

كانت البداية فى أواخر عام 1953م ، عندما وصلت معلومات بالغة الخطورة ، لضابط شرطة مصرى ، يدعى (محمد شكرى حافظ) ، تشير إلى أن فرع وكالة الأنباء (رويتر) فى (القاهرة) ، ينشط لمعرفة وجمع الكثير من المعلومات ، عن النشاطات المصرية ، فى مختلف المجالات ، وعلى نحو يتجاوز الاهتمامات الطبيعية لأية وكالة أنباء عادية ..

وكرر فعل طبيعى ، أثارت هذه المعلومات شكوك (شكرى) ، وجعلته يتجه بدوره إلى جمع المعلومات والتحريات ، حول وكالة (رويتر) فى (القاهرة) ..

وفى البداية بدت الأمور كلها عادية ومألوفة ، باستثناء ذلك الاهتمام المبالغ فيه ، بجمع الأخبار والمعلومات ، حول النشاطات العسكرية والحربية المصرية ..

ولم يكن من السهل أن يتخذ (شكرى) قراراً حاسماً فى هذا الشأن ، فلم تكن خبرته بوكالات الأنباء تكفى لتحديد أهمية أو عدم أهمية جمع مثل هذه المعلومات ، بالنسبة لوكالة أنباء مثل (رويترز) ، لذا فقد ركز (شكرى) اهتمامه على جمع كل ما يمكنه من تحريات ، عن العاملين فى الوكالة ، والمتعاملين معها ، وقضى ليلاليه ساهراً ، يدرس كل ما لديه بمنتهى الدقة ، حتى وقع اختياره على أحد العاملين بالوكالة ..

(صلاح محمد على) .. سكرتير مدير الوكالة الشاب ، كان هو الشخص ، الذى وقع عليه اختيار (شكرى) ، ليعاونه على جمع المزيد من المعلومات والتحريات من داخل الوكالة ، لأنه شاب مصرى ، شريف ، ومباشر إلى أقصى حد ..

وقرر (شكرى) الاتصال بهذا السكرتير (صلاح) ، الذى بوغت بالموقف ، وجلس أمام (شكرى) حائراً متوتراً ، وهو يسأله :

- لماذا طلبت مقابلتى يا سيد (شكرى) ؟ ..؟

ولماذا تصر على سرية المقابلة ؟

أجابه (شكرى) مباشرة ، ودون مواردية :

- لأنى أشك فى أن الوكالة ، التى تعمل فيها هى فى الواقع شبكة تجسس ، بهت (صلاح) ، وارتعدت فرائصه ، وشحب وجهه بشدة ، وهو يرتجف قائلاً :

- هل .. هل ..

لم يقو على نطق الكلمة ، فقال (شكرى) ليطمئننه :

- اطمئن .. لست أشك فى أمرك ، بل إننى أنشد تعاونك .

وهنا فقط تنفس (صلاح) الصعداء ، وراح يستمع إلى (شكرى) ، الذى نقل إليه شكوكه كلها ، وطلب منه بصفته المصرية ، أن يتعاون معه بكل طاقته ، لكشف أمر هذه الشبكة ..

وبكل إخلاص ، تفتانى (صلاح) فى التعاون مع (شكرى) ، ونقل إليه كل ما توصل ويتوصل إليه من معلومات ، أولاً بأول ..

وراحت الأفتنة تتساقط ، ليكشف (شكرى) أن نائب وكالة (رويترز) فى (القاهرة) (جيمس سوينبرن) ، هو أخطر رجل فى اللعبة كلها ..

وعند هذه النقطة بالتحديد ، جاء دور المخابرات المصرية ..

لقد شعر (شكري) بدقّة وخطورة الموقف ، فحمل كل ما لديه من معلومات ، واتجه مباشرة إلى المخابرات المصرية ، وقدم إليها القضية كلها ..

وفى عناية بالغة ، درس رجال المخابرات المصرية الموقف كله ، ثم رأوا أنه من الأفضل أن يستمر (شكري) فى متابعة القضية تحت إبصارهم ، وبمعاونة أحد رجالهم ، الصاغ (حسن بلبل) ، الذى استمع مرة أخرى إلى كل ما لدى (شكري) ، قبل أن يقول :

- اعتقد أنه حان الوقت للانتقال إلى خطوة جديدة .

سأله (شكري) فى اهتمام : ..

- وما هذه الخطوة الجديدة فى اعتقادك؟

أجابه (حسن) فى حزم :

- أن تكشف كل أوراق الخصم .. ودون أن يدري وكان له ما أراد ..

ففى اليوم التالى مباشرة ، طبع (صلاح) مفتاح خزنة (سوينبرن) على قطعة من الصلصال ، سلمها إلى (حسن) ، الذى صنع منها نسخة طبق الأصل من المفتاح يدوياً ، لتبدأ سلسلة من عمليات سرقة الوثائق من مقر الشركة ، وتصويرها ، ثم إعادتها إلى الخزنة ، دون أن يشعر بهذا أحد ..

وهنا اتضحت الصورة أكثر وأكثر ..

واتضحت الخطورة ..

كانت هناك شبكة جاسوسية ضخمة ، يديرها (سوينبرن) ، وتضم عدداً من الجواسيس ، من المصريين والأجانب ، يحمل كل منهم اسماً كودياً خاصاً ، يجعل من العسير ، بل من شبه المستحيل التوصل إليهم ..

وانتقلت الأحداث إلى مرحلة المراقبة ، حيث راح رجال المخابرات يراقبون منزل (سوينبرن) طوال الساعات الأربع والعشرين ، إلى أن لاحظوا وجود رجل نحيل ، يتردد على منزل (سوينبرن) بصفة منتظمة ، حاملاً بعض البيض والدجاج ، واعتاد سكان البناية على أن يطلقوا عليه اسم (رجل البيض) ..

وكانت البداية ..

وقبل مرور عام واحد ، كان رجال المخابرات المصرية قد كشفوا معظم أصحاب الأسماء الكودية ، فاسم (فيليب) يعنى الرائد البحرى (أحمد لطفى) ، و(بيل) هو (محمد عبيد) ، وهكذا ..

وتصور الجميع أن نهاية العملية قد حانت ، وأن ملف القضية فى آخر صفحاته ..

ثم كانت المفاجأة الجديدة ..

لقد ظهر على الساحة رجل بالغ القوة ، له ملف ضخمة مخيف ، فى كل أجهزة المخابرات فى العالم أجمع ، فى تلك الفترة ..

(مليوفان جليجو رابيفتش) ..

(ورابيفتش) هذا كان يحتل منصب مدير المخابرات السوفيتية ، قبل الانقلاب الذى ترعاه المارشال (تيتو) ، ثم فر إلى (القاهرة) مع الانقلاب ، وطلب حق اللجوء السياسى إليها ، وأقام بها مع عدد كبير من المهاجرين اليوجوسلافيين ..

ومن هؤلاء المهاجرين ، كانت تتكون شبكة جاسوسية ثانية ، يرأسها (رابيفتش) ، ويربطها بالشبكة الأولى ، التى يرأسها (سوينبرن) عن طريق واحد من أبرز ضباط المخابرات البريطانية ، وأكثرهم خبرة وشهرة ، خلال الحرب العالمية الثانية ..

(جون ثورنتون ستانلى) ..

(ستانلى) هو أحد قادة قوات الكوماندوز البريطانية فى الحرب العالمية الثانية ، وأحد أكبر قادة المقاومة ضد الألمان فى (كريت) ، وحاصل على نيشان البطولة العسكرية من الملك ..

وفى هذا الوقت كان (ستانلى) يقيم فى (القاهرة) ، مع زوجة كريتيية ، يونانية الجنسية ، ويعمل كهجرة وصل ، بين شبكات التجسس ..

وكلمة شبكات هنا ليست خطأ مطبعياً ، فخلال العام الثانى ، وعبر مراقبة مكثفة ومستمرة لكل من (سوينبرن) ، و(رابيفتش) ، و(ستانلى) انكشف أمر شبكة جاسوسية ثالثة ، يتزعمها بريطانى آخر ، يمتلك مصنفاً بسيطاً للخزف فى الزمالك ، ويحمل اسم (جيمس زارب) ..

وذات ليلة ، هتف (حسن بلبل) مبهوتاً :

- إننا لسنا أمام شبكة جاسوسية فحسب .. إنه جيش كامل .. جيش من الجواسيس .

أجابه (شكرى) ، وهو يطلق زفرة عميقة :

- لم أتصور هذا قط .

ضرب (حسن) سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول :

- هؤلاء الملعونون يحاصروننا من كل صوب ..

إنهم يرفضون إعطاءنا فرصة لبناء مجتمعنا الجديد .

قال (شكرى) فى حزم :

- ومن سيسمح لهم ؟

وفى تلك الليلة ، ودون اتفاق صريح ، قرر الاثنان مواصلة السعى ، لكشف هذه الشبكة الضخمة ، مهما كان الثمن ..

وفى ليال كثيرة ، كان (شكرى) يتسلل بنفسه إلى مكتب (سوينبرن) ، ويسرق الوثائق ، ويقوم بتصويرها ، متخذاً وسائل جديدة فى كل مرة ، ومعرضاً نفسه لمخاطر شتى بلا حصر ..

أما (حسن) ، فراح يحكم قبضته على الشبكات الثلاث ، دون أن يشعر أفرادها بهذا ..

وفى إجراء حتمى ، أرسل جهاز المخابرات تقريراً بالغ السرية ، بتفاصيل العملية كلها ، إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) ، وسلمه إياه مدير المخابرات بنفسه ، وطالعه الرئيس بمنتهى الاهتمام ، قبل أن يهز رأسه قائلاً :

- صدقتى .. لم يدهشنى هذا ، فلم أتوقع أبداً أن يتركنا البريطانيون لحالنا بعد عشرات السنين من الاحتلال .

قال مدير المخابرات معلقاً :

- ربما ينطبق هذا على البريطانيين .

ولكن ماذا عن المهاجرين اليوجوسلافيين ؟

هز الرئيس كتفيه ، وقال :

- الأمر يتوقف على من يشعرون نحوه بالولاء أكثر .. نحن أم البريطانيون .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه وسأله :

- وبم تأمر يا سيادة الرئيس ؟ .. هل نلقى القبض عليهم جميعاً ؟

صمت الرئيس (جمال عبد الناصر) لحظات مفكراً ، ثم أجاب .

- كلاً .. ليس بعد .. فمن يدرى ما الذى يمكن أن يتكشف ، مع مرور الوقت .

وكان الرئيس (جمال) حكيمًا للغاية بهذا القول ..

وبعيد النظر أيضاً ..

فلم يمض نصف العام الثالث حتى ظهرت شبكة رابعة ، لم تكن فى الحسبان ..

شبكة جاسوسية ، كل أفرادها من داخل الجهاز الحكومى ..

شبكة داخلية ..

وأيضاً كان (ستانلى) هو همزة الوصل ، بين تلك الشبكة الداخلية ،

وباقى الشبكات الأخرى ..

لقد كانت (مصر) تواجه بالفعل جيشاً هائلاً من الجواسيس ، عبر

أربع شبكات تجسس ضخمة ، تم ربطها ببعضها البعض ، لتصبح

دولة داخل دولة ، مهمتها الأولى هى تدمير هذا الكيان الجديد

من الداخل ، وتحطيم أول تجربة لحكم المصريين ..

وفي هذه المرة تم إعداد عدد من الكشوف . لحصر هذا العدد الهائل من الجواسيس .

وانتفخ ملف العملية ، وتضخم بشدة .. (جيمس سوينبرن) .. بل تحول إلى عشرات الملفات والوثائق ..

ومع التهاب الموقف وتوتره ، قرر الرئيس (جمال عبد الناصر) إنهاء العملية كلها ..

والأهم أنه أمر بأن يكون ذلك علنياً .. وفاضحاً ..

« أنت (جيمس سوينبرن) .. أليس كذلك ؟ .. »

نطقها رجل المخابرات المصري في هدوء ، وهو يتطلع إلى وجه (سوينبرن) بنظرة فاحصة ، فابتسم (سوينبرن) ، وهو يقول :

- بلى .. هو أنا ، هل من خدمة يمكنني تقديمها لكم ، من وكالة (رويتر) ؟

أجابه ضابط المخابرات بابتسامة باهتة :

- بالطبع .. ستقدم لنا أكبر خدمة يمكنك تصورها .. ستعترف بأمر شبكة الجاسوسية كلها ..

اتسعت عيننا (سوينبرن) في ذهول ، وكاد يهوى فاقدًا للوعي ، غير مصدق أن شبكته ، التي حاكها بكل دقة والحذر ، قد انكشفت على هذا النحو ..

ولقد حاول الإنكار بالطبع ، ولكن رجال المخابرات المصرية لم يمنحوه الفرصة لذلك ، فقد حاصروه بالصور والوثائق ، والأدلة التي لا تقبل الشك ..

ولم يعد بوسع (سوينبرن) الإنكار ..

لقد اعترف في قرارة نفسه بنجاح المخابرات المصرية في هذه القضية ..

وكان هذا يدهشه ..

بل يذهله ..

لقد خرجت المخابرات البريطانية من الحرب العالمية الثانية ، وهي أقوى جهاز مخابرات في العالم ، باعتراف الأعداء قبل الأصدقاء ، ولم يكن يتصور أبداً أن جهاز المخابرات المصري الوليد ، الذي لم تمض بعد عدة سنوات على إنشائه ، يمكنه أن يهزم المخابرات البريطانية مثل هذه الهزيمة الماحقة ..

وفي محاولة أخيرة حاول (سوينبرن) أن يخفي وجود الشبكات

وفي الصفحات الأولى لصحف العالم أجمع ، ظهرت صور رؤساء الشبكات الأربع ، وراء القضبان المصرية ..

وأدرك العالم أن عهدًا جديدًا قد بدأ ..

عهدًا تعلق فيه هامة المخابرات المصرية ..

وتسقط فيه رعوس خصومها ..

كل الرعوس .

الثلاث الأخرى ، ولكنه فوجئ باليوجوسلافي (رابيفتش) أمامه ذليلاً ، داخل مبنى المخابرات المصرية ، فهتف مشدوهاً :

- أنت؟! .. هل أوقعوا بك؟

أجابه (رابيفتش) في مرارة :

- لست وحدى يا رجل .. لقد أجاد المصريون اللعبة ، وأوقعوا

بالجميع بخبطة واحدة ..

هتف (سوينبرن) فى ذعر :

- حتى (جيمس زارب) ؟

أوماً (رابيفتش) برأسه إيجاباً ، والدموع تكاد تفر من عينيه ، قبل لحظات من وصول (زارب) ، الذى انضم إليهما منهاراً بلأساً ..

ولم يجد رجال المخابرات المصرية صعوبة ، فى الحصول على اعترافات الثلاثة ..

وكانت فضيحة مدوية ..

فضيحة تناقلتها وكالات الأنباء بكل الدهشة والانبهار ، وعلى رأسها وكالة (رويتر) ، لتعلن للعالم أجمع خبر فوز المصريين فى

حرب الجواسيس ، وإلقاء القبض على أربع شبكات جاسوسية دفعة واحدة ..



و. نبيل فاروق

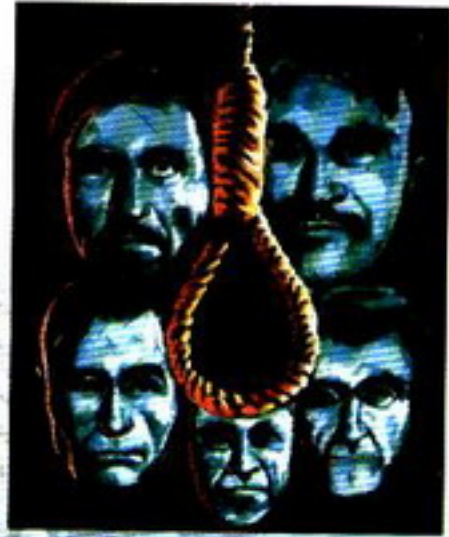
صراع العقول
الذي يتفوق
دوما على
أعتى الأسلحة
والمعدات

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

حرب الجواسيس

وسقطت كل الرعوس!



3



المؤسسة

العربية الحديثة

لتنوع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمان في مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم